الدكتور لطفي عبد البديع



عبقرية العربية في رؤية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب



كتاب
النادي الأدبي الثقافي
٣٤

الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

جده في ١٠ رجب ١٤٠٦ هـ
الموافق ٢٠ مارس ١٩٨٦ م

طبعت بمطابع دار البلاد ـ جدة
ت : ٦٧٠٠٣٣٣ ص . ب : ٧٦١٤ جدة ٢١٤٧٢


بسم الله الرحمن الرحيم

النادى الأدبى الثقافى

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب: ٥٩١٩ - ت ٦٥٢٢٩٧٢

المقدمة

اللغة وإن تقادمت جديدة ، وفقهها وإن بعد بـه العهد حـديث ، لأن اللغـة ليست كسـائـر الأدوات التى تنفـد بالاستعمال وإنما هى كالوجود الذى يتكشف لك كلما أوغلت فيه ، وفقهها ليس مجرد إثبات الألفاظ فى السطور ثم إلقائها فى الصدور وإنما هو فى الحوار مع الانسان وهو يمزق حجب الزمان .

وفقه العربية جاز فيه لعهدنا كل شىء إلا أن يكون فقه العربية ، فقد تحول إلى شذرات من الساميـات والكلام فى الأصـوات ، استحالت معهـا اللغة إلى فقـاقيع تتـطاير فى المعاهد والجامعات . وكان هذا العلم هو العلم المقدم عند الأولين يعـدونه الأصـل الذى تبنى عليه سـائر العلوم ، وتاريخ البحث فيه يمتد الى تاريخ جمـع اللغة وتـدوينها وما يتصل بذلك من شعور غريب ، ثم تتابعت حلقات البحث بكتب اللغة والمعجمات ، وما صنفه علماء العربية فى هذا الباب لا يعدله ما صنفه غيرهم من أبناء اللغات الأخرى ، وقل أن يوجد معجم كالصحاح للجوهرى فى عهد الجوهرى أو معجم كلسان العرب لابن منظور فى عصر ابن منظور .

وهذا بحث نفتتح به فى فقه اللغة أفقا جديدا من النظر مبناه على رؤية الانسان للعالم فى اللغة مفردات وتراكيب ، وقد عولنا فى المادة اللغوية التى عرضناها بالتحليل على ما يضمه المخصص لابن سيده ولسان العرب لابن منظور ، ورتبنا الكتاب على تمهيد فى اللغة وثلاثة فصول : الفصل الأول فى الانسان وأحواله ويضم خلق الانسان والنفس ، والفصل الثانى فى السماء والكواكب والنجوم والسحاب ، والفصل الثالث فى الحيوان ويشمل الكلام على الناقة والفرس .

والله المستعان .

لطفى عبدالبديع

تمهيد فى اللغة

- ١ -

لو جاز للانسان أن يبصر بغير عينين ويبطش بغير يدين ويمشى بغير قدمين لجاز له أن يكون إنسانا بغير لسان وبيان .

واللغة ليست بشرية بما تشتمل عليه من حركات وسكنات تظهر فى الأصوات التى تنبس بها الشفاه وتدوى بها الحناجر ، فللحيوان من صهيل الخيل وزئير الأسود وتغريد الطير مثل ذلك وأكثر منه ، وإنما هى كذلك بما تنبض به من معنى يضفيه الانسان على الأشياء التى يسميها ، فهذا مناطها دون سواه من المقاييس والمعايير وبه يتميز عن سائر الحيوان .

ولقد كان الانسان على علو رتبته فى سلم الترقى بين الكائنات والأجناس أضعفها من حيث القوة الجسمانية وأقلها هداية بالغرائز الفطرية ، إذ تبزه النملة على صغر حجمها كما يفوقه الفيل بعظم جرمه ، وقد حرم الأظلاف وجرد من الأنياب ، يولد عارى الجسد لا يستره شىء من

مثل ريش الطير وشعر السباع ولا يمشى إلا بعد معاناة طويلة وسقوط كثير ، ولابد له من أم ترأمه زمنا لا يحتاج اليه أقرانه من أطفال الحيوان ، ثم تهوى به الريح التى يجاريها الطير ويغرق فى الماء الذى تمخر عبابه الحيتان وتحرقه الشمس التى تخطبها الحرباء ، ولكنه استطاع على ضعفه بل بسبب هذا الضعف أن يقهر العالم وهو خصمه فشق الأرض وأوقد النار وامتطى ثبج البحر وحول مجرى النهر وحلق فى أجواز الفضاء وبقى الحيوان على قوته لاصقا بمكانه لا يبرحه ، مطأطىء الرأس لما يحدق به من أخطار .

والثقافة الانسانية التى تنزل اللغة منها منزلة اللب والجوهر إن كانت تدين لشىء فانما تدين للرغبة فى الخلود والرهبة من الموت ، وحياة الانسان التى يجدها الفناء من جميع أطرافها ما كان لها أن تطرد وتتعاقب حلقاتها لولا ما يمسكها من الصورة المنقوشة والتمثال المنحوت والبنيان المشيد ، يجدد بها المرء حياته الماضية ويحميها من الدثور ، ولكن لا يبلغ شىء من ذلك مبلغ الكلمة التى استطارت بين الشفاه والآذان واستقرت على الصخور والجدران يقتنص بها لحظات الوجود فى خضم الصيرورة السيال ويسيطر بها على ما راعه من أشياء وكائنات كما يسيطر الساحر على ضحاياه.

وبالكلمة تـأتت له القدرة عـلى تجريـد الأشياء من مـلابساتهـا الماديـة والتعالى عـلى ثباتهـا الذى تحكم بمقتضـاه العجماوات ، بحيث كـان الحضور عنـدهـا مرادفا للوجود والغيبة مرادفة للعدم ، ومن ثم صح أن علم الانسان بالأشيـاء ، إنما هـو علم بأسمـائها دون ذواتها ، إذ المعرفة المعلقة عـلى حضور الشىء معـرفة ناقصة لأنها موقوتة بمثوله ، إذا وجد وجدت وإن زال زالت .

ورؤية الشىء ليست شرطا فى معرفته فقد يقع بصر الانسان على مـا يجهله ثم يحار فى أمـره كالذى يـرى الزرافة ولم يكن يعرفها من قبل فيظنها جملا ، أما معرفة اسم الشىء فهى المعرفة الانسانية الحقة لأن مبناها على تصوره الموروث بين أبناء الثقافة الواحدة ، والطفل إنما يكثر من السؤال عن أسماء الأشياء لأن معـرفته بهـا لا تكتمـل إلا بـذلك ، فمن مجمـوع الأسمـاء يتـألف محصوله اللغوى الذى يصور عالمـه ويبنى على نمـطه ما يجد فى حياته .

- ٢ -

ولا يبعد أن تكون الإشارة فى قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عـرضهم على المـلائكة فقـال أنبئونى

بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا »[1] إلى شيء من ذلك حيث ذكر فى سياق العلم الأسماء وغيب الأشياء ، وفى سياق العرض وهو عيانى للأشياء كنى عنها بالضمير فى عرضهم ثم ثنى باسم الإشارة فى هؤلاء ، وكلاهما حضور أو يقوم مقام الحضور لما تجهل الملائكة حقيقته ، فعلم آدم مبناه على علمه بالأسماء فى غيبة الشخوص ، ورؤية الملائكة لها لم تكن لتغنى عنها شيئا فى معرفتها بها لأنها تجهل أسماءها ، وبهذا فضل آدم الملائكة وكانت معرفته بالأسماء هى المعرفة التى لا ينالها سواه .

وقد كانت هذه الآية مما استدل به القائلون بالتوقيف فى أصل اللغة من علماء العربية والأصول ، فقالوا : فالأسماء كلها معلمة من عند الله بالنص ، وكذا الأفعال والحروف لعدم القائل بالفصل ، ولأن الأفعال والحروف أيضا أسماء لأن الاسم ما كان علامة ، والتمييز من تصرف النحاة لا من اللغة ولأن التكلم بالأسماء وحدها متعذر .

ثم أضافوا إلى ذلك وجوها ثلاثة أخرى : أولها أنه سبحانه ذم قوما فى إطلاقهم أسماء غير توقيفية فى قوله

(١) البقرة ٣١ .

تعالى : « إن هى إلا أسماء سميتموها » (١) وذلك يقتضى كون البواقى توقيفية .

وثانيها قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم »(٢) والألسنة اللحمانية غير مرادة لعدم اختلافها ، ولأن بدائع الصنع فى غيرها أكثر ، فالمراد هى اللغات .

وثالثها وهو عقلى : لو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج فى التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة ويعود اليه الكلام ، ويلزم إما الدور أو التسلسل فى الأوضاع وهو محال فلابد من التوقيف (٣) .

ولكنا نرى أن التوقيف يمكن حمله على الإلهام من الله تعالى للبشر بالأسماء فى مطلق معناها دون أن يكون فى ذلك تعارض ما مع القول بالاصطلاح على معنى أن يتواطأ اثنان فأكثر من أبناء لغة بعينها على تسمية شيء بالاسم الذى يرتضونه ويتواضعون عليه هم ومن يليهم ، ويكون التوقيف والاصلاح أمرين متكاملين فى الانسان لا يتم أحدهما إلا بالآخر فهما جانبان للغة التى تدرج على الأرض ولكنها تمدُّ بسبب الى السماء .

---

(١) النجم ٢٣ .

(٢) الروم ٢٢ .

(٣) المزهر للسيوطى ١/١٧ ، ١٨ . ط الحلبى .

فالتوقيف كالأصل الميتافيزيقى للغـة ، والاصطلاح كالأصل الاجتماعى لها وكلاهما له مكـانه السـائغ فى العمل اللغوى ، أما ما أفاض فيه القائلون بهذا وذاك من حجج وأدلة فمبناه على قضايا كلامية فى جملتها ينقض بعضها بعضا ونحن نذكر ذلك .

فقد احتج القائلون بالاصطلاح بوجهين :

أحدهما : لو كانت اللغات توقيفية لتقـدمت واسطة البعثة على التوقيف ، والتقدم باطل ، وبيان الملازمة أنها إذا كانت توقيفية فلابد من واسطة بين الله والبشر وهى النبى لاستحالة خطاب الله تعالى مع كل أحد ، وبيـان بـطلان التقدم قـوله تعالى : « ومـا أرسلنا من رسـول إلا بلسان قومه » وهذا يقتضى تقدم اللغة على البعثة .

والثانى ـ لو كانت اللغات توقيفية فذلك بأن يخلق الله تعالى علما ضروريا فى العاقل أنه وضع الألفاظ لكذا ، أو فى غير العاقل ، أو بألا يخلق علما ضروريا أصلا والأول باطل ، وإلا لكان العاقل عالما بالله بالضرورة ، لأنه إذا كان عالما بالله بالضرورة بكون الله وضع كذا لكذا كان علمه بالله ضـروريا ، ولو كـان كذلك لبـطل التكليف ، والثانى باطل لأن غير العاقل لا يمكنه إنهاء تمام هـذه الألفاظ ، والثالث باطل لأن العلم بها إذا لم يكن ضروريا احتيج إلى توقف آخر ولزم التسلسل .

والجواب عن الأولى - من حجتى أصحاب الاصطلاح : لا نسلم توقف التوقيف على البعثة لجواز أن يخلق الله فيهم العلم الضرورى بأن الألفاظ وضعت لكذا وكذا ، وعن الثانية لم لا يجوز أن يخلق الله العلم الضرورى فى العقلاء أن واضعا وضع تلك الألفاظ لتلك المعانى ؟ وعلى هذا لا يكون العلم بالله ضروريا سلمناه ، لكن لم لا يجوز أن يكون الاله معلوم الوجود بالضرورة لبعض العقلاء ؟!

قوله « لبطل التكليف » قلنا بالمعرفة ، أما بسائر التكاليف فلا .[1]

فالمسألة الأولى تتعلق بالبعثة وتقدمها أو تأخرها على التوقيف ، والبعثة لا علاقة لها باللغة لأن اللغة موجودة قبلها ، والتوقيف ليس معناه الوحى حتى يقال انه سابق على البعثة أو تال لها ، أما قضية العلم الضرورى التى تنتهى الى بطلان التكليف فمقتضاها آلية المعرفة والمعرفة ليست معطاة لأنها معاناة يشاق معها الإنسان العالم ، ولكن ترديد الوجوه التى تحتملها كل مسألة من شأنه أن يفضى الى مثل قول المعتزلة : إن اللغات لا تدل على مدلولاتها كالدلالة العقلية ولهذا المعنى يجوز اختلافها ،

---

(١) المزهر ١ / ٢٠

ولو ثبتت توقيفا من جهة الله تعالى لكان ينبغى أن يخلق الله العلم بالصيغة ثم يخلق العلم بالمدلول ثم يخلق لنا العلم بجعل الصيغة دليلا على ذلك المدلول ، ولو خلق لنا العلم بصفاته لجاز أن يخلق لنا العلم بذاته ، ولو خلق لنا العلم بذاته بطل التكليف وبطلت المحنة .

وهذا كما قيل بناء على أصل فاسد ، فإنا نقول : يجوز أن يخلق الله لنا العلم بذاته ضرورة ، وهذه المسألة فرع ذلك الأصل .

وتجويز كل شيء حجة واهية تتناثر معها الحقائق ، والمعتزلة لم يكن يؤرقهم شيء مثلما أرقهم ما ذهبوا إليه من مغايرة الذات للصفات ، وقد أداروا أصل اللغة على هذه المسألة ثم قايسوا بين الصفات والدال من جهة ، والذات والمدلول من جهة أخرى ، وتأتّى لهم بعد ذلك افتراض ما يشاءون ، وهذا وإن كان فى ظاهره احتجاج فهو فى الحقيقة تسليم مشوب باللّجاج .

وقريب من تجويز كل شيء ما ذهب اليه القاضى أبوبكر وإن كان قد رمى إلى مقصد آخر من إمكان كل شيء حيث ذكر أنه يجوز أن يثبت القدر الذى يدعو به الانسان غيره الى التواضع توقيفا ويجوز أن يثبت اصطلاحا ، ويجوز أن يثبت بعضه توقيفا وبعضه اصطلاحا والكل ممكن ، وعمدته أن الممكن هو الذى لو قدر موجودا لم يعرض

لوجوده محال ، ويعلم أن هذه الوجوه لو قدرت لم يعرض من وجودها محال فوجب قطع القول بامكانها[1] !.

والتوسل بمقولة الإمكان فى هذا المقام سلبيـة ليس بعدها الا الاستسلام ، وأصل اللغة لاينبغى أن يكون سبيله علم الكلام ولا الحجاج العقلى الذى ينأى بالظاهرة اللغوية عن مهدها الذى ولدت فيه ، فذلك من شأنه أن يفضى بها الى متاهات من الجدل العقيم الذى يتحطم معه مالها من كيان .

والأصل الميتافيزيقى للغة له دواعيه وأسبابه ، فاللغة عند القائلين به من الكمال والإعجاز بحيث توحى إلى من تأملها أنها ليست من عمل البشر ، بل هى من صنع الله ، على مايؤخذ من مثل كلمة ابن جنى المشهـورة : واعلم فيما بعد أننى على تقادم الوقت دائم التنقيب والبحث عن هذا الموضع فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغوّل على فكرى ، وذلك اننى اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة مايملك علىّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر .

فمن ذلك مـانبه عليـه أصحابنـا رحمهم الله ومنـه

---

(١) المزهر ١ / ٢٠ .

ماحذوته على امثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحة ماوفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما أسعدوا به وفرق لهم عنه ، وانضاف الى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله تعالى فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه وأنها وحى

ثم أقول فى ضد هذا انه كما وقع لأصحابنا ولنا وتنبهوا وتنبهنا على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة كذلك لاننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا وان بعد مداه عنا مَن كان ألطف منا أذهانا وأسرع خواطر وأجرأ جنانا فأقف بين تين الخلتين حسيرا وأكاثرهما فأنكفى مكثورا ، وان خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف باجدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنا به[1] .

- ٣ -

والمنزع الذى آل اليه هذا التصور الميتافيزيقى ينبغى أن يحمل على مايعرف عند همبولت بالروح الكلى الذى يعلو على الفردية والجزئية ، فاللغة « تدفق من أعماق البشرية لايكفى معه أن يقال فيها : انها مجرد محصول أو خلق من خلق الجماعات ، بل إنها تقتضى الاستقلال

(١) الخصائص ١ / ٤٠

والاكتفاء بذاتها ، وهذا شيء ظاهر وان كان من المتعذر بيانه ، إذ ليست اللغة خلقا من خلق هذا الانسان أو ذاك بل هى بمثابة صدور لا إرادى من الروح ، وليست من عمل الأمم بل هبة من هبات القدر » ومن ثم كان تصور اللغة على أنها شعرية فى أصلها أسطورية فى نسيجها تستمد وجودها من بشرية شاعرة مغرقة فى الأساطير ، فالريح تزمجر والسماء تغضب والجن توقد النيران والأشجار لها تيجان ، وهذا معجمها الأول الذى كان على مايقول هردر معبدا له جلبة وضوضاء ، وكل بحث فى أصل اللغة يغفل أو يتغافل هذه الحقيقة إنما يمزق من اللغة جسمها الحى ولحمها الغض ، والعربية ليست استثناء من هذه القاعدة فالعرب كانوا يعتقدون أن البهائم تتكلم وجعلوا للشمس قميصا ونسبوا إلى الليل أبناء ، وكان من مقتضى الإحيائية التى سادت مجتمعاتهم كما سادت مجتمعات غيرهم من الشعوب القديمة ان تراءت لهم الأرواح فى كل مكان من الشجر إلى الحجر والينبوع والنهر والوادى والجبل ، وكان منهم العرافون والكهان والسحرة والشعراء يمزقون لهم الحجب ويكشفون لهم الأسرار ، والكلمة فى كل ذلك هى صانعة هذا العالم الأسطورى تزجيه إلى غاياته وتلتمس آياته ، يقض مضجعهم الصمت الرهيب ويخيفهم الليل

البهيم ويـزعجهم فحيح الأفعى وزمجـرة الريـح ، وفى خضم هذا التيار السيال من النجوم والكواكب والنبات والحيوان والصخر والماء وغيرها مما فاض على الكـون وغشيـه من كل مكـان راحوا يصـوغون الكلمـات تلو الكلمات يدفعون بها هذا الطوفان وينتزعون ذواتهم من براثن البحران ، ذلك أن من وجد الكلمة وجد الشىء ومن وجد الشىء وجد ذاته ، والإنسان كائن يتلجلج بين الموت والحياة ، والموت صمت وسكون والحياة نطق وحركة ، ولم يكن عبثا أن تشتق الكلمة فى العربية من الكلم وهو الجرح إذ كانت أداة صاحبها ألى تمزيق الحجاب الكونى الكثيف الذى ران على سمعه وبصره فى ليل الصيرورة فـوجبت الشمس وهى طالعة ، وهـوت الكـواكب وهى متألقة ، ومات الوليد وهو فى حجر أمه ، وسقط الفارس وهو يطعن خصمه ، وجاءت الكلمة تحمل آثـار التمزق وتنضح بدم المأساة لأنها كالوجود الذى يرتجف بالعدم والحياة التى يتغشاها الموت ، والأضداد التى قيل فيها ما قيل مما لايشفى الغليل شاهد على التوتر الجاثم فى رحم الكلمات منذ العهود السحيقة .

ومن ذلك يتبين الوجه فيما قدمناه من ان للغه نصيبا من الشعر كما أن الشعر قوامه من اللغة ، فهما من باب واحد والخلاف بينهما إنما هو خلاف فى الدرجة على نحو

ماقرره كروتشه فى نظريته التى أقامها على مطابقة المعرفة الفطرية للتعبير بناء على أن التعبير أيضا يتخذ مادته من المشاعر ليخرجها بعد ذلك إلى حيز الوجود فى صورة موضوعية فلا وجود لهذه المعرفة بغير التعبير ولايتحقق التعبير إلا بها فهى من الشعر والشعر أليها يؤول ، بل رب كلمة تحمل فى أعطافها جرثومة الشعر الذى تتطاول إليه قصيدة عصماء .

وقد كان من شأن اللغة أن تزدهر حيث يزدهر الشعر وتموت متى مات ، فالشعراء هم الذين يمدون اللغة بأسباب النماء ويمكنون لها بين الأحياء ، على نحو ماوقع شىء من ذلك للغة مضر فهى إنما استحمكت واشتد عودها لما كان مهدها فى نجد وهى بلاد الفحول من الشعراء الجاهليين ولم يقع مثل ذلك فى غيرها من بقاع شبه الجزيرة .

وعلى هذا المنزع أدار هيدجر استطيقاه التى تعد أروع ما قيل فى هذا الباب ، فالشعر عنده قوامه من الكلام الذى لاينبغى أن يؤخذ مأخذ الأداة التى يتحقق بها الاتصال بين المتكلمين ويقع الفهم والإفهام بل الكلام يطابق مايعرف عادة بالوعى الإنسانى ، ولا يوجد الوعى إلا مع إمكان الكلام وخلق اللغة ، ولاشىء يسبغ على الإنسان الوعى بنفسه وبما فى العالم سوى تسمية

الأشياء كلها كبيرها وصغيرها ، فالكلام واللغة من جهة الوظيفة كالوعى سواء بسواء واللغة مجال يعمل الشعر فيه عمله غير أنه لا يأخذها مأخذ المادة المصنوعة بل يدخل اللغة فى حيز الامكان ، قال : فالشعر لا يتلقى اللغة قط مادة يتصرف فيها كأنها معطاة له من قبل بل الشعر هو الذى يبدأ بجعل اللغة ممكنة إذ هو اللغة البدائية للشعوب والأقوام ، والكلمة إنما كانت « أشد المقتنيات خطرا » لأنها وعى الكينونة ، تقدر على خداع الكائن وتهديده ، وبالكلمة يبلغ المرء ذروة الصفاء ومنتهى الخفاء ويترامى إلى غاية الشيوع والإبهام ، وربما آلت الكلمة الجوهرية فى الكلام إلى كلمة ساقطة مبتذلة ولكنها تظل على كل حال قنية يعتد بها الإنسان .. فالكلام لايقتصر على الفهم والإفهام ، ولا يستنفد غايته فى ذلك بل حيث يوجد الكلام يوجد العالم وحيث يثبت العالم يثبت التاريخ ومن ثم كان الكلام ضماناً يتحقق فيه تاريخ الإنسان .

ـ ٤ ـ

ومقتضى مذهب هيدجر أن اللغة غاية فى ذاتها وليست مجرد وسيلة من وسائل الإيصال بين المتكلمين

والمخاطبين ، وهذا وإن كان صحيحاً فى ذاته لا ينكره إنسان إلا أنه ليس فيما نحن بسبيله فالذى يعنينا تقريره أن اللغة ليس شأنها شأن العلامات ووسائل التبادل التى تؤدى إلى سواها من أغراض كالمال قيمته فى قوته الشرائية والصياح الذى يطلق للتحذير ، والخطأ فى نظرية الدلالة اللغوية التى تجرى مجرى الدلالة العقلية أنها تقوم على الانتقال من الدال إلى المدلول من حيث إن الدال ليس غاية فى ذاته وذلك كدلالة الدخان على النار ودلالة السحاب على المطر ، وكل ما يطلق عليه اللوازم فى البلاغة العربية كشجاعة الأسد الذى يشبه به زيد وكرم البحر الذى يشبه به عمرو وأظفار المنية التى تشبه بالسبع مبناه على ذلك .

والدلالة اللغوية إنما تغاير الدلالة العقلية[١] فى أنها دلالة ذاتية على معنى أن اللغة تحتضن دلالتها فى كيانها خلافاً لدلالة الدخان على النار ، وتظهر صورتها الأولية فى مثل (صر) للدلالة على صوت الجندب ، وكأن الواضع توهم فيه استطالة ومداً و (صرصر) للدلالة على صوت البازى لما فيه من تقطيع وما إلى ذلك مما وسمه ابن جنى بإمساس الألفاظ أشباه المعانى ، ويمكن بناء عليه تقرير

(١) بسطنا ذلك فى كتاب التركيب اللغوى للأدب

الدلالات وتصورها فى أنماط أخرى مركبة يتسع القول فيها باتساع آماد التفسير والتأويل .

والدلالة بعد ذلك لا تتم إلا بمخاطب ومتكلم يتواضعان على قدر مشترك من الفهم المبنى على مسلمات بعينها ، والمتكلم مهما أوتى من بيان عاجز عن أن ينقل إلى سامعيه ما يريد نقله إذا لم يكونوا على بينة مما يقول ، فلو أن سامعاً سمع قول الشاعر :

خدودُها مثل طواويس الذهب

واستغلق عليه معناه لكان محقاً فى ذلك ولا عتاب عليه فيه ولكان شأنه شأن جعفر بن سعيد الذى نقل عنه الجاحظ أنه كان يزعم أن الديك أحسن من الطاووس وأنه مع حسنه وانتصابه واعتداله وتقلّعه إذا مشى سلم من مقابح الطاووس ومن مُوقه وقبح صورته ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قبح رجليه ومن نذالته وكان يزعم أنه لو ملك طاووساً لألبسه خفاً .

وكان يزعم أنهم لما سموا جيش ابن الأشعث الطواويس لكثرة من كان يجتمع فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال إنما قالوا ذلك لأن العامة لا تبصر الجمال(١) ،

(١) ثمار القلوب للثعالبى ٤٧٢ .

وكان قول الشاعر من هذا الباب .

ولو أن إنسانا وقف على قول الآخر :

وإن امرأ قد سار خمسين حجَّةً
إلى منهلٍ من ورده لقريب

ولم يتبين ما يحتضنه سار من معنى المضى نحو الموت لغاب عنه معنى البيت ، والعرب كانت تذهب إلى أن الإنسان بإزاء الموت كالفارس الذى يمضى إلى غايته ، يبلغها بأن يستوفى أجله بحيث يتم تمامه عند الموت ويقال : أسرع إليه وأرقل إليه ، وإذا فاجأته المنية وهو شاب قيل مات عبطة ، من عبط الذبيحة نحرها من غير داء ولا كسر ، قال أمية بن أبى الصلت :

من لم يمت عبْطَةً يمت هرماً
للموت كأسٌ والمرء ذائقَها

فكل لغة تؤول إلى مسلمات تنزل منزلة القيم التى تضفى على الدلالات حجية يتعاطاها أبناء اللغة فيما بينهم وربما عزبت عن سواهم ، والدلالة الوضعية بما تقوم عليه من آلية صماء كليلة عاجزة لأنها تتجاهل المجال الإنسانى الذى يجرى فيه كلام البلغاء ، ومعانى

اللغة والشعر إنما جنى عليها الجهل بهذه الحقائق التى لا ينكرها أحد من العقلاء .

- ٥ -

وما يقال فى الدلالة يقال مثله فى الوضع فهو يقوم على تعيين اللفظ بإزاء المعنى كأن الواضع كان يتصرف فى الألفاظ كما يتصرف أحدنا فى ثيابه أو أثاث داره يضعها وفق ما يقتضيه الترتيب والتنسيق .

وعلاقة اللغة بالفكر أو بعبارة أدق علاقة الألفاظ بالفكر ليست على هذا النحو من التجريد والثبات بل هى إنسانية ديناميكية يصطرع فيها الطرفان ويتلاطمان ، فالفكر بطبيعته كتيار الماء السيال اللا متناهى والألفاظ وحدات محسوسة متناهية لا تبلغ قط كمالها بل هى أبداً فى شوق إلى اقتناص الشارد من المعانى تلهث وراءها ولا تكاد تنالها إلا بالمشقة الشديدة والجهد الجهيد ، إذ ليس للفكر تخوم تفصل بين أجزائه .

ومن القصور أن يفترض وضع الأسماء للذوات والأفعال للأحداث والنعوت للصفات وبينها من التداخل ما تشهد به الفطرة السليمة ، فالصفة لا تنفك قطّ عن الاسم ، والأفعال لا تخلو من صفة من الصفات ، وقد قيل : ليس شىء من هذه الأشياء التى صيرت حروفاً بعد

أن كانت أسماء إلا وقد بقى فيها معنى من معانيها كما بقى فى كاف الخطاب معنى الخطاب وفى على معنى الاستعلاء(١) .

وهذا فى المفردات ، أما فى المركبات فالأمر فيها بيّن لا يحتاج إلى إثبات ، فإذا قلنا مع القائل :

تجود فتجزل قبل السؤال
وكفُّك أسمح من لاقِطَهْ

وسألنا أين ينتهى الجود المأخوذ من قوله تجود وأين يبدأ السؤال المأخوذ من هذا اللفظ ؟ لما صحّ جواب بالإيجاب إلا إذا صح الجواب عن حدود الأمواج فى البحر والرمال فى الصحراء .

ولو كانت الكلمة كما يقول مرلو بونتى تقتضى فكراً سابقاً عليها لما استبان الوجه فى أن الفكر ينحو نحو التعبير وكأنه يتجه إلى غايته .. والشىء المألوف يبقى مبهماً لا تعيّن له إلى أن نسميه ، والمرء يظل على جهل بأفكاره إلى أن يصوغها بالقول أو بالكتابة كما يقع لكثير من الكتاب يأخذ أحدهم فى الكتابة وهو لا يدرى إلى أى وجهة ينتهى به القول .

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ١ /٩٧ .

والفكـر الذى يكتفى بالوجـود لذاتـه فى معـزل عن مشقّـات الكلمة والاتصـال اللغـوى مـآله الوقـوع فى اللا وعى ، وهذا معناه أنه لا وجود له حتى لذاته ، وإذا صح أن للفكر تجربة فهى إنما تتعلق بالكلمة ظاهرة أو باطنة ، ولا سبيل مع الفكر إذا هو برق أو مضى فى طريقه إلى التحكم فيه والسيطرة عليه إلا بالعبارة وتسمية الشىء لا تتلو معرفته ، فالطفل كمـا قيل لا يعـرف الشىء إلا باسمه إذ الكلمة ماهيته ، وبها يتقوم مثلما يتقوم بلونه وشكله ، وتسميـة الشىء فى الفكر الدينى إيجـاد له أو تعديل .

ولا سبيل إلى إدراك هذه الحقائق وغيرها إذا قيل إن الكلكة تقوم على المعنى العقلى ، فمن شأنها حينئـذٍ أن تعرف على حدة فى معية خارجية لا أكثر ولا أقل[1] .

والمعنى العقلى هو ماعرف عند المناطقة والأصوليين بـالصور الذهنيـة ويراد بهـا الصورة التى تصـورها الواضع فى ذهنه عند إرادة الوضع ، واستدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة فى الذهن ، فـإن من رأى شبحاً من بعيد وظنه حجراً أطلق عليه لفظ الحجر ، فاذا دنا منه وظنه شجرا اطلق عليه لفظ الشجر ، فاذا دنا منه وظنه فرسا أطلق عليه اسم الفرس ، فإذا تحقق

---

(١) مرلو بونتى ، انظر ظاهريات الادراك الفصل السادس

أنه إنسان أطلق عليه لفظ الإنسان ، فبان بهذا أن إطلاق اللفظ دائر مع المعانى الذهنية دون الخارجية ، فدل على أن الوضع للمعنى الذهنى لا الخارجى .

وأجاب صاحب التحصيل عن هذا بأنه إنما دار مع المعانى الذهنية لاعتقاد أنها فى الخارج كذلك لا لمجرد اختلافها فى الذهن[1] .

وهو جواب سديد لأن مناط الاختلاف فى هذه الصورة اعتقاد المتكلم فى ذلك الموقف بالذات دون اختلاف المعانى الذهنية لأنها ثابتة لا تتغير بظهور الشىء واختفائه ، ومع ذلك فالدليل فرضى فيه تمحّل إذ قلما يقع لأحد مثله وإنما يسمى المرء الشىء بعد التثبت منه ، ثم هو لاينهض بأعباء القضية التى راموا إثباتها لأن المقصود بالمعانى الذهنية الكلية العارضة لمفهوم الأشياء فى الأذهان ، وقوامها كما هو مقرر عندهم المقولات المنطقية ، وقد قدمنا بطلان ذلك ، فالمعرفة التى تنبنى عليها اللغة معرفة فطرية جامعة للمحسوس والمعقول بل ربما كان حظ المحسوس منها أكبر .

والوجه الآخر مما قيل إن الألفاظ وضعت بإزائه هو مافى الخارج ، ومافى الخارج على ماحققه السيد الشريف

---

(١) المزهر للسيوطى ١ : ٤٢ .

هو مالا يتصف بشيء من معانى الكلية ، قال : واعلم أن كل ماوجد فى الخارج فله كما ذكرنا خصوصية متميزة متعينة إذا تصورت منعت عن فرض الشركة فيه بالحمل على كثيرين ، فلا وجود فى الخارج إلا للأشخاص ، فليس فى الخارج وجود مشترك بين كثيرين ولا موجود إذا تصور هو فى نفسه لم يمنع تصوره من الشركة فيه أو عرض له هناك الكلية بمعنى المطابقة والنسبة المصححة للحمل على أمورمتعددة[1] فبان بهذا أن وضع الألفاظ بإزاء ما فى الخارج على هذا القول مؤداه مطابقة الاسم للمعنى وهو باطل لأن الدال غير المدلول ، فالشجرة بفروعها وأغصانها وأوراقها مغايرة للشجرة بشينها وجيمها ورائها فهذه من عالم اللغة وتلك من عالم النبات ، وكل كلام فى المطابقة بينهما مبناه على خطأ فى تقدير ما للغة من حظ فى صياغة الفكر ، فوراء كل لفظ معنى حى تظاهره قيمة لايتم العمل اللغوى بدونها وأمر اللغة ليس مقصوراً على مابينها وبين الأشياء والكائنات من مغايرة بل هى تتجاوز ذلك إلى التأثير فى تصورات الإنسان لها ، فالكلمات لاتنزل من الحقيقة منزلة الصور التى تشير إليها أو تحاكيها ، بل تنزل

---

(١) حاشية السيد الشريف على شرح مطالع الأنوار ص ١٣٧ .

منزلة القوى التى تخلق عالمها وتقـرره ، بحيث يظهـر الروح لذاته فى هذا الديالكتيك الذى لاتوجد بمقتضاه إلا « حقيقـة واحـدة » هى ظهـور المـوجـود المتسق ذى السمات .... وقد صح ماقاله همبولت من أن الإنسان يحيا مع أشيائه وجل اعتماده فى أثناء ذلك على اللغة التى تقدم له هذه الأشياء ، بل يمكن أن يقال إنه لايحيا إلا معها ، لأن مشاعره وأعماله تتـوقف عليها ، وكمـا أن الإنسان يستخرج اللغة من وجوده كذلك يتداخل هذا وإياها ، فكل لغة إنما ترسم دائرة سحرية حول الشعب الذى تنتمى إليـه ولا مفرّ له من هـذه الدائـرة إلا إذا تخطاها إلى دائرة أخرى[١] .

- ٦ -

وعلماء العربية الأوائل لم يكونوا غافلين عن ذلك بل كان لهم ، وهم يقدمون للأمم المستعربة أنماطاً جديدة من المثـل العربيـة العليا فى اللغـة والأدب ، من صدق الحدس وسلامة الفطرة ومخالطة الفكر اللغوى ما أتاح لهم الوقوف على منازعه ، والترجيح بين منازله

وهذا أبو عمرو بن العلاء وكان يميل إلى القول بشىء

(١) Ernest Cassirer, Mito. y. lenguije. p. 15.

من الإرجاء يروى أبو الطيب اللغوى فى شأنه أنه لقى عمرو بن عبيد فقال له : شعرت أنكم من اللكنة أتيتم ، إن العرب إذا وعدَتْ وفتْ وإذا أوعدت عفت ، وعدّت ذلك كرماً ، أما سمعت قول قائلهم :

لايرهبُ ابنُ العم والجار صولتى
ولايخْتتىء من سطوة المتهدّد
وإنى إذا أوعدته أوعدته
لأخلف إيعادى وأُنجز موعدى

فقال له عمرو : أبا عمرو ، شغلك الإعراب عن الصواب ، أفيكون مخلفاً ، أما سمعت قول الآخر :

إن أبا ثابتٍ لمشتَرك الـ
ـخير شريفُ الآباء والبيْتِ
لايُخلف الوعدَ والوعيد ولا
يبيت من ثأره على فَوْت

قوله ولايختتىء الاختتاء الانكسار من الذل وهو مهموز ، يقال اختتأ يختتىء اختتاء[1] .

وقد يقال إن كليهما عول فى مذهبه على أسلوب من أساليب العرب فى كلامها وقيمها ، فكما احتج أبو عمرو

---

(١) مراتب النحويين ص ١٨ .

للإرجاء من قول الأول ويؤخذ منه أن المثل الأعلى هو فى الفضل بإنجاز الوعد من حيث كانت ثمرته الخير ، وإخلاف الوعيد من حيث كان مآله الشر ، كذلك احتج عمرو بن عبيد للاعتزال من قول الآخر ، والمثل الأعلى فيه يقوم على العدل ، ومقتضاه أن لا إخلاف بالوعد ولا بالوعيد ، والجواب عن ذلك أن ماتمثل به عمرو بن عبيد لا غرابة فيه لأنه يجرى مجرى السلوك المعتاد الذى يسلكه كل إنسان لا فرق بين عجمى وعربى ، أما ماتمثل به أبو عمرو بن العلاء فمختص بالعرب دون سواهم ، أو على الأقل مما يتباهون به على لسان هذا القائل .

والذى يعنينا من الخبر بعد ذلك أن مأخذ المذهبين فى اللغة ومأتاهما منها ومن أنماط العرب فى حياتها تبقى عليها وتخلدها لتبعث أثرها فى دورات الحياة التالية وتشكل الثقافة المتجددة وهذه إحدى وظائفها الكبرى فى التاريخ الإنسانى .

وكان القوم يحيون ذلك ويبثونه فى الناس على أنه مما ينبغى أن يقال ، كالذى وقع لسيبويه وهو فى حلقته بمسجد البصرة وقد هبّت ريح فأطارت الورق ، فقال لبعض أهل الحلقة : انظر أى ريح هى وكان على منارة المسجد تمثال فرس ، فنظر ثم عاد فقال ماثبتَتْ على حال

فقال سيبويه : العرب تقول فى مثل هذا : تذاءبت الريح وتذاءبت ، أى فعلت فعل الذئب وذلك أنه يجىء من هاهنا وههنا ليخيل فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب[1] .

وسيبويه لم يكن يتلهىّ بذلك ليونق الأسماع بل كان يدمغ بالذئبية الريح التى تغدر بأوراقه جرياً على سنن العرب فى كلامها وتنبيها للسامعين على ذلك ، وهذا شأنه فى مواضع كثيرة من الكتاب .

والكسائى فى قصته مع أبى يوسف وقد التقيا عند الرشيد إنما كانت شريعته اللغة يصحح بها قول الفقيه وقد سأله الرشيد فى رجل قال لامرأته أنت طالق طالق ، قال واحدة ، قال فإن قال لها أنت طالق أو طالق ، قال واحدة ، قال فإن قال لها أنت طالق ثم طالق ، ثم طالق ، قال واحدة ، قال فإن قال لها أنت طالق وطالق وطالق ، قال واحدة ، قال الكسائى يا أمير المؤمنين أخطأ يعقوب فى اثنتين وأصاب فى اثنتين ، أما قوله أنت طالق طالق طالق فواحدة لأن الثنتين الباقيتين تأكيد كما تقول أنت قائم قائم وأنت كريم كريم كريم ، وأما قوله أنت طالق أو طالق أو طالق فهذا شك فوقعت الأولى التى تتيقن ، وأما

(١) نزهة الألبا للأنبارى ص ٧٦ .

قوله أنت طالق ثم طالق ثم طالق فثلاث لأنه نسق وكذلك قوله أنت طالق وطالق وطالق[١] .

ونزوع العلوم الإسلامية إلى اللغة فى تدوين مبادئها وتقرير كثير من قضاياها أمر مقرر لايكابر فيه أحد فعلى هذا جرى السلف من علماء اللغة ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تتعلمون القرآن ، واللحن اللغة .

وقد قيل لو أن قارئاً قرأ هو الأول والآخر بفتح الخاء لكان قد كفر وأشرك ، وإذا كسر الخاء آمن ووحد ، فليس بين الإيمان والكفر غير حركة .

ولقد أحسن ابن السيد البطلْيَوسى الذى نقلنا عنه هذا القول[٢] ، غاية الإحسان فيما توخاه فى كتابه « الإنصاف » حيث رد الاختلاف بين الفقهاء وذوى المقالات إلى أسباب لغوية جمعها فى ثمانية أوجه (الأول) منها اشتراك الألفاظ والمعانى و (الثانى) الحقيقة المجاز و (الثالث) الإفراد والتركيب و (الرابع) الخصوص والعموم و (الخامس) الرواية والنقل و (السادس) الاجتهاد فيما لا نص فيه

---

(١) نفس المصدر ص ٩٢ .

(٢) الإنصاف فى التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين فى ارائهم لابن السيد البطليوسى .

و (السابع) الناسخ والمنسوخ و (الثامن) الإباحة والتوسيع .

وقد صح ماقرره من أن الطريقة الفقهية مفتقرة إلى علم الأدب مؤسسة على أصول كلام العرب ، وأن مثلها ومثله قول أبى الأسود الدؤلى :

فإن لايكُنْهْا أو تكنْهْ فإنه
أخوها غذتَهْ أمه بلبانِها

وإنما جاء هذا الاختلاف فى سياق لغوى لأن كل كلام يقتضى اثنين بينهما حوار ، ومن كلام أفلاطون أنه لا سبيل إلى عالم الفكرة إلا بالكلام عن طريق السؤال والجواب ، فبهما يتحقق الفهم والإفهام ، وشرارة الفكر بين المتكلم والمخاطب إنما تتّقد إذا تعلقت بكلمات كل منهما ليتألف من ذلك عالم مشترك بينهما بواسطة اللغة ، وإذا انعدمت هذه الواسطة اجتاح الشك سبيل الطرفين ، فكل فكر لابد له أن يمر ببرهان اللغة مكتوبة أو منطوقة . كأنه بذلك يستقر ويستوى على سوقه ، واللغة شأنها شأن سائر الصور الرمزية بمثابة الطريق الذى يفضى بنا إلى ذواتنا ، لأنها إيجابية خلاقة عليها ينبنى الوعى بالأنا والوعى بالذات ، ولهذا كان لابد معها من اللجوء إلى الطريق المزدوج طريق التركيب والتحليل ،

والانفصال والاتصال[1] .

وهذه العلاقة « الديالكتية » بين الانفصال الناشىء عن الاختلاف والرجوع المترتب على الائتلاف فى نطاق العلاقة اللغوية هى التى يؤول إليها ماذهب إليه ابن السيد فى تفسير قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين لهم الذى يختلفونَ فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين[2] » قال : وهذه الآية إحدى ماتضمنه القرآن العظيم من الأدلة البرهانية على صحة البعث ، ووجه البرهان المنفك من هذه الآية التى لايقدرّها حق قدرها إلا العالمون ولا يتنبه لغامض سرها إلا المستبصرون أن اختلاف المختلفين فى الحق لا يوجب اختلافَ الحق فى نفسه ، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه والقياسات المركبة عليه ، والحق فى نفسه واحد ، فلما ثبت ههنا حقيقة موجودة لا محالة وكان لاسبيل لنا فى حياتنا هذه إلى الوقوف عليه وقوفاً يوجب لنا الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف ، إذ كان الاختلاف مركوزاً فى فطرنا مطبوعاً فى خلقنا ، وكان لايمكن ارتفاعه

---

(١) Ernest Cassirer las Ciencias de la Cultura p. 85-86.

(٢) آية ٣٨ ، ٣٩ من سورة النحل

وزواله إلا بارتفاع هذه الخلقة ونقْلنا إلى جبلة غير هذه الجبلة مع ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة فيها يرتفع الخلاف والعناد ، وتزول من صدورنا الضغائن الكامنة والأحقاد ، وهذه هى الحال التى وعدنا الله سبحانه بالمصير إليها فقال : « ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين » ولابد من كون ذلك بالاضطرار إذ كان وجود الخلاف يقتضى وجود الائتلاف لأنه ضرب ونوع من المضاف ، وكان لابد من حقيقة ، وإن لم نقل ذلك صرنا إلى مذهب السوفسطائية فى نفى الحقائق ، فقد صار الخلاف الموجود فى العالم كما ترى أوضح الدلائل على كون البعث الذى ينكره المنكرون وينازع فيه الملحدون الكافرون[1] .

فاللغة هى مناط الائتلاف والاختلاف فى آن واحد لأنها تشبه حوار المرء مع ذاته ، والثقافة الإسلامية فى جوهرها تجرى على هذا الحوار فى التفسير والبيان ، وهل الحواشى والشروح والتعليقات إلا من هذا الباب .

وإذا أردنا التخصيص بعد هذا التعميم كان لنا أن نذكر فى مقدمة العلوم التى نشأت فى أحضان اللغة علم الكلام وعلم أصول الفقه ، أما علم الكلام فأكثر ماقيل فى

---

(١) الإنصاف ص ٦

تعليل تسميته من مثل قولهم إن أبـوابه عنـونت أولا بالكلام فى كذا أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه أو لأنه يورث قدرة على الكلام فى الشرعيات .. وأما علم أصول الفقه فمبناه على مراتب البيان للأحكام « وبيان الشىء قد يكون بعبارة وضعت بالاصطلاح ، فهى بيان فى حق من تقدمت معرفته بوجـه المواضعـة ، وقد يكـون بالفعـل والإشارة والرمز إذ الكـل دليل ومبين ، ولكن صـار فى عرف المتكلمين مخصوصاً بالدلالة بـالقول ، فيقـال له بيان حسن أو كلام حسن رشيق الدلالة على المقاصد .. وليس من شرط البيان أن يحصل التبيين بهلكل أحد بل يكون إذا سمع وتُؤمِّل وعرفت المواضعة صح أن يعلم به ، ويجوز أن يختلف الناس فى تبيَين ذلك »[1] .

ومباحث الألفاظ فى المنطق هى المدخل لسائر أبوابه يبحث فيهـا المنطقى من جهـة أنها دالة عـلى المعـانى ليتوصل بها إلى حال المعانى أنفسها من حيث يتألف عنها شىء يفيد علماً بمجهول .

وإذا كانت العلوم الإسلامية بحكم ما اقتضاه التطور الداخلى لمسائلها قد أوغلت فى التجريد فإن ذلك لم يكن ليحجب آثـار النبض الإنسانى الكـامن فى اللغـة عـلى

(١) المستصفى للغزالى ١ / ٣٦٤ ـ ٣٦٦ .

مايتمثل فى المصـطلحات التى كفلت لهـذه العلوم جهة الاتحاد والائتلاف بعد الاختلاف ، ففى هذهالمصطلحات قدر مشترك يؤول إلى الأفكار الكلية التى تحمل مايرد عليها بعد ذلك من المضامين . ثم ماهى العلوم ؟ أليس شأنها شأن كل نظام فلسفى لايخرج عما قال كونديّاك عن كونه لغة محكمة البناء ؟! .

* * *

الفصل الأول

الإنسان وأحواله

- ١ -

اختلف فى تسمية الإنسان فقيل إنه من الأنس الذى هو نقيض الوحشة أو النَّوس الذى هو نقيض السكون أو الإيناس بمعنى الإبصار أو النسيان الذى هو نقيض الذكر ، وعندى أن كل ذلك جائز سائغ يؤول بعضه إلى بعض ، ولكن لايمكن تقصّيه إلا بتمثل « الأنت » ومايوحى به إلى « الأنا » من وحشة أو إيناس ، « فالأنا » فى تفرده مفزّع يظل يتوجس خيفة من كل صوت يرد على سمعه ، أو شبح يتراءى لبصره إلى أن يتبين حقيقة مايراه ويحسه ، والإنسى-من هذا الوجه مايبعث الطمأنينة ، والوحشى مايثير الخوف على نحو ماقيل فى إنسى القدم وهو ما أقبل منها ووحشيها وهو ما أدبر منها ، ومن هذا الباب أنسى الإنسان والدابة جانبهما الأيسر وقيل الأيمن ، وأنسى القوس ما أقبل عليك منها أو ما ولى الرامى ووحشيها ما ولى الصيد ، وفى الآدميين والدواب جانب إنسى يُطمأن إليه وجانب وحشى

يخاف منه ، فالجانب الإنسى من الدواب هو الجانب الأيسر الذى منه يُركب ويحتلب وهو من الآدمى الجانب الذى يلى الرِّجل الأخرى والوحشى من الإنسان الجانب الذى يلى الأرض ..

وقول أبى زيد الإنسى الأيسر من كل شيء وقول الأصمعى الأيمن مبناه على رؤية مصدر الخوف إن كان الأيسر أو الأيمن ، يدل على ذلك قول الأصمعى كل اثنين من الإنسان مثل الساعدين والزندين والقدمين فما أقبل منهما على الإنسان فهو إنسى وما أدبر عنه فهو وحشى ، فصح لذلك أن يكون الإيناس خلاف الإيحاش وكذلك التأنيس وأن يكون الأَنس والأُنْس الطمأنينة ..

وقد أَنِس به وأَنَس يَأنس وتأنس واستأنس ، قال الراعى :

ألا اسلمى اليوم ذات الطوق والعاج
والدلّ والنظر المستأنس الساجى

وليس شيء أدعى إلى الاستيحاش من الليل بمخاوفه ، ولذلك قيل إذا جاء الليل استأنس كل وحشي واستوحش كل إنسى ، قال العجاج :

وبلدة ليس بها طورى
ولا خلاء الجنَّ بها إنْسيُّ

تـلقـــى وبئس الآنس الجـنـــيَّ
دويَّـــة لهــولهـــا دويُّ
للريحْ فى أفواهـها هوى

والـهوي الصوت .

ومن أسباب الأنس أن يلوذ المرء بمن يأنس به بشراً كان أو غيره ، قال الشاعر :

ولكـــنـــنـــى أجـــمـــع المـــؤنـــســـات
إذا مـــا اســـتخـــف الرجـــالُ الحـــديـــدا

يعنى أنــه يقاتـل بجميع الســلاح ، وإنما سمــاها بالمؤنسات لأنهن يؤنسنه فيؤمنه أو يحسن ظنه ، قــال الفراء يقال للسلاح كله من الرمح والمغفر المؤنسات

أما الإيناس بمعنى الأبصـــار وهو من قــولهم آنس الشخص واستأنسه رآه وأبصره ونظر إليهِ ، أنشد ابن الأعرابى :

بــعيــنى لم تــستــأنــســا يــوم غُــبْــرةِ
ولم تَــرِداً جــوَّ العــراق فــثَــرْمــدا

فإنما كان كذلك لأن الإبصار باب من أبواب المعرفة بل هو أول طريق إليها فكأن الرائى أنما يأنس بالآخر بعد إطالة النظر فيه والتثبت منه .

والاستئناس فى كلام العرب النظر يقال اذهب فاستأنس هل ترى أحداً ، فيكون معناه انظر من ترى فى الدار ، قال النابغة :

بذى الجليل على مستأنس وَجِدِ

أى على ثور وحشى أحس بما رابه فهو يستأنس ، أى يتبصّر ويتلفّت هل يرى أحداً ، أراد أنه مذعور فهو أجد لعدوه وفراره وسرعته .

والرؤية وعدمها ينبنى عليهما حقيقة الكائنات ، والفرق بين الإنس والجن هو الفرق بين من يُرى ومن لا يُرى ، فالإنس قيل لهم إنس لأنهم يُبصَرون كما قيل للجن جن لأنهم لايؤنسون أى لايُبصَرون أو لأنهم مجتنون عن رؤية الناس أى متوارون .

ثم لما كان الجهل بالشىء من دواعى الخوف منه والعلم به من أسباب الركون إليه صح أن تفضى الرؤية إلى الإيناس الذى يعنى اليقين ، قال :

فإن أتاك امرؤ يسعى بِكَذْبِته
فانظر فإن اطلاعاً غيرُ إيناس

الاطلاع النظر والإيناس اليقين .

وتناسّ البازى جلى بطرفه ونظر رافعاً رأسه ، والإيناس أيضاً السكن ، ومنه المأنوسة للنار ، قال ابن

أحمر :

كمـــا تــطايــر عن مـــأنـــوســـة الشَّـــررُ

لأن الإنسان إذا آنسها ليلا أنس بها وسكن إليهـا وزالت عنه الوحشة وإن كان بالأرض القفر .

والسكن إنما يصح فى جانب الآنس وهو « الأنا » أما « الأنت » فالسكون من جانبه مدعاةللحيرة لأنه مرادف للإبهام والظلام ، ومن ثم حسن أن يضطرب بالحركـة ويستبين بالقيام ، وساغ أن يحتمل معنى الإنسان ذلك أخذاً من النوس الذى هو نقيض السكون كما قدمنا .

وأما قول من قال إن الإنسان من النسيان وهو ضد الذكـر لقوله تعـالى : « ولقد عهـدنـا إلى آدم من قبـل فنسى[1] » فمرجوح لاتؤيده أنماط الصياغة اللغوية ، اذ هو على وزن إفْعلان ، ولو كان كذلك لكان إنسيـانا ولم تحذف الياء منه لأنه ليس هناك مايسقطها ، فالوجه أن يكون منالأنسعلى مابينا ويكون وزنه على هذا فعلان .

وإذا كان الإنسان لايعرف إلا من غيره فإن السبيل إلى معرفته عدا ماقدمنا هو مايقال له الشخص والطلل والشبح والسماوة .

أما الشخص فهو سواد الإنسان وغيـره ، تراه من

---

(١) أية ١١٥ سورة طه .

بعيد ، تقول ثلاثة أشخص وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه ، والذات لاتثبت إلا به لما له من ارتفاع وظهور ، وفى الحديث « لاشخص أغير من الله » والمراد به إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشخص ، والشخيص العظيم الشخص والأنثى شخيصة .

والارتفاع يدل عليه قولهم شَخَص بالفتح شخوصاً ارتفع ، ويناسبه العلو لأنه ضد الهبوط ، والسهم الشاخص هو الذى يعلو الهدف ويطمح فى السماء، أنشد ثعلب :

لها أسهم لا قاصرات عن الحشا
ولا شاخصات عن فؤادى طوالع

وفرس شاخص الطرف طامحه ، وشاخص العظام مشرفها

ثم قد يقترن الارتفاع بالانزعاج والقلق ، يقال للرجل إذا أتاه مايقلقه قد شخص به كأن رفع من الأرض لقلقه وانزعاجه ، وهو أيضاً من شأن من يجتاحه بصر الغير .

وكما أن الشخوص هو اللحظة الأولى من لحظات الحياة فهو أيضا اللحظة الأخيرة منها ، كما فى حديث ذكر الميت « إذا شخص بصره » ، وشخوصه ارتفاع الأجفان إلى فوق وتحديد النظر وانزعاجه .

وأما قولهم للشخص السماوة فمأخذه أيضاً من

ارتفاع الشخص وعلو طلعته ، وإذا رفعت بصرك إلى الشيء قلت سما إليه بصرى ، وإذا رفُع لك شيء من بعيد فاستبنْتَه قلت سمالى شيء وسمالى شخص فلان حتى استثبتُّه .

وفى حديث أم معبد « وإن صمت سما وعلاه البهاء » أى ارتفع وعلا على جلسائه ، وفى حديث آخر « رجل طوال إذا تكلم يسمو » أى يعلو برأسه ويديه إذا تكلم .

والطلل أيضاً يعود إلى الارتفاع يقال حيّا الله طللك وأطلالك ، أى ماشخص من جسدك ، وحيا الله طللك وطلالَتك ، أى شخصك ويقال فرَس حسن الطلالة وهو ما ارتفع من خلْقه .

ومن الباب الشبح وهو مابدا لك شخصُه من الناس وغيرهم من الخلْق ، يقال شبَح لنا أى مثل ، والشبحان الطويل ، ورجل شبح الذراعين بالتسكين ومشبوحهما أى عريضهما .

والشخوص أيضاً يقال لها الشدوف الواحد شدْف وهو من الشدُّفْة التى هى الظلمة كأنها إذا تجسدَت صارت شدَفاً بالتحريك ، قال ساعدة بن جؤَيَّة الهذلى :

موكَّلٌ بشدوف الصوم يرقبها
من المغارب مخطوفُ الحشا زَرِم

يصف ثوراً ، والصوم شجر إذا رآه الثور عند الليل فزع من شخصه ، قال الأصمعى إنما يفـزع منه لأن الصـوم يشبه خلق الإنسـان والزرم الذى لايستقر فى مكانه .

فـالشخص والطلل والشبح شـأنها شـأن الإنسان أيضاً لايتحقق لها وجود إلا « بالأنا » تطلع عليه من غمار المجهول وخفايا الظلمات ، ويعتريه عند رؤيتها من الفزع والقلق مايعتريه ، ثم لاتزال به تساوره وتتراءى له إلى أن يتثبّت منها ويستوعبها فى ذاته ويمسكها فى الاسم فيقول هذا إنسان أو حيوان .

- ٢ -

والوجه والرأس يظهر فيهما أخصّ ما فى الإنسان من العلو والارتفاع ، أما الوجه فلأنه أول مايقبل من قامة الشخص ، ويختصر كل مافى صاحبه من أسباب الرياسة ودواعى السيـادة ، فيقـال فـلان وجْـه ووجيـه بّين الوجاهة ، ومقلوبه وهو الجاه يدل عـلى عظم الشـأن ، ولايقلب الوجـه إلا فيه لأن شـأنـه أبـداً الاستقـامـة والسدّاد ، حيث قالوا وجه الأمر ووجه الكلام على المثل .

وبالوجه ناطت العربية الكرم واللؤم ، فقالوا إنه لحر

الوجه وعبده ، وبه يوصف الإنسان فيقال فلان جميل المحيا وقبيح المحيا ، كما يقال رجل فخم لمن كان كثير لحم الوجه ، وفى ضده وجه مكفهر لقليل اللحم غليظ الجلد ، وصاحبه لايستحى من شىء .

وإذا كان الوجه يختصر الإنسان فإن الجبهة وهى تختصر الوجه تختصر الإنسان أيضاً ، ويدور الأمر فيها على أربعة أشياء تقترن فيها بالقيمة المعنوية ، وهى الاتساع والعظم والاستواء والبياض ، فالرجل الأَجْبه واسع الجبهة حسنها ، والمرأة الجبهاء من كانت بينة الجبهة ، وعظم الجبهة خاص بالرجال فيقال لمن كانت جبهته كذلك جَباهى ، وإذا ابيضت الجبهة وحسنت ولم تكن كثيرة اللحم قيل لصاحبها هو واضح الجبين .

والجبهة أيضاً موطن التعبير عما فى النفس ، وذلك فى الغضون التى تتخلل كل مكسرين منها وهى التى يقال لها أَسرّة الوجه وأساريره التى تؤول إلى السر ، قال الشاعر :

وإذا نظرت إلى أسرّة وجهه
برقتْ كبرق العارض المتهلِّل

ومن هذا الباب مايقال له القسمة ، وقد اختلف اللغويون فى بيانها على ماذكر ابن سيده فقيل إنها مجرى

الدمع مع العين إلى الوجه ، وأعلاه ، ووسط الأنف وما اتخذ عن ناحيتى الأنف إلى أعلى الوجنة .

والذى يظهر لنا أنها قد تكون ذلك كله فهى أيضاً مناط التعبير ، والتعبير قد يقع فى مجرى الدمع كما يقع فى الوجه كله ، فالعبرة بما فى الكلمة من التقسم الذى يزول معه الإبهام القبيح لأنه مخيف .

وقد قيل فى مقسّم الوجه جميل كأن كل موضع منه أخذ قسما من الجمال ، قال كعب بن أرقم اليشكرى :

ويوماً توافينا بوجهٍ مقسَّم
كأن ظبيةٍ ترنو إلى وارِق السلَم

ويقابل ذلك الوجه الجهنْم وهو الغيظ الضخم والمكفهر وبه سمى ماكان قليل اللحم قليل الجلد ومن صفته أنه لايستحى من شىء .

وأما الرأس فهو جمّاع خلْق الإنسان إذ هو قادمه وأعلاه إلا أن أكثر أجزائه مقاتل|هشّه يكمن فيها الموت كما تكمن الحياة ، فِالهامة جلدة رقيقة مشتملة عليه ، وفيها اليافوخ وهو وسطها حيث يلتقى عظم مقدمه وعظم مؤخره ويكون ليناً فى الصبى ، ثم القبائل وهى أربع قطع متقابلات متشعب بعضها ببعض يقال لها أيضاً فراش .

أما مستقره فى مركب العنق فيقال له سرير ، وأخيراً الهامة التى يقال لها أم الدماغ ، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذى لم يُدرَك بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره تقول اسقونى اسقونى ، فإذا أدرك بثأره طارت ، وهذا المعنى أراد جرير بقوله :

ومنا الذى أبكى صدىً بن مالك
ونفّر طيرا عن جعادة وُقَّعا

يقول قتل قاتله فنفرت الطير من قبره وأزقْيتُ هامة فلان إذا قتلته ، قال الشاعر :

فإن تك هامة بهراه تزقو
فقد أزقيت بالمرْوين هاما

وفى معنى الهامة أيضاً قال أبو عبيدة إن العرب كانت تقول إن عظام الموتى وقيل أرواحهم تصير هامة فتطير ، وقيل كانوا يسمون ذلك الطائر الذى يخرج من هامة الميت الصدى فنفاه الإسلام ونهاهم عنه وأنشد :

سُلِّط الموتُ والمنون عليهم
فلهم فى صدى المقابر هام

وكما يحوم الموت حول الهام ويتعلق به حتى لقد قالوا

أصبح فلان هامة إذا مات وقال الراعى :

يـــزيـــل بنـــات الهـــام عن ســـكنـــاتـــهـــا
ومـــا يـــلقْـــه من ســـاعـــد فـــهـــو طائـــح

وبنات الهام مخ الدماغ ، وكذلك يسمى به سيد القوم ورئيسهم قال ذو الرُّمَّة :

أنـــا الـهـــامـــة الكبـــرى التى كـــلُّ هـــامـــة
وإن عَـــظُمَـــت مـــنـــهـــا أَذَلُّ وأصـــغـــر

وتسمى بها جماعة الناس والجمع هام ولكن يطوف بها طائف المنية قال الشاعر :

وتـــعـــلّ لى مـــمـــا جـــعـــلتُ مـــطيـــةٌ
فى الـهـــام أركـــبـــهـــا إذا مـــاركِّـــبـــوا

يعنى بذلك البلية وهى الناقة تعقل عند قبر صاحبها حتى تبلى ، وكان أهل الجاهلية يزعمـون أن صاحبهـا يركبها يوم القيامة ولايمشى إلى المحشر .

ومن أعـاجيب اللغة أن تضم الهـامة فى أعـطافهـا النقيضين : الرياسة والموت ، والوجه فى ذلك أن الرياسة ومايجرى مجراها هى قمة الحياة التى لايبقى بعدها من

أسباب الطموح شيء ، ولكنها لاتتحقق إلا بما يضادها وهو الموت ، كما أن الموت لايعرف إلا بما يضاده وهو الحياة ، فالهامة جمعت بين القطبين اللذين يتأرجح بينهما أمر الإنسان .

وإذا كان قد جاز أن يطلق على الإنسان الرأس فليس ذلك من أجل استلزام الجزء للكل كما قال البلاغيون ، بناء على مابينهما من لزوم ، بل لأن إطلاق الجزء على الكل مطرد فى التفكير اللغوى الأسطورى على مافصّله كاسرر فى كتابه « اللغة والأسطورة » حيث رده إلى قانون سماه قانون التكافؤ وانعدام الفروق المعينة ومقتضاه أن كل جزء من الكل ينزل منزلة الكل ، وكل فرد من النوع أو الجنس يشبه أن يكون مساوياً لسائر النوع وسائر الجنس ، ولايقتصر الأمر على تمثل الجزء للكل أو الفرد للنوع أو النوع للجنس بل إنهما يتطابقان دون أن يكون بينهما مايشبه الازدواج الذى جرى عليه النظر العقلى ، ويضمان فى ذاتهما قوة الكل وكفايته[١] . وعلى هذا جرت العربية فى أكثر أوضاعها ، فقد يقتصر القائل على ذكر بعض الشيء وهو يريده كله ، وهذا من سنن العرب فى

---

(١) Ernest Cassirer : Mito y Lenguaje p. 99

كلامها فيقول قائلهم :

الواطئـيـن عـلى صـدور نـعـالهـم[1]

ثم هى تقيم الواحد مقام الجمع يقال قررت به عينا أى أعينـا ، وفى القرآن « فـإن طبن لكم عن شىء منه نفساً[2] » ، وقال جل ذكره « ثم يخرجكم طفلا[3] » أى أطفالا[4] وتوقع اللفظ على الواحد والجمع ، كالفلك فى قوله « فى الفلك المشحون[5] » فلما جمعه قال « والفلك التى تجرى فى البحر[6] » ، ومن ذلك قولهم رجل جنب ورجـال جنب وفى القـرآن الكـريم : « وإن كنتم جنبـا فاطهروا »[7] كأن المنطق اللغوى لما طابق بين الواحد والجمع سوى بينهما فى الإيقاع ، ولأمـر ما كـان عظم الرأس من علامات السيادة عند العرب ، وذلك بناء على مايذهبون إليه فى الرأس ، قيل لسنان بن سلمة الهذلى ما أنت بأرسح فتكون فارساً ، ولابعظيم الرأس فتكون

---

(١) الصاحبى : لابن فارس ١١٢ .

(٢) آية ٤ من النساء

(٣) آية ٦٧ من غافر .

(٤) فقه اللغة للثعالبى ٢٦٢ .

(٥) آية ١١٩ من الشعراء .

(٦) آية ١٦٤ من البقرة .

(٧) آية ٦ من المائدة ، وانظر فقه اللغة ٢٦٩ .

سيداً ، وقال بعض الشعراء :

فـقـبّـلتُ رأسـاً لم يـكـن رأسَ سِّـيـدٍ
وكـفـاً ككفّ الضب أو هـى أحـقـر[1]

ويقولون سيد معمم : يريدون أن كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأسه ، وعُمم الرجل سوّد . لأن تيجان العرب كانت العمائم ، وكمـا قيل فى العجم توج من التاج ، قيل فى العرب عمم .

ومن هـذا الباب كـان أيضـاً إطلاق الأعنـاق عـلى الرؤساء وإطلاق الجماجم عـلى السادة الكـرام أنشد صاحب العين :

شـمَتَّ بـنـا أن مسـنـا ريْـبُ حِـقْـبَـةٍ
أصـاب نثـاهـا من معـدٍ جمـاجـمـا

والنثا ما أخبرْت به عن الرجل من حسن أو سىء وهو هنا يغلب عليه القبيح والشر ، وإنما جاءت الشماتة من أن ريب الدهر أصابهم فى الصميم .

- ٣ -

والعربية قد توخت فى أسماء ما للإنسان من أعضاء

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١ / ٢٢٤ .

سماتٍ للوجود المضطرب بالحركة المأخوذ من وجوده الذاتى ، فكانت فى وظائفها كأنها تقوم على حفظ الذات أو البيان عنها بنحو من الأنحاء ، إذ كان هذا مصيرها الذى تؤول إليه فى الكيان الإنسانى وسط العالم الذى يجتاحه من سائر أقطاره .

والجمجمة والعنق والعين والحاجب واليد والإصبع والرجل وغيرها إنما تترامى معانيها إلى ذلك وتبتغيه ، فالجمجمة ويلحظ فيها الاجتماع والشمول والإحاطة هى عَظْم الرأس المشتمل على الدماغ أو هى القحْف أو هى عظام الرأس كلها وأعلاها الهامة ، وسميت القبائل التى تجمع البطون وينسب إليهم دونَهم جماجم لذلك .

والعنق وصلة بين الرأس والجسد يتطاول معه الإنسان ويخرج من ضيق الانغماس إلى أفق الارتفاع ، قال رؤبة يصف الآل والسراب :

تبدو لنا أعلامه بعد الفرق
خارجةً أعناقها من معتنَق

يذكر السراب وانغماس الجبال فيه إلى أعاليها ، والمعتنق مخرج أعناق الجبال من السراب أى اعتنقت فأخرجت أعناقها .

وهذه الاستطالة هى مناط تسميته والوجه فيها ، يقال

هَضبة معنقة وعنقاء مرتفعة طويلة .

ومن شأن العنق وهو بهذه المثابة أن يكون أول مايظهر ، فعنق الجبل ما أشرف منه ، وعنق الصيف والشتاء أولهما ، قال ابن الأعرابى قلت لأعرابى : كم أتى عليك ؟ قال أخذت بعنق الستين ، أى أولها ، ويقال : كان ذلك على عنق الدهر أى قديم الدهر ، وإذا خضع العنق وهو آلة العلو خضع صاحبه واتّضع قال تعالى « فظلت أعناقهم لها خاضعين »[1] .

والأنف إنما يذكر بالشمم لارتفاعه أيضاً ، وكل مرتفع أشم ، ومنه قُنّة شماء .

ومن وجوه الارتفاع التقدم ومنه قيل للمحدد مؤنّف ، ثم ترامى ذلك إلى آثاره ، فكان الأنف كالوجه تتعلق به دواعى الإباء وأسبابه ، وهو من معانى الشمم ، قال حسان بن ثابت :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شُمّ الأنوف من الطراز الأول

وهى أولية لها مايسوّغها ثبتت لأصحابها بحق مالهم من تقدم على سواهم .

وقد يكون الأصل فى ذلك مايتصل بالبعير فهو يساق

(١) آية ٤ من الشعراء .

بأنفه ويعقره الخطام وإن كان من خشاش أوبُرة أو خزامة فى أنفه ، ويقال له الآنف ، إذ لايمتنع على قائده فى شىء للوجع فهو ذلول منقاد لذلك ، وقيل الآنف الذليل المؤاتى الذى يأنف من الزجر ومن الضرب ويعطى ماعنده من السير عفواً سهلا وكلاهما سائغ لأنهما طرفان يتراوح بينهما تاريخ البعير مع الإنسان ، وكان للأنف لذلك ما كان من عزة أو هوان حتى قيل للسيد : الأنف ، وقال الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم
ومن يُسوِّى بأنف الناقة الذنبا

والعين وهى حاسة البصر كالمرآة إذا استقبلها شىء رأت شخصه فيها لشدة صفاء الناظر ولذلك روى بيت ذى الرمة رفعاً :

وإنسان عينى يحسر الماء تارة
فيبدو وتارات يجمّ فيغرق

فماء العين دمعها إذا حسر كشف إنسان العين فظهر ، وإذا جم غرق فلم يظهر ، وسبيله سبيل الماء الذى ينبع من الأرض ، وهذا هو الوجه على ما أرى فى

إطلاق العين على عين الماء والعين الباصرة على جهة الاشتراك ، وليس أبلغ فى تصوير تلاقيهما وهما يتعانقان ويتجاذبان مما ورد فى الحديث « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » أراد عين الماء التى تجرى ولا تنقطع ليلا ونهاراً وعين صاحبها نائمة فجعل السهر مثلا لجريها ، وأنشد ثعلب :

أولئك عين الماء فيهم وعندهم
من الخيفة المنجاة والمتحوُّل

فسره فقال : عين الماء الحياة للناس .

ويدور بالعين المحجر ويشرف على غارها الحجاج ويحجبها عن شعاع الشمس الحاجب ويغطيها الجفن ، ثم تحنو عليها العربية وترأمها بالمعانى المتباينة والألفاظ المختلفة تفصِّل فيها المحاسن كما تفصل المعايب ، وتذكر العوارض كما تشير إلى الأدواء ، فمن ذلك هيئات النظر فى اختلاف أحواله التى جمعها الثعالبى فى فقه اللغة[١] قال : إذا نظر الانسان إلى الشىء بمجامع عينه قيل رمقه ، فإن نظر إليه من جانب أذنه قيل لحظه ، فإن نظر إليه بعجلة قيل لمحه ، فإن رماه ببصره مع حدة نظره قيل حدَجه بطرفه ، وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه « حدِّث القوم ما حدجوك بأبصارهم » فإن نظر إليه

---

(١) فقه اللغة ٨٢ .

بشدة وحدة قيل أرشقه وأسف النظر إليه ، وفى حديث الشعبى أنه كره أن يسف الرجل نظره إلى أمـه وأخته وابنته .

فإن نظر إليه نظر المتعجب منه أو الكاره له أو المبغض إياه قيل شفنه ، وشفن إليه شفوناً وشفنا ، فإن أعاره لحظ العداوة قيل نظر إليه شزرا ، فإن نظر إليه بعين المحبة قيل : نظر إليه نظرة ذى علق ، فإن نظر إليه نظر المستثبت قيل توضحه ، فإن نظر إليه واضعاً يده على حاجبه مستظلا بها من الشمس ليستبين المنـظور إليه قيل استكفّه واستوضحه واستشرفه ، فإن نشر الثوب ورفعه لينظر إلى صفاقته أو سخافته أو يرى عواراً إن كان به قيل استشفه ، فإن نظر الىً الشيء كاللمحة ثم خفى عنه قيل لاحه لوحة كما قال الشاعر :

وهل تنفعنى لوحة لا ألوحها

فإن نظر إلى جميع ما فى المكان حتى يعرفه قيل نفضه نفضاً ، فإن نظر فى كتاب أو حساب ليهذبه أو ليستكشف صحته وسقمه قيل تصفّحه ، فإن فتح جميع عينيه لشدة النظر قيل حدَق ، فإن لألأهما قيل برّق عينيه فإن انقلب حملاق عينيه قيل حملق ، فإن غـاب سواد عينيـه من الفزع قيل برق بصره ، فإن فتح عين مفزع أو مهدّد قيل جمّح ، فإن بالغ فى فتحها وأحدّ النظر عند الخوف قيل

حدج وفزع ، فإن كسر عينه فى النظر قيل دنقس ، وعن أبى عمرو فإن فتح عينيه وجعل لا يطرف قيل شخص ، وفى القرآن « شاخصة أبصار الذين كفروا »[١] ، فإن أدام النظر مع سكون قيل أسجد ، فإن نظر إلى أفق الهلال لليلته ليراه قيل تبصّره ، فإن اتبع الشيء بصره قيل ارتأه بصره .

وهى كما ترى فروق مبنية على أنماط من النظر مختلفة إلا أنها ترتد إلى أربعة أمور : حركة العين وكميتها وكونها آلة للمعرفة ووسيلة للانفعال ، أما حركتها ففى الرمق والتحديق واللحظ ، وأما حركة العين ففى اللمح والشخوص ، وأما الانفعال ففى قولهم حدجه بطرفه وأرشقه وأسف النظر إليه وشفنه ونظر إليه شزرا ، ونظر إليه نظرة ذى علق وبرق بصره ، والمعرفة يدخل فيها حقيقة الشيء الذى يتعرفه الرائى كأن يكون مبهماً يستوضحه ويستشرفه أو ثوباً يستشفه أو مكاناً ينفضه أو كتاباً يتصفحه أو هلالا يتبصره ، وقد يضاف إلى ذلك أرتأه بصره .

ومما يناسب ذلك ويجرى مجراه شكل العين يوصف به الرجل فيقال رجل ملوّز العينين إذا كانتا فى شكل

---

(١) آية ٩٧ من الأنبياء .

اللوزتين ورجل مكوكب العينين إذا كان فى سوادهما نكتة بياض ، ورجل شقذ إذا كان شديد البصر سريع الاصابة بالعين .

والاصابة بالعين من آثار قوتها السحرية الكامنة فى الانسان ، ومن أجل ذلك أطلق عليها النفس ومنه النافس العائن ، والمنفوس المعيون ، قال الشاعر :

قد كان قومك يحسبونك سيداً
وأخال أنك سيد معيون

كأن السيد فى حمى من فتك العين يمتنع عليها .

ومن اعاجيب العربية أن يكون مثار ذلك وسببه الماء الذى فى العين يهيج ويتوقد توقد الدم فى العروق على ما يؤخذ من قولهم تبيّغ به الدم أى تردد فيه الدم ، وتبيغ الماء إذا تردد فتحير فى مجراه مرة كذا ومرة كذا ، وتبيغ الداء إذا أخذ فى الجسد كله واشتد ، بحيث ضم تبيغ العين بالانسان هذه اللحظات القاتلة ، يقال إنك عالم ولا تباغ (أى لا يقرن بك ما يغلبك) ولا تبغ أى لا تتبيغ بك العين فتصيبك كما يتبيغ الدم بصاحبه فيقتله .

والذراع واليد شأنهما الحركة والسعى والاستعانة بهما فى ذلك ، يقال ذرع الرجل فى سباحته تذريعاً اتسع ومدّ ذراعيه ، والتذريع فى المشى تحريك الذراعين من

ذرع البعير يده إذا مدها فى السير ، ثم يجىء منه خروج المرء من التقبض بسطاً للإرادة وإظهاراً لما يكنه وإعلاماً به ، فينذر أو يبشر برفع ذراعيه ويقال فيه ذرع الرجل ، قال الشاعر :

تؤمل أنفال الخميس وقد رأت
سوابق خيل لم يذرّع بشيرها

ومن هذا الباب الإذراع فى الكلام والتذريع وهو الاكثار والافراط وربما كان ذلك لأن المكثر يعول فى أثناء كلامه على ذراعه فيمده .

والذرع بمعنى الطاقة مأخوذ كما قدمنا من الذراع ، يقال ضاق بالأمر ذرعه أى ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً ولم يطقه ولم يقو عليه ، وهو من بسط اليد ، فكأن الذراع تجيش بالطاقة وتزجيها وتكون سبيلا إليها . ويقرب منه الذريعة الوسيلة ، من قولهم تذرع فلان بذريعة أى توسل ، والذريعة جمل يختل به الصيد يمشى الصياد إلى جنبه فيستتر به ويرمى الصيد إذا أمكنه ، وذلك الجمل يُسيَّب أولا مع الوحش حتى تألفه ، فكأن الجمل ذراع تنبض بما تنبض به ذراع الصائد من قوة واقتدار ، ثم جعلت الذريعة مثلا لكل شىء أدنى من شىء وقرب منه ، فكانت الذريعة طريقاً إلى

المصير المحتوم وهو الموت ، أنشد ابن الأعرابى :

وللمنية أسباب تقربها
كما تُقَرِّبُ للوحشية الذرع

والعضد وهو ما بين المرفق والكتف كالذراع ، به يستعان وبه سميت القوة ، وفى التنزيل « سنشدُّ عضدك بأخيك »(١) .

والعرب تقول فلان يفت فى عضد فلان ويقدح فى ساقه ، فعضده أهل بيته وساقه نفسه ، وكل ذلك من الشد والتقوية لأن العضد يشد ما حوله كعضد البناء وعضد الحوض .

والفعل منه يحمل طرفى الامكان عند الانسان وهما القوة والضعف ، القوة من حيث كان سبيلها العون ، والضعف من حيث كان الطريق إليه الداء والاصابة به ، فيقال عضده يعضده عضداً أصاب عضده ، وكذلك إذا أعنته وكنت له عضُداً .

وربما خصص عضِد بكسر الضاد بالاصابة بالداء فى العضد شأنه شأن عُضِد عضداً ، بضم أوله وكسر ثانية فى الماضى وإسكان ثانيه فى المضارع ، شكا عضده ،

(١) آية ٣٥ من القصص .

ويطرد عليه باب فى جميع الأعضاء .

واليد فى القوة والعمل أوسع وأكثر من العضد ، قال الشاعر :

يداك يد إحداهما الجود كله
وراحتك الأخرى طِعانٌ تغامره

كأن مصير الانسان فى يديه .

ثم فى إسنادها إلى الأشياء كالفأس والقوس وغيرهما إسباغ للوجود الانسانى عليها ، إذ لا يتعاطاها المرء إلا بها ، فيد الفأس مقبضها ، ويد القوس سيتها ، وهى مناط الارادة ومتعلقها ، فيها تنطلق وبها تتقوم ، ومن ثم كانت يد الريح سلطانها قال لبيد :

نطافٌ أمرها بيد الشمال

لما ملكت الريح تصريف السحاب جعل لها سلطاناً عليه فى يدها

ويد الدهر يمتد فيها الزمان إلى غايته لتحقيق إرادته من البطش بالانسان وأسره فى أيامه ولياليه .

وأيدى الثريا فى قول ذى الرمة :

ألا طرقت مىٌّ هيوما بذكرها
وايدى الثريا جُنَّح فى المغارب

مـظهر من مـظاهر الارادة ، والارادة تقتضى الميـل بحيث ساغ أن تميل الثريا نحو المغارب وتتدلى أيديهـا المجنّحة فى آفاق السماء .

وأما قول لبيد :

حـتـى إذا ألفـت يـدأ فى كـافـر
وأجـنَّ عـورات الثـغـور ظلامـهـا

فقد انغمست فيه يد الشمس فى الليل وخـاضت فى أحشاء الظلام .

وكما أن فى وجود اليدين إثباتاً للقدرة كان فى عدمهما نفياً لها ، فصح أن يقال اليد فى هذا لفلان ، أى الأمر النافذ لفلان ، من حيث صح أن يقال مالى بهذا الأمر يد ولا يدان - وفى حديث يأجوج ومأجوج « وقـد أخرجت عباداً لى لا يدان لأحـد بقتالهم » - أى لا قـدرة له ولا طاقة .

وقوله تعالى « حتى يعطوا الجزية عن يد »[1] قيـل معناه عن ذل وعن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فـوق أيديهم ، وقيل عن يد أى إنعام عليهم بـذلك لأن قبول الجزية وترك أنفسهم عليهم نعمة عليهم ويد من المعروف جزيلة .

---

(١) آية ٢٩ - التوبة .

والحق أن كلا المعنيين طرف فيما تمتد إليه اليد من قهر وغلبة من جانب المؤمنين ، والذل والانكسار من جانب الكافرين ، فهى ثابته بخفقانها الحى فى علو الأولين وخضوع الآخرين ، لأن دلالتها ذاتية لا تصح إذا هى جردت من ظلال هذا المضمون .

والدليل على ذلك ما ذكره عبد القاهر الجرجانى من أنه « لو تكلف متكلف فزعم أنه وضع مستأنف أو فى حكم لغة مفردة لم يمكن دفعه إلا برفق وباعتبار خفى ، وهو ما قدمت من أنا رأيناهم لا يوقعون هذه اللفظة على ما ليس بينه وبين هذه الجارحة التباس واختصاص .

ودليل آخر وهو أن اليد لا تكاد تصلح للنعمة إلا وفى الكلام إشارة إلى مصدر تلك النعمة وإلى المولى لها ، ولا تصلح حيث تراد النعمة مجردة من إضافة إلى المنعم أو تلويح به .

بيان ذلك أن تقول اتسعت النعمة فى البلد ولا تقول اتسعت اليد فى البلد ، وتقول اقتنى نعمة ولا تقول اقتنى يداً ، وأمثال ذلك تكثر إذا تؤملت ، وإنما يقال جلت يده عندى وكثرت أياديه لدى فتعلم أن الأصل صنائع يده وفوائده الصادرة عن يده وآثار يده .

ومحال أن تكون اليد اسماً للنعمة هكذا على الاطلاق ثم لا تقع موقع النعمة ، لو جاز ذلك لجاز أن يكون

المترجم للنعمة باسم لها واضعاً اسمها من تلك اللغة فى مواضع لا تقع النعمة فيها من لغة العرب وذلك محال »[1] .

واليد فى هذا الباب نظير الإصبع فى قولهم فلان من الله عليه إصبع حسنة أى أثر نعمة حسنة ، وعليه منك أصبع حسنة أى أثر حسن ، قال لبيد :

من يجعل الله عليه أصبعاً
فى الخير أو فى الشر يلقاه معا

وإنما قيل للأثر الحسن إصبع لإشارة الناس إليه بالاصبع ، قال ابن الأعرابى إنه لحسن الأثر فى ماله وحسن المس فى ماله ، أى حسن الأثر وأنشد :

أوردها راع مرىء الإصْبَع
لم تنتشر عنه ولم تصدَّع

وفلان مغل الإصبع إذا كان خائناً قال الشاعر :

حدّثت نفسك بالوفاء ولم تكن
للغدر خائنة مُغلّ الاصبع

ويقال للراعى ، على ماشيته إصبع أى أثر حسن ، وعلى الابل من راعيها إصبع مثله ، وذلك إذا أحسن

---

[1] أسرار البلاغة ص ٣٠٥ .

القيام عليها فتبين أثره فيها ، قال الشاعر :

ضعيف العصا بادى العروق ترى له
عليها إذا ما أجدب الناس إصبعاً

حيث تشير بالرحمة كما أشارت من قبل بالخيانة .

قال عبد القاهر : « فأنت الآن لا تشك أن الإصبع مشار بها إلى إصبع اليد وأن وقوعها بمعنى الأثر الحسن ليس على أنه وضع مستأنف فى إحدى اللغتين ، ألا تراهم لا يقولون رأيت أصابع الدار بمعنى آثار الدار ، وله إصبع حسنة وإصبع قبيحة على معنى أثر حسن وأثر قبيح ونحو ذلك ، وإنما أرادوا أن يقولوا له عليها أثر حِذْق فدّلوا عليه بالاصبع لأن الأعمال الدقيقة لها اختصاص بالأصبع ، وما من حذق فى عمل يد إلا وهو مستفاد من تصريف الأصابع واللطف فى رفعها ووضعها كما يعلم فى الخط والنقش وكل عمل دقيق ، على ذلك قالوا فى تفسير قوله تعالى « بلى قادرين على أن نسوى بنانه »[(١)] أى نجعلها كخف البعير فلا تتمكن من الأعمال اللطيفة[(٢)] .

وفى الآية وجه آخر من التأويل يظهر بالنظر إلى أولها

---

(١) آية ٤ من القيامة .

(٢) أسرار البلاغة ٣١٧ .

وهــو قوله تعــالى : « أيحسب الانســان أن لن نجمــع عظامه » بحيث يخرج منها دليل على البعث مبنــاه على التضــايف ، بيان ذلك أن جمــع العــظام الذى ينكــره الانسان لا يثبت إلا بتسوية البنان من حيث إنهما أمران متقابلان لا يصح أحدهما إلا بالآخر ، كالحياة يشهد لها الموت والكبير يثبته الصغير ، فساغ من هذا الوجه أن تكون تسوية البنان حجة على جمع العظام وبرهاناً على بعث الانسان .

والأصابع وما دونها كالأنامل والأظافر تحمل من آثار الوجود مثلما يحمل أضخم الأعضاء فى بدن الانسان ، وإلى هذا تنحو اللغــة فى التفكير حتى يجــوز أن يكون التصغير للتكبير فى قول القائل :

وكــل أنــاس ســوف تــدخــل بــينــهــم
دويــهيــة تــصــفَــر مــنــهــا الأنــامــل

فالشىء الصغير قد يهول الانسان لدقته كمــا يهوله الشىء الكبير لجسامته ، يُشاق فى هذا وذاك ضرباً من الوجود المتناهى الذى يتأرجح بين طرفين لا يســاوره أحدهما إلا فى ظلال الآخر ، وقد خوف الشاعر أعداءه بالأرماح الطوال ، كما خوفهم بالأشاجــع العاريــات فى

قوله :

يــهــزون أرمــاحــاً طوالا مــتــونــهــا

بــأيــدى رجــال عــاريــات الأشــاجــع

والأشـاجع العصبـات التى على ظهـر الكف تتصل بظهور الأصابع حتى تبلغ المفاصل السفلى ثم تغمض ، واحدها أشجع وإذا كان الرجل معروق الكف قيل عارى الأشاجع . بل ربما كان الشيء لدقته أدعى إلى الإثارة لأنه يقارب الاختفاء والاختفاء يبعث على الرهبة إذ هو ضرب من المستسر المجهول .

ولا يبعد ان تكون خطوط الكف قد سميت فى العربية الأسرار من أجل ذلك . أنشد أبو عبيدة :

فــانــظر إلى كــفــى وأســرارهــا

هــل أنــت إن أوعــدتــنــى ضــائــرى

وواحد الأسرار : سر ، والسر الذى هو نقيض الجهر من معدن واحد كما هو ظاهر مما قد يكون دليلا على إلمام العـرب بعلم الكف من حيث كـانـوا يـطالعـون فيهـا أسرارهم .

وأما الرجل فمن معانيها الخـوف والفزع من فـوت الشيء ، يقال أنا من أمرى على رجل أى على خوف من فوته ، ومن ذلك تفضى إلى الزمان وهو أيضاً من معانيها يقال كان ذلك على رجل فلان أى فى حياته وزمانه وعلى

عهده ، وفى حديث ابن المسيب « لا أعلم نبياً هلك على رجله من الجبابرة ما هلك على رجل موسى عليه السلام » أى فى زمانه ، كأن الرجل تلاحق الزمان الهارب بمشيها فى الحياة الصعبة .

ولعل العربية قد سمَّت باطن القدم النعامة من أجل ذلك ، وابن النعامة عرق فى الرجل وهو أحد ما فُسِّر به قوله :

وابن النعامة يوم ذلك مركبى

ومن هذا الوجه أيضاً كان للقدم شقان على ما قدمنا ، شقها الذى يقبل على القدم الأخرى ويسمى الإنسى ، وشقها الذى لا يقبل على شىء من الجسد ويقال له الوحشى ، كأن الأول يأنس بالقدم التى تليه والآخر لا يأنس بشىء فهو على ما سمى به .

والقدم من التقدم الذى هو السبق ومغالبة الآخرين وهذا معناها ، تجتمع القطر فيقول الجمال لى الرجل أى أنا أتقدم .

والمشقة التى تلازم الانسان فى أكثر أحواله كأنها تتعلق بالرجل ، فمن ذلك التفرد فى قولهم ارتجل الرجل جاء من أرض بعيدة فاقتدح ناراً وأمسك الزند بيديه ورجليه لأنه وحده ، وبه فسر :

كدخان مرتجل بأعلى تلعة

والصلابة فى الرجل تشهد بها المادة فى شتى صورها ، فرجل القوس سيتها السفلى ، قال أبو حنيفة رجل القوس أتم من يدها لأن القواسين يسخفون الشق الأسفل منها وهو الذى تسميه يداً لتعنت القياس فينفق ما عندهم ، وأنشد :

ليت القسيّ كلها من أرجل

وحرة رجلاء هى المستوية بالأرض الكثيرة الحجارة يصعب المشى فيها ، وامرأة رجيلة صبور على المشى ، وناقة رجيلة ، ورجل راجل ورجيل قوى على المشى ، ولا شك أن مأتاه منها إذ هو يحمل آثارها من المشاقة والمعاناة والشدة ، قال أبو ذؤيب :

أهم بنيه صيفهم وشتاؤهم
وقالوا تعدّ واغز وسط الأراجل

والأراجل جمع رجل .

وما ذكره ابن سيده من أنه قد يكون صفة يعنى بذلك الشدة والكمال بناء على ما ذهب إليه سيبويه فى قولهم : مررت برجل رجل أبوه والأكثر الرفع ، لا يضعف من اسمية الرجل فالوصفية جزء منها داخلة فيها إذ هى على ما قاله أبو على الفارسى اختصار جملة أو جمل ، وقد قال سيبويه فى موضع آخر إذا قلت هذا الرجل فقد يجوز أن تعنى كماله وأن تريد كل رجل تكلم ومشى على رجلين .

وإذا كان كلاهما يجوز من جهة الصناعة اللغوية فإن الأول أقوى فى الدلالة على روح اللغة وبيانها ، وبيانها قائم على مغالبة الخوف بالرجل لبلوغ الغاية قال الشاعر :

ولا يدرك الحاجات من حيث تبتغى
من الناس إلا المصبحون على رِجْل

كأن كمال الرجل لا يتأتى بمجرد كونه يتكلم ويمشى على رجلين بل لأنه يعانى من الشدة ما يعانيه .

والرجْل فى ذلك هى الأداة يتحرر بها من الخوف والفزع ليصير إلى الثبات والصلابة ، وهذا هو الوجه فى الجمع بين معانى الرجولية التى يتقوم بها الذكر من نوع الإنسان فيقال له رجل ساعة تلده أمه إلى ما بعد ذلك ويصغَّر إلى رُجيل ، والمرأة إذا طرأ عليها من هذه المعانى شىء ، تعاطت الوصف وأسند إليها فعل الرجولة ، فيقال ترجلت المرأة إذا صارت كالرجل ، وفى الحديث كانت عائشة رضى الله عنها « رجُلة الرأى » من حيث إنها تشبهت بالرجال فيه .

وأما القدم فإنها تترامى إلى العزيمة والسبق والتقدم ، وكلها ثابت فى قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا

أن لهم قدم صدق عند ربهم »[1] .

والمنزلة الرفيعة أثر من آثارها فصح إطلاقها عليها، ولا فرق حينئذ بين أن تكون القدم للواحد أو للجمع لأن معانيها الذاتية تفى بهذا وذاك كما فى الآية ، وكما فى قول ذى الرمة :

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة
لهم قدم معروفة ومفاخر

ويجعلها أحد طرفى الحسب العريق والشرف الباذخ .

ثم تشتد القدم حتى تؤول إلى أداة القهر والإذلال ونقض المنة فى قوله صلى الله عليه وسلم « كل دم ومال ومأثرة كانت فى الجاهلية فهى تحت قدمى هاتين » يهدر بها كل ما كان من أمر الجاهلية .

فأسماء الأعضاء على اختلافها تنحو نحو قوة الذات وتماسكها إزاء ما يجتاحها من أسباب الهلاك ، ثم تحمل مع ذلك تاريخاً للانسان تدل الحركات والسكنات على صيرورته فى اللفظة الواحدة التى تضم فى أعطافها البرء والسقم بحيث لا يكون بين الموت والحياة إلا ضمة أو فتحة تبشر إحداهما بسلامة العضو وتنذر الأخرى بما

---

(١) آية ٢ من يونس .

فيه من داء كالعضد بالفتح وجع العضد بالضم ، والكباد وجع الكبد والطحـل وجع الطحـال والمثن وجع المثـانة والمصدور يشتكى صدره والمبطون يشتكى بطنه ، كأن العربية لا يفوتها شيء من حقيقة الخلق ، وهو وجـود يكتنفه العدم وولادة تغشاها منيّـةٌ وضوء يختلج فيـه ظلام ، قال تعالى « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث »[1] وهى ظلمات البطن والرحم والمشيمة ، تضم النطفـة والعلقة والمضغـة كما يضم القبر الإنسان .

* * *

---

(١) آية ٦ من الزمر .

خلق الإنسان

ثم ما هو الخلق بسكون اللام وأين يقع من الخلق بضمها ؟ نسائل المادة اللغوية فنجد فيها ضروباً متباينة من المعانى تلتقى فيها الهضبة والسحاب والمروءة والثواب والجدة والبلى واللين والشدة ، يفضى أولها إلى آخرها وآخرها إلى أولها ، ثم بالتأمل يظهر أول الخيط ممتداً على استحياء إلى الجبل المصمت والحجر الأملس والصخرة التى قال فى مثلها الأعشى :

قد يترك الدهر فى خلقاء راسية
وهْيا ويُنزل منها الأعصَم الصدعَا[1]

وينتهى بمثل الخلقه فى قول الشاعر يذكر سحابة فيها أثر المطر :

لا رعدتْ رعدةٌ ولا برقت
لكنها أنشئت لنا خلِقَه

---

(١) الأعصم من الوعول الذى فى ذراعه بياض . والصدع بالتحريك القوى .

كأن المادة تمضى بين طرفين من السلب والإيجاب ، السلب يحتاج الهضبة فإذا بها مصمتة ملساء لانبات بها والجبل الذى لا يؤثر فيه شىء ، والرجل العارى من المال .

وكل ما كان من هذا الباب أخلق ومؤنثه خلقاء ، وينبغى أن يذكر معه ما يجانسه ، وتفوح منه رائحة البلى كما فى قول الشاعر :

مضوا وكأن لم تغن بالأمس أهلُهُم
وكل جديد صائرٌ لخلوق

ورائحة الموت فى الرمة الخَلق من قول لبيد :

والنِّيب إن تعر منى رمة خلقا
بعد الممات فإنى كنت أتّئر[1]

ثم تتحرك الإرادة فى الفعل فيعمره الإيجاب ، ويخلولق السحاب بأن يستوى ويصير خليقاً للمطر .

ويعظم قدر الإنسان بالمروءة فيقال فيه خلُق لذلك بالضم كأنه مما يقدرّ فيه وتُرى فيه مخايُله فيتعانق عندئذ الخلْق بسكون اللام والخلُق بضمها من حيث إن الأول يدل على الصورة الظاهرة والثانى على الصورة الباطنة يؤدى معه المرء ما فى طباعه ويخرجها من الإمكان

---

(١) النيب : جمع ناب وهى المسنة من النوق

إلى التحقق .

والخليقة فعيلة منه ، قال ابن جنى : وقد كثرت فعيلة فى هذا الموضع ، وهو قولهم الطبيعة ، وهى من طبعت الشىء أى قررته على أمر ثبت عليه كما يطبع الشىء كالدرهم والدينار فتلزمه أشكاله فلا يمكنه الانصراف عنها ولا انتقاله .

ومنها النحيتة وهى فعيلة من نحتّ الشىء أى ملّسته وقررته على ما أردته منه ، فالنحيتة الخليقة ، هذا من نحتٍ وهذا من خلقت .

ومنها الغريزة وهى فعيلة من غررت ، كما قيل لها طبيعة لأن طبع الدراهم ونحوه ضرب من وسمه وتغريزه بالآلة التى تثبت عليه الصورة وذلك استكراه له وغمز عليه كالطبع .

ومنها النقيبة وهى فعيلة من نقبت الشىء وهو نحو من الغريزة .

ومنها الضريبة وذلك أن الطبع لابد معه من الضرب لتثبت له الصورة المرادة .

ومنها النحيزة وهى فعيلة من نحزت الشىء أى دققته ، ومنه المنحاز الهاوون لأنه موضوع للدفع به والاعتماد على المدقوق ، قال :

ينحزن من جانبيها وهى تنسلب

أى تضرب الإبل حول هذه الناقة للحاق بها وهى تسبقهن وتنسلب أمامهن ..

ومنها السجية وهى فعيلة من سجا يسجوُ إذا سكن ، ومنه طرف ساج وليل ساج ، قال :

يا حبذا القمراء والليل الساج
وطرق مثل ملاء النساج

وقال الراعى :

ألا اسلمى اليوم ذات الطوق والعاج
والدل والنظر المستأنس الساجى

وذلك أن خلق الإنسان أمر قد سكن إليه واستقر عليه ، ألا تراهم يقولون فى مدح الرجل فلان يرجع إلى مروءة ويخلد إلى كرم ويأوى إلى سداد وثقة فيأوى إليه هو هذا ، لأن المأوى خلاف المعتمل لأنه إنما يأوى إلى المنزل ونحوه إذا أراد السكون .

ومنها الطريقة من طرقت الشيء أى وطأته وذللته ، وهذا هو معنى ضربته ونقبته وغرزته ونحته لأن هذه كلها رياضات واعتمادات وتهذيب .

ومنها السجيحة وهى فعيلة من سجح خلقه ، وذلك أن الطبيعة قد قرت واطمأنت فسجحت وتذللت وليس على الإنسان من طبعه كلفة وإنما الكلفة فيما يتعاطاه

ويتجشمه ، قال حسان :

ذَروا التخاجُؤَ وامشوا مشية سجحاً
إن الرجال ذوو عصب وتذكير

والتخاجؤ مشية فيها تبختر .

وقال الأصمعى : إذا استوت أخلاق القوم قيل هم على سرجوحة واحدة ومنهم من يقول سرجيحة وهى فعليلة من هذا ، فسرجوحة فعلولة من لفظ السرج ومعناه ، والتقاؤهما أن السرج إنما أريد للراكب ليعدله ويزيل اعتلاله وميله فهو من تقويم الأمر ، وكذلك إذا استتبوا على وتيرة واحدة فقد تشابهت أحوالهم وزاح خلافهم ، وهذا أيضاً ضرب من التقرير والتقدير ، فهو بالمعنى عائد إلى النحيتة والسجية والخليقة لأن هذه كلها صفات تؤذن بالمشابهة والمغاربة .

والمرن مصدر كالحلف والكذب والفعل منه مرن على الشيء إذا أَلِفَه فَلان له ، وهو عندى من مارن الأنف مالان منه فهو عائد إلى أصل الباب ، ألا ترى أن الخليقة والنحيتة والطبيعة والسجية وجميع هذه المعانى التى تقدمت تؤذن بالإلف والملاينة والإصحاب والمتابعة .

ومنها السليقة وهى من قولهم فلان يقرأ بالسليقة أى بالطبيعة ، وتلخيص ذلك أنها كالنحيتة وذلك أن السليق

ما تحاتّ من صغار الشجر ، قال :

تسمع منها فى السليق الأشهب
معمعة مثل الأباء المُلْهَب

وذلك أنه إذا تحاتّ لان وزالت شدته ، والحت كالنحت وهما فى غاية القرب ، ومنه قوله سبحانه « سلقوكم بألسنة حداد » أى نالوا منكم ، وهذا هو نفس المعنى فى الشىء المنحوت ألا تراهم يقولون فلان كريم النجار والنجر أى الأصل ، والنجر والحت والضرب والدق والنحز والطبع والخلق والغرز والسلق كله التمرين على الشىء وتليين القوى ليصحب وينجذب[1] .

فالخلَق على هذا ليس شيئاً سلبياً يصدر عن المرء من غير إرادة بل هو مغالبة ومكابدة لترويض الطبع على ما ينبغى أن يتحقق به من دواعى الجلد والقوة وتمكن الذات .

وهو نهاية طريق طويل فى المادة اللغوية يرتجف فيه الإنسان أمام الصخرة الخلقاء التى لا يقوى عليها شىء إلا الدهر فى بيت الأعشى ، والهضبة الخلقاء التى لا تنبت شيئاً ، والمتاهات المائية المسماة بالخلائق وهى الآبار التى خلقها الله فى بطون الأرض أفواهها ضيقة فإذا

---

(١) الخصائص ٢ / ١١٣ .

دخلها الداخل وجدها تضيق مرة وتتسع أخرى ثم يفضى فيها إلى قرار للماء لا يوقف على أقصاه ويعج برائحة البلى والفناء فى الأشياء التى أبلاها الدهر ، والرسم الذى يستوى بالأرض والربع الذى عفا فصدّ عنه المرقش لصممه حتى لم يعد يجيب :

ماذا وقوف على ربع عفا
مخلولق دارس مستعجم

ثم بالفقير الأملس من الحسنات فى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « ليس الفقير الذى لا مال له إنما الفقير الأخلق الكسب » وهو الذى لم يقدم لآخرته شيئاً يثاب عليه ، لأن فقره وافر منتظم لا يقع فيه وكس ولا يتحيفه نقص ، فمصيره إفلاس كامل إن صح أن الإفلاس يوصف بالكمال .

وكل هذا عالم ترتد عنه الذات لأنه مخيف مدمر لا يرجى منه خير ، لكن تقابله من جهة أخرى كائنات وأشياء تهتز بالأريحية وتفيض بالمروءة فيكون منها للإنسان ما يلتمسه من أمثالها كالسحاب يخلولق بعد تفرق فيتهيأ للمطر ، والقدح يملّس ويلين .

(والأنت) صورة من صور الكائنات ، والخلُق فيه جامع للأمرين ، فقد يكون كالجبل الصمت الذى لا سبيل إليه ، وكالسحابة الخلقة المخيلة للمطر ، وهذا على ما

أرى هو الوجه فيما قيل من أن الخلق هو التقدير .

وأما تلاقى الخلْق والخلُق فى أصل واحد فمرجعه إلى أن كليهما مستقر للإنسان ومآل للذات تتجمع فيها قواها ، فالخلُق لصورة الإنسان الباطنة وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخْلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة .

وحسن الخلق تعبر عنه العربية بالاتساع فى الذرع والرحابة فى الذراع ، فيقال لصاحبه واسع الذَّرع ورحب الذراع كما يقال له أيضاً رحب السِّرْب وواسع السرب ، وكل ذلك يؤول بعضه إلى بعض ، فالآخر أو الأنت هو أفق الإنسان ومنتهى طريقه ، إليه يخرج من ذاته ليلقاه ، وعليه يعول فى مغامرة الحياة ، التى تمتد فى سياق المكان .

وأصل الذرع وهو الطاقة أن البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوته ، فإذا حملته على أكثر من طوقه قلت قد ابطرْت بعيرك ذرعه لأنك حملته من السير على أكثر من طاقته حتى يبطر ويمد عنقه ضعفاً عما حمل عليه ، فكأنه إنما يسيطر بالذرع على المكان بإخضاعه لإرادته والمقايسة بينه وبين قوته ، شأنه فى ذلك شأن الذئب الذى يصفه حميد بن ثور إذ يتصرف

كما يشاء فى المكان ويقتل به الزمان :

وإن بـات وحـشـاً ليلة لم يـضق بـهـا
ذِراعـاً ولم يصبـح لهـا وهـو خـاشـع

ومن بلاغة النبـوة ما ورد فى حـديث إبراهيم عليـه السلام « أوحى الله إليه أن ابْنِ لى بيتـاً فضاق بـذلك ذرعاً » لأنه إنما سقطت قوته دون بلوغ ذلك والاقتدار عليه .

وأما السرب : وهـو بفتح السين المسلك والطريق فتمتد العزة فيه والمنعة مكاناً ليس له حـدود إلا حيث تنتهى الإبل وغيرهـا من المال الراعى ، كـالفحل الذى يذكره الأخنس بن شهاب التغلبى رمزاً لذلك :

وكـل أنـاس قـاربـوا قـيـدَ فـحـلـهـم
ونـحـن خـلـعـنـا قـيـده فـهـو سـارب

قال الأصمعى : هذا مثل يريد أن الناس أقاموا فى موضع واحد لا يجترئون على النقلة إليه ، وقاربوا قيد فحلهم أى حبسـوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعـه إبلهم خوفاً أن يغار عليها ونحن أعزاء نقترى الأرض نذهب فيها حيث شئنا ، فنحن قد خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء ، فحيثما نزع إلى غيث تبعناه .

ومن قـولهم : اذهب فلا أنْـدَهُ سَرْبـك (أى لا أرد إبلك) حتى تذهب حيث شاءت ، لمن عز ، وأغير عـلى

سرب القوم لمن ذلوا .

والشنْفرى لما أراد أن يفخر كان سبيله بُعد المذهب فى الأرض وتنائيه عن المكان الذى ابتدأ منه المسير :

خــرجنــا من الوادى الذى بين مشْعــلٍ
وبين الجيــاهيهــات أنســأت ســربــتى

لأنه إنما يضرب فى آفاق البأس والشدة والحرية التى لا تحدها حدود ولا تقف دونها سدود ، وهذا هو مدى هيهات .

وكما يذكر حسن الخلق بذلك يذكر بما يقاربه من كثرة الخيــر والعطيــة فيقال لصــاحبــه غمــر الخلق وقلمس ودهْثم .

فالغمر المــاء الكثير ، وفى الحــديث « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر غمر » أى يغمر من يدخله ويغطيه ، وقيل له غمر من حيث قيل قَلمسَ إذ القلمس البحر لأنه كثير الخير والعطية .

ومن بابهما الدهثم ، قال الأصمعى : العرب تقــول للصقر الزهْدم وللبحر الدهثم .

فحسن الخلق إرادة ومغامرة ومروءة تؤول إلى السعة والاقتدار ، يتعالى معها صاحبها على ذاته ، وكأنه يقهر الضيق بالخروج منه إلى سعة العالم ليلقى الآخرين ، كــالسمح الذى يقــال له مَــذْل النفس والكف لضـجـره

وقلقه ، وكل من قلق بسره حتى يفشيه أو بماله حتى ينفقه فقد مذل ، قال الأسود بن يعفُر يوسع على نفسه بإفشاء السر وإنفاق المال :

ولقد أروح على التِّجار مرجَّلا
مذِلا بمالى لينا أجيادى

وكل مأثرة من المآثر وفضيلة من الفضائل مبناها على سعة الخلق وما يجرى مجراه ، فالسخاء والمروءة من سمات الأريحى الواسع الخلق المنبسطة بالمعروف ، من الأريح وهو الواسع من كل شىء ، ويقال فيه إنه ذو هشاش إلى الخير ونشاط ، وسهل الشأن فى الطلب الحاجة ، ومسهب فى عطائه لأنه يكثر منه ، وطلق اليدين وطليقهما ، وفياض وبحر وذلول .

وكل رذيلة من الرذائل منشؤها ضيق الخلق الذى تتداعى إليه المعانى المختنقة بحشرجة الكلمات الكالحة ، كالعِسر من العسْر الذى يكتظ بالحساب والعذاب على الكافرين فى قوله تعالى « وكان يوماً على الكافرين عسيراً »(١) .

والشكس تتصاعد أنفاسه وأنفاس من معه من الضيق إذ ينحدر من محلة شكس وهى الضيقة يحدق

(١) آية ٢٦ من الفرقان .

بها ليل مظلم فى قول عبد مناف الهُذَلى :

وأنا الذى بيتُّكم فى فتيةٍ
بمحلّة شكِسٍ وليلٍ مظلم

وتحيق به لعنة الغنَص وهو ضيقُ الصدر وينشب فى حدِّته فيغلق فيها كأنه رهينة غضبه وزمجرته ، مأخذه من الغلق فى الرهن وهو ضد الفك .

والرذائل كلها بنات شوهاء لضيق الخلق يتلو بعضها بعضاً ، فالبخل من اللؤم والشح من البخل والبخيل مُحتر لا يعطى خيراً ولا يفضل على أحد إنما هو كفاف بكفاف لا ينفلت منه شىء ، ثم هو جماد الكف جامدها كز اليدين متقبضهما ومقفلهما لا يخرج من يديه خير .

واللئيم قعدْد يقعد عن المكارم ، جعد الأصابع قصيرها كأنه لا يبلغ بها المعروف ، فهو فى غمرات تلو غمرات من القحط والجدب وسوء السيرة تنحط به طباعه إلى أسفل بمقدار ما ترتفع بالحسن الخلق طباعه إلى أعلى ، فهذا كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وذلك كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

والعربية تشيد بالغاية فى حسن الخلق فتسميه سؤدداً من حيث تسميه أيضاً بعداً فى الهمة وتناهياً فى الفضل ، والسيد لا يكون سيداً فى نفسه وإنما سيادته

بالآخرين ، إذ ينقاد صاحبها لما تمليه ضرورة الحياة العامة للجماعة من قبيلة أو ما إليها .

وقولهم (قد سودته) ينزل منزلة البيعة له من كل فرد يقول قلبه قبل لسانه هذه الكلمة العزيزة التى يلقى فيها قائلها مقاليد أموره لسواه طوعاً لا كرها لكن لولا أنها عن بينة لما نطق به حكماً ثابتاً على نفسه وعلى الآخرين ، قال الشاعر :

عزمتُ على إقامة ذى صباح
لأمرٍ مّا يسوَّد من يسودُ

وإنما يفوق السيد قومه فى علم أو جمال أو أصالة رأى ، فقد يكون لسانهم المتكلم عنهم ، أو قِرْنهم الذى يدافع عنهم أو نابهم وجبهتهم ، يعولون عليه ويرجعون فى أمورهم إليه ، وقد يكون من أولى المعرفة عندهم كالكاهن والطبيب والعراف والمنجم والحازى الذى يدعى علم الغيب .

وكل أولئك لا يخلو أمره من تضحية بالنفس والمال يدفعها ثمناً للرياسة ، فهم لم يكونوا يسوّدون إلا من يوطئهم رحلَه ويفرشهم عرضه ويملكهم ماله ، بل قد يأتيه الشر من قبلها ، قال علقمة بن عبدة :

بل كل حى وإن عزّوا وإن كرموا
عريفهم بأثافى الشر مرجوم

إلا أن هذا هو طريق التمكن فى العز ولا طريق سواه ، أنشد صاحب العين :

خلع الملوك وسار تحت لوائه
شجر المُرى وعُراعر الأقوام

والعراعر اسم لجمع عرعرة وهو معظم الجبل شبهت السادة به ، وشجر العرى الذى يبقى على الجدب ويراد به سوقة الناس ، كأنه لم يتبعه الشجر والحجر إلا إذا تعرض للهلاك وهو يدفع الطغيان .

وزهير إنما ذكر سيدى عبْس وذبيان الحارث بن عوف وهرم بن سنان فى شعره الرهيب لأنهما مشيا فى طريق مشقق بالدّم إلا أنه مقدس يحده البيت الحرام ، قُربانه الإبل التى تعفى الكلام والديات التى تمحو الجراح ، ويتقلص الموت فى جنباته الواسعة وتندثر الآثام :

سعى ساعيا غيظ بن مرّة بعدما
تبزّل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمتُ بالبيت الذى طاف حوله
رجالٌ بنوه من قريش وجُرْهم
يميناً لنعم السيدان وجدتُّما

تــداركتمـــا عــبســـاً وذبــيـــان بعـــدمـــا
عـــلى كـــل حـــال من سحيـــل ومبـــرم[1]

وقـــد قـلتمــا إن نــدرك السـلم واسعــاً
تفـــانـــوا ودقـــوا بينهم عـــطر منـشم[2]

فـــأصبحتمـــا منهـــا عـــلى خيـــر مـــوطن
بـــمـــال ومـــعـــروف مـــن القـــول نـــسلـــم

بـعيـــديـــن فيـــهـــا من عـقـــوق ومـــأثـــم

فالأخلاق فى جملتها تنحو نحو إقرار الحياة فى أفقها الواسع الذى لا ضيق معه يقوم عليها أفـراد من أولى العزم والمروءة والمعرفة ، يشرقون بالدماء ويقلمون أظفار الموت والظلام والجوع والمـرض والأحزان ، فـلا مكان فيها للضعيف الذى يسخرها لأهوائه ، ولا للجبان الذى نضبت منه مادة العزيمة ولا للمحتال الذى يدور فى فضاء شهواته .

والفرق بين الطباع والأخلاق أن الطباع مترامية إلى غير غاية إلا الخضوع لطغيان الحواس ، أما الأخلاق فمحدودة بالعقل مسددة بالضمير لأنها جزء من نـظام

(١) السحيل خيط واحد لا يضم اليه آخر ، والمبرم يفتل فيه خيطان حتى يصيرا خيطاً واحداً والمراد بهما الشدة والسهولة .

(٢) منشم زعموا أنها امرأة عطارة من خزاعة تحالف قوم فادخلوا أيديهم فى عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا فضرب زهير بها المثل .

الحياة ونظام البدن ، وهذا هو السر كما قلنا فى أن الخلّق والخُلق من معدن واحد ، فالعرج والبرص والعور وغيرها من الآفات الجسمانية نظائر للغدر والإثم والخيانة ، تنفض هذه صاحبها نفضة الموت كما ترمى تلك صاحبها بنبال الهلاك ، وقياسهما واحد فى المعنى والمبنى قال سيبويه : « وقالوا حمقى وذلك لأنهم جعلوا شيئاً أصيبوا به فى عقولهم كما أصيبوا ببعض ما ذكرنا فى أبدانهم يعنى الهلكى والجرحى » إذ أن خور الطبيعة وسقوط الإنسانية من باب واحد يفسرهما الضعف فى العقل والضعف فى الجسم .

والتمادى فى الضلال كالانتحار يتردى معه المرء فى جهالته ويسدر فى غيه ويضرب فى غمرته ، والقساوة كلال فى البصائر وسقم فى الضمائر ومرض فى الأهواء وغلظ فى الأكباد ، فمادة الأخلاق مشتقة من لغة الصحة والسقم والحياة والموت ومنطقها لا يحتمل الجدل فى سلامته لأنه منطق المصير ومناط الكون والفساد ، فلا يقال فيها لَمَ وإنما يقال فيها كيف ، إذ لا تقاس بمنفعة ولا تنتسب إلى غاية ، فقيمتها فى ذاتها وغايتها فى تحققها على ما تقتضى قوانين الحياة .

وإنما اعتراها الشك لما خرجت عن معناها الوجودى وسيقت لها المقدمات والتُمست لأصحابها المعاذير

واتخذت لها شعاراً من (لو) فنضحت لها معاجم النفاق والرياء والاحتيال والمواربة ، فكان الحق مغالاة ممقوتة والباطل مداراة مستحبة .

وشتان بين قول زهير :

إذا ابتدرَتْ قيس بن عيلان غايةً
من المجد من يسبق إليها يسوّدِ
سبقت إليها كل طلق مُبرِّزِ
سبوق إلى الغَّايات غير مزنّد[1]
كفعل جواد يسبق الخيل عفوه الـ
سراعَ وإن يجهد ويجهدنْ يبعُد
ولو كان حمدٌ يُخلد الناس لم تمت
ولكن حمد الناس ليس بمُخلْدِ

وبين احتجاج صاحب الجاحظ وإن كان يدخل فى باب السخرية السوداء ، قال الجاحظ « قلت مرة للخزامى : قد رضيت بقول الناس عبد الله بخيل ، قال : لأنه لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال ، فسلّم لى المال وادعنى بأى اسم شئت ، قلت ولا يقال سخى إلا وهو ذو مال ، فقد جمع هذا الاسم المال والحمد وجمع هذا الاسم المال

---

(١) المزند : اللئيم .

والذم ، قال بينهما فرق ، قلت هاتِه ، قال فى قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال فى ملكه ، وفى قولهم سخى إخبار عن خروج المال من ملكه ، واسم البخل اسم فيه حزم وذمّ واسم السخاء اسم فيه تضييع وحمد ، والمال راهن نافع ومكرم لأهله معز ، والحمد ريح وسخرية واستماعه ضعف وفسولة ، وما أقل والله غناء الحمد عنه إذا جاع بطنه وعرى جلده وضاع عياله وشمت عدوه »[١] .

فقد حرف الخزامى الجود ورفعه زهير إلى عالم الخلود ولكل وجهة هوموليها .

وإذا جاء الخلق على قدر المنفعة انحلّت الحياة وعقم الضمير ونضبت ينابيع الخير فى الإنسان ، ولكن العربية وكأنها أرادت أن تسدّد طريقه صححت الأخلاق بالحق وأقامت منه مقياساً لما ينبغى وما لا ينبغى ، وقولهم حقّ لك أن تفعل كذا على معنى وجب عليك ، والحديث حق إذا كان صادقاً وباطل إذا كان كاذباً إنما يدل على الأصل الوجودى للأخلاق فى العربية ، فحقيقة الشىء كنهه وما يصير إليه ، والحق من أسمائه تعالى ، وفى التنزيل « ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق » « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض » ، والحق نقيض

---

(١) عيون الأخبار ٢ /٣٣ .

الهوى لأنه مقدس تؤول إليه ألفاظ الكمال كالصدق والعدل والمروءة والسداد وكل ما يساير قيم الحياة الإنسانية فى أعلى مراتبها ، تتضامن جميعاً لصلاح العالم ودرء الفساد عنه .

والأخلاق فى الإسلام إنما تتحامى المنفعة وتنفر من شوائبها لأنها تنتمى إلى المطلق ، زمانها مستقبل وأفقها لا نهائى ، لا يستصفيها إلا أولو العزم ممن أوتوا القدرة على مغالبة دواعى الضعف واستخراج مادة العزيمة من ذواتهم وتنزيه نفوسهم عن الجبن والخور والكذب والنفاق وكل ما يودى بحياة الإنسان .

والاختلاق ليس بينه وبين الخلق إلا التاء تحمل علامة الكذب ، يبوء به من يختلق القول ، ولكنها تنزل منزلة المعتمة التى تساير أخرى مضيئة فى طريق الصادقين لا يقترب من هذه إلا من ابتعد عن تلك .

والفضيلة والرذيلة طرفان يتحرك بينهما الإنسان فى حيز الإمكان فلا ينال الفضيلة إلا إذا طامن من الرذيلة ، وقد يألم فى سبيل ذلك ويصاب بأذى ثم لا يبالى ، لأن لذته فى الظفر بذاته فوق الألم والأذى .

ومن عجيب أمر العربية أن السعادة وهى الفصل الأخير من فصول الأخلاق لأنها الغاية التى يطمح إليها كل طامح فى الكمال يترامى أصلها اللغوى إلى السعدان

وهو بقل له ثمر مستدير مشوك الوجه إذا يبس سقط على الأرض مستلقياً ، فإذا وطئه الماشى عقر رجلَه شوكُه وهو من خير مراعيهم أيام الربيع ، وألبـان الإبل تحلو إذا رعت السعدان ، فهل السعاد الا من بابه، طريقها مـلىء بـأشواك التضحيـة والآلام ، تتـطهـر بهـا النفس من الآثام ؟

بلى ، فطريقها صراط كصـراط القيامـة فى الحديث « عليه خطاطيف وكلاليب وحسَكة لها شوكة بنجد يقال لها السعدان » .

فالخلق من عمل النفوس القوية تروّض الوحشى فيها لتستأنسه وتتم لها حقيقة الإنسان ، وهى ليست حقيقة مجردة لأن تجردها نفى وعدم وبطلان ، والعربية إنما أبقت أسماء الأشراف والأجواد والزهاد فى الأمثال التى ضربتها لهم إذ كانت هذه الأسماء أعلاماً للفضائـل ، تدل عليها دلالة الألفاظ على المعانى وتنزل من التـاريخ الأخلاقى منزلة الآباء فى الأنساب .

* * *

النفس

والنفس فى العربية إنما كانت موطناً لصالح الأعمال وخبيثها لأنها معراج الإنسان إلى السماء وقعيدته فى الأرض ، تحلق به إلى الروح الأعلى وتهبط به إلى الدرك الأسفل « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » فهى فى رحلة مطردة بين الإيجاب والنفى والوجود والعدم والنور والظلام ، ومن أجل ذلك كان بينها وبين النفس بتحريك الفاء سبب ، فالنفس صيرورة دائمة تحيا فيه الكائنات وتموت ، يتنفس الصباح إذا تبلّج ، ويتنفس النهار إذا امتد ، ويتنفس الموج إذا نضح الماء ، ويتنفس العمر إذا تراخى وتباعد .

وتتعلق الذات بكل ذلك تعلق المرء بشىء يخافه ويتشهاه ، فالنفس الذى يخرج من الأنف والفم قد لا يعود فهو جرعة الحياة ، وجرعة الماء سميت جرعة لذلك ، والأم فى قول جرير :

تعلِّل وهى ساغبة بنيها
بأنفاس من الشبم القَراح

إنما كانت تنتزع من ظلمات جوعها الخانق أنفاساً تحيي البنين ، ففى الماء نفس لأن فيه حياة ولكنه كما يتدفق بالرى يسيل بالعطش إذا نضب وبخل بالأنفاس فيكون منه الموت .

والشراب شرابان شراب ذو نفس فيه سعة ورى وما يؤديان إليه من حياة ، وشراب غير ذى نفس فيه ضيق وظمأ وما يؤديان إليه من موت :

وشـــربـــة مـــن شـــراب غيـــر ذى نـــفس
فى كـــوكـــب من نـــجـــوم القيـــظ وضّـــاح

ونفس الساعة إنما كان آخر الزمان من حيث كان يوم الهول الأكبر تصعّد الدنيا فيه آخر الأنفاس ، وقوله صلى الله عليه وسلم « بُعثت فى نفس الساعة » إنما هو نذير .

وأحسب أن الأصل فى تسمية الشيء النفيس نفيساً ذلك لأنه إلى ذهاب يلاحقه موت صاحبه المعجل ، أنشد ابن الأعرابى :

بـــأحـــسن مـــنـــه يـــوم أصبـــح غـــاديـــاً
ونـــفِّسى فـــيـــه الحِـــمـــام المـــعـــجَّـــل

وأما المنفس فى قول النمر بن تْولَب :

لا تـــجـــزعـــى إن مُـــنْـــفِـــســـاً أهـــلـــكـــتـــه
فـــإذا هـــلكتُ فـــعـــنـــد ذلك فـــاجـــزعـــى

فقد أدرج فى أكفان الموتى بعد أن أهلكه صاحبه ، فالجزع عليه جزع على فائت يذهب مثله ويجىء .

والنفس بسكون الفاء تلتهب بأقدار الحياة والموت كما يلتهب النفس بزفرات المختنوقين عندما يفلت من أيديهم ، فالولادة وهى عنوان الحياة ، نفثة من نفثات الدم تبدأ بصرخة يتلوها سكون وتنبعث فيها نفس تدفع إلى مهد غير مهدها وعالم غير عالمها ، فتستهل صارخة وفى صوتها فزع الحياة التى تخشى الموت ، وماذا عسى أن يكون معجم هذه الساعة العاصفة إلا الدم للنفس ونفست للوالدة ونفس للمولود ، والأمر فيها للنفس التى تخطف الأبصر وتقهر الليل والنهار ؟ بلى وأنها لتردد دويها الساكن وضجتها الصامتة فى شِعر أوس بن حجر يصف محاربة قومه لبنى عامر بن صعصعة فى قوله :

وإنا واخوتنا عامر
على مثل ما بيننا نأتمر
لنا صرخة ثم إسكاتةٌ
كما طرَّقت بِنفاس بكر

وهى صرخة يتبعها سكون كما يكون للنفساء البكر إذا طرقت بولدها ، والتطريق أن يعسر خروجه فتصرخ لذلك ثم تسكن حركة المولود فتسكن هى أيضاً .

ثم ما هى الحرب ؟ أليست هى أيضاً موتاً وحياة ،

موتاً للأعداء وحياة للأولياء والغلبة فيها للنفس التى تأمر فتطاع وتستصرخ فلا ترد .

وهذا قوله (على مثل ما بيننا نأتمر) ومعناه نمتثل ما تأمرنا به أنفسنا من الإيقاع بهم والفتك فيهم على ما بيننا وبينهم من قرابة كأن السلطان للنفس صارت آمرة بعد أن كانت مأمورة ، وانقلبت غالبة بعد أن كانت مغلوبة ، وهذا شأنها فى كل حين ، فالمرء لايزال يحثها على الشيء حتى إذا أقبلت عليه انطلقت ثم لا يكبح جماحها إلا الأشداء ، وتلك مأساة الذات فى صراعها مع النفس ، فالحرب بينهما سجال .

وقول امرىء القيسْ (ويعدو على المرء ما يأتمر) راية بيضاء يرفعها المقهور فى لحظة من لحظات الانهزام .

والنفس الواحدة أول كلمة فى كتاب الحياة البشرية على الأرض خطتها الأقدار يوم خلق الله آدم « هو الذى خلقكم من نفْس واحدة » وكانت واحدة من ثلاث جهات من جهة الفرد ، فآدم أول مخلوق بشرى ، ومن جهة النوع فهو أول من تحقق فيه نوع الإنسان ، ثم من جهة التفرد فى عالم ليس فيه سواه ، فكان أن خلق الله من هذه النفس زوجها حتى لا تكون واحدة ثلاث مرات أقساها استيحاش الذات وحنينها إلى من تحاوره فى كل زمان ومكان .

والإنسان إنما يصيب فى الآخر قطعة من ذاته تكمل الحوار الصامت الذى يجرى فى داخلها ، والنفس فى الكلام الذاتى هى هذا الآخر بحيث تنشق الذات إلى نفسين نفس ناطقة ونفس سامعة ، إحداهما تأمر والأخرى تنهى ، وهذا تأويل النفسين فى العربية فى مثل قول الشاعر :

فنفساى نفس قالت إتت ابن بجدل
تجد فرجاً فى غُمىٍّ تهابها
ونفس تقول اجهد نجاءك لا تكن
كخاضبة لم يغن عنها خضابها

وهذا الضرب من الكلام الذى يطلق عليه الكلام النفسى ضرورة يقتضيها خروج الذات عن عزلتها بل إن كل كلام فى حقيقته مبناه على ذلك إذ أن جوهره الإيصال ، والإيصال معناه كما يقول كارل فوسلر انفصال روحى يتلوه تكامل واتصال ، فالذى يضطلع بالحديث لا يخرج من الجهة الفلسفية عن كونه شخصية واحدة تتضاعف إلى شخصين وتنهض بدورين أو أكثر حسبما يقتضيه المقام .

ومما يجرى هذا المجرى ما يرد فى شعر الشعراء من خطاب لا مخاطب فيه ، والشاعر إنما ينزل كلامه منزلة من يكلم غيره ، وهو يخاطب نفسه فى ليل الوحشة

البهيم ، تتراءى له شبحاً تنتهى عنده آلام الجزع من أهوال الفناء والدهر الذى ينقض على ما حوله من أشياء فيستوقف صاحبه للبكاء ، وهو إنما يستوقف نفسه ، ولا فرق عند ذلك بين أن يكون واحداً أو اثنيْن أو ثلاثة فالكثرة فى العدم قلة والقلة كثرة لأنه عالم وراء الكم لا تحده لغة المفرد والمثنى والجمع .

والنفس من هذه الجهة قرين لصاحبها تعاونه وتمانعه وتستعصى عليه وتتابعه ، ولحظة المتابعة لها فى اللغة مكان ، فيقال أسمحت قرينُه وقرينته إذا ذلت نفسه وتابعته على الأمر ، لأنها خصبة فى حياة الإنسان ، وإذا تمادت فى غيها كانت جروة من جراء السباع وهى أولادها ، فجزاؤها ما قال الفرزق :

فضربْتُ جرْوَتَها وقلت لها اصبرى
وشددتُ فى ضنك المقام إزارى

ويقال للرجل إذا وطّن نفسه على أمر ضرب لذلك الأمر جرْوتَه إذا صبر له .

وقريب من هذه الصورة الحيوانية ما يتضمنه قولهم لها أيضاً روْق ، والروْق أصله القرن من كل ذى قرن ، ورمونا بأرواقهم أى رمونا بأنفسهم .

ومن الشدة فى معناها كانت نكيثة فى قول طرفَة .

وقــربــت بــالقــربــى وجــدك إنــه
مــتــى يــك عــقْــد للنــكــيــثــة أشــهــد

يقول متى ينزل بالحى أمر شديد يبلغ النكيثة وهى النفس ويجهدها فإنى أشهده ، وإنما سميت كذلك لأن تكاليف ما هى مضطردة إليه تنكث قواها والكبر بغنيها فهى منكوثة القوى بالنصب والفناء ولكنها مع ذلك تكذب على صاحبها وتعده وتمنيه :

وإنــى وإن مــنــتِــنْــىَ الكــذوبُ
يــتــلــو حــيــاتــى أجــل قــريــبُ

وإذا اقتربت ساعة الموت صاحت وأجهشت بالبكاء .

بكى جــزعــاً من أن يمــوت وأجــهشــت
إليــه الجــرِشّى وارمــعــنّ حــنــيــنُــهــا

والجرشى النفس من الجرش وهو الصوت ، والحنين والبكاء ، والترمع التحرك .

وبقيـة أسمائهـا مثل الذَّمـاء والقتال والحشـاشـة والنسيس خفقات أخيرة فى حياة صاحبها يقترب فيها من الأموات ويبتعد عن الأحيـاء ويرى فيهـا النفس بعين الغريق الذى يخونه الصديق .

وتخرج النفس فى الاسلام من هذه الآلام وتصعد على جناح الوحى إلى آفاق الرضى الإلهى والرحمة المطلقـة « يـا أيتها النفس المـطمئنة ارجعى إلى ربـك راضيـة

مرضية » ولكنها لا تبلغ هذه المنزلة العالية من الطمأنينة إلا بعد أن تجتاز كل طريق مهجور فى الأرض المجدبة تصارع فيه القوى الحيوانية الكامنة والظاهرة ويتحقق لها جوهر النفس الناطقة التى تنزع إلى عالم العقول والأخلاق .

وبين هذين المعنيين تتردد النفس عند حكماء الإسلام.، فتكون نفساً حيوانية تتعلق باللذات والشهوات ، ونفساً ناطقة متعلقها الحق ومعرفته ، وهى عندهم مبدأ الفعل فى الكائنات جميعاً ومعناها ، فالنباتية تتغذى وتنمو وتتحرك تحركات مختلفة كالتشعيب والتعريق ، والحيوانية تتحرك بإرادة وتدرك المحسوسات ، والناطقة تعقل وتدرك الكليات كما تدرك الجزئيات ، وبذلك تكون النفس حقيقة الكون المحسوس والمعقول ومعراج الإنسان إلى الكمال .

وليس هذا التصور مقصوراً على اليونان إذ إن التفكير اللغوى عند العرب ينزع إليه بما لا يدع مجالا للشك أنه أصيل عندهم ، فالنبت ينزل منزلة النشأة للأحياء جميعاً لا فرق فى ذلك بين نبات وحيوان وإنسان وفى التنزيل « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » وتقول أنبت الله البقل والصبى نباتاً ، تعطف أحدها على الآخر لأنهما أثر لفعل واحد هو النبات ويجرى مجرى اسمه ويصدق

على الشجر كما يصدق على البشر سواء بسواء .
ولم تكن النشأة وحدها علة هذه التسمية وإنما ضمت إليها الطراوة فسموا الطرى من كل شيء حين ينبت نابتاً كأنهم يرأمونه بألحاظهم وقلوبهم ويخشون عليه الهلاك ، فالنبات فى أول عهده يكلم الطبيعة بلغة الرجاء والاستسلام ، يدافع الريح بضعفه ليلتقط من نسماتها ما يحفظ عليه الحياة ، وإذا جار عليه المطر تطامن حتى ينقشع غضبه ثم يأخذ منه ما يحتاج إليه من ماء ، وجهته أبداً إلى السماء يرفع إليها يديه بالدعاء ، ومنتهى قدرته الإجابة ، وتعاليه على الأرض معناه الإنابة ، فهو كما قال زهير :

وغيث من الوسمىِّ حو تلاعه
أجابت روابيه النجاء هواطلُه

وهذه الطاعة هى ميراث النبات للإنسان كما كان التمرد على الطبيعة آية ما فيه من حيوان فجمع بين الضدين وأنف من أن يكون قرين الاثنين فلم يسعه ما وسعهما وأراد أن يكون كائناً رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء ، وعذّب نفسه بالأمل وشقى بالعقل وضاق عليه الكون وقال بلسان المعرى :

أما الجسوم فللتراب مآلها
وعييت بالأرواح أنّى تسلك

ولم يكفه أن يقال فيه « أسمع من فرس » و « أحزم من فرخ عقاب » و « أحلم من حية » و « أهدى من قطاة » لأنه عاف فعل التفضيل لما اشتم منه الاشتراك ، وآثر الافتراق ثمناً للحرية التى اختلج بها فؤاده .

وحكمة ابن سينا الرمزية إن هى إلا شوق ملتهب إلى هذه الحرية التى ينشدها العقل فى حى بن يقظان وفى الطائر الذى يفلت من حبائل الحياة الأرضية بعد كد شديد ثم يطير فى بقاع مترامية إلى أن يخلصه الموت من آخر أغلاله .

وحى بن يقظان حقيقته مأخوذة من اسمه ، وحقيقته الحياة واليقظة تعرج معهما النفس من عالم العناصر مجتازة عوالم الطبيعة حتى تبلغ عرش الواحد القديم ويتحقق لها ما تهفو إليه من خلود ، فحى شيخ قد أوغل فى السن ولكنه فى طراءة العز لم يهن منه عظْم ولا تضعضع له ركن ، وما عليه من المشيب إلا رواء من يشيب يهدى الفيلسوف فى طريق المشرق ، طريق الصور المعقولة التى لا تخالطها المادة ، ويقوده إلى ينبوع الشباب الدائم حيث الحسن حجاب الحسن والنور حجاب النور .

* * *

النسب والقرابة

- ١ -

ومن تمام القول فى الإنسان الكلام على النسب وما يتعلق به عند العرب إذ كان الغاية التى ذهب إليها العربى فى التاريخ لمعرفة ذاته ، وإحياء الجزء الماضى من حياته ، يمحو به ليل الإبهام كما تمحو آية النهار الظلام ، وقد كان يقال للرجل إذا سئل عن نسبه استنسب لنا حتى نعرفك ، كأنه من غير النسب مجهول ، والمجهول لايزال ضعيفاً ذليلاً حتى ينتسب ، فإذا انتسب اشتدّ وتمكن كالريح تشتدّ وتستاف التراب والحصى إذا هى أنسبت .

وإنما يتمكن المرء بالامتداد فى أفق الآباء والأجداد ، تهديه لحظات الوعى المتوقّد فى اللغة يقهر بها غمغمة الأوهام وأشباح المخاوف وغياهب الصمت ، الذى ليس له أمس يحده ، ولا أرض تمسكه وتشده .

والإعراب هو جماع هذه اللحظات ولبابها ، ولفظ العرب مأخوذ منه ، لا لأن الغالب عليها البيان والبلاغة

كما قيل ، بل لأن العربية هى لسانهم الذى يدل عليهم ، فهذه حقيقتهم ، وكل من عداهم عجمى عندهم سواء الفرس والترك والروم وغيرهم ، بل إنهم يطلقون الأعجمى على من لا يفصح فى كلامه وإن كان عربياً ، كما أن من تكلم من العجم بلسان العرب وحكى هيئاتهم يدخل عندهم فى عداد المستعربين .

وكل ما قيل فى بيان ما يقع عليه اسم العرب لا سبيل إلى التأدى إليه إلا من طريق هذا الوعى اللغوى الذى كانت العربية فيه آية القومية الأولى ودليلها فى التاريخ وعاصمها من الفناء قال الشاعر :

تعرب آبائى فهلّا وقاهم
من الموت رملا عالج وزرود

وقد كان أول ما خطته من ذلك ملحمة العرب العاربة ، وهم على ما ذهب إليه أكثر المؤرخين عاد وثمود وطسم وجديس ومن فى حكمهم ، وإنما عرفوا بذلك من أجل لسانهم العربى الذى استهلوا به مصيرهم ، وكان لهم بنزلة البيوت التى نحتوها فى الصخور والجبال .

ويعرب بن قحطان حملته أجنحة الأسطورة التى قد تكون أدل على الحقيقة من سواها إلى أرض بابل ، فكان على ما قيل أول من تكلم بالعربية المبينة على ملأ من الخلائق اجتمعت فى يوم حشر ، وقد بعث الله إليهم فيه

ريحاً فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا فنـادى منادٍ من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره واقتعد البيت الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء ، وكان ذلك الفضل ليعرب بن قحطان لأن لغته من وراء البقاء الأرضى الذى يغشاه الفناء .

وإسماعيل الذى قيل فيه إنه نسى لسان إبراهيم عليه السلام لما نزل مكة وكانت يومئذ بلاقع إنما ولد وولدت معه مكة يوم فتق لسانه بالعربية ، والنسيان ليس إلا من قبيـل الترقب للغـد المبين ، أمـا متى كـان ذلك وهـل المستعربة بنو قحطان أو بنو إسماعيل وعمن أخذوا فلا موضع له فيما نحن بسبيله ، إذ هى أسئلة حائـرة لا يكون لها جواب لأنها فى طى الزمـان ، وإنما السـؤال الحق هو السؤال عن المكان الذى امتد فى تهامة ونجد والحجاز ثم اليمامـة والبحرين واليمن ، وجـوابه عنـد الناطقين بلغة الضاد ممن كانت أوليتهم فى التاريخ من أوليتها ومصيرهم من مصيرها .

واقتصار القوم فى الأنســاب بعد ذلك عـلى عدنـان وقحطان دون ما فوقهما يشبه أن يكون تأصيلا للوعى وتنقيحاً لغويا للتاريخ ، إذ كانت الأسماء التى فوقهمـا مأخوذة من أهل الكتاب فلم يبقوا منها إلا ما كان من جهة العربية دون سواها واستخرجوا لبدايـة الطبقات

معنى من معانى القطع وهو الجذْم قطعاً للخوض فى الأوهام ، ثم مضوا بها نحو التجمع والكثرة والتماسك دفعاً للتفرق والقلة والتخلخل .

فأول طبقة بعد الجذم الشعب بفتح الشين وهو النسب الأبعد كعدنان ، قال الجوهرى وهو أبو القبائل الذى ينسبون إليه ويجمع على شعوب ، وسمى شعباً لأن القبائل تتشعب منه .

والطبقة الثانية القبيلة وهى ما انقسم فيه الشعب كربيعة ومضر ، وسميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها ، وربما سميت جماجم أيضاً كما يقتضيه كلام الجوهرى حيث قال جماجم العرب هى القبائل التى تجمع البطون .

والطبقة الثالثة العمارة بكسر العين وهى ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة وتجمع على عمارات وعمائر ، والرابعة البطن وهى ما انقسم فيه أنساب العمارة كبنى عبد مناف وبنى مخزوم ويجمع على بطون وأبطن ، والخامسة الفخذ وهو ما انقسم فيه أنساب البطن كبنى هاشم وبنى أمية ويجمع على أفخاذ ، والسادسة الفصيلة وهى ما انقسم فيه أنساب الفخذ كبنى العباس وبنى عبد المطلب .

وربما زيدت العشيرة قبل الفصيلة وعشيرة الرجل رهطه الأدنون ، وكأنهم رتبوا ذلك على بنية الإنسان

فجعلوا الشعب منها بمثابة أعلى الرأس ، والقبائل بمثابة قبائل الرأس وهى القطع المشعوب بعضها إلى بعض تصل بها الشئون وهى القنوات التى فى الحقف لجريان الدمع .

وذكر الجوهرى أن قبائل العرب إنما سميت بقبائل الرأس وجعلوا العمارة تلو ذلك إقامة للشعب والقبيلة مقام الأساس من البناء ، وبعد الأساس تكون العمارة وهى بمثابة العنق والصدر من الإنسان ، وجعلوا البطن تلو العمارة لأنها الموجود من البدن بعد العنق والصدر ، وجعلوا الفخذ تلو البطن لأن الفخذ من الإنسان بعد البطن وجعلوا الفصيلة تلو الفخذ لأنها النسب الأدنى الذى يفصل عنه الرجل ، بمثابة الساق والقدم إذ المراد بالفصيلة العشيرة الأدنون بدليل قوله تعالى « وفصيلته التى تؤيه » أى التى تضمه إليها ولا يضم الرجل إليه إلا أقرب عشيرته(١) .

ومما يجرى مجرى الطبقات الأرحاء وهى كما ذكر أبو عبيدة ست ، سميت أرحاء لأنها أحرزت دوراً ومياهاً لم يكن للعرب مثلها ولم تبرح من أوطانها ودارت فى دورها ، كالارحاء على أقطابها ، إلا إن ينتجع بعضها فى البرحاء

(١) انظر مقدمة سبائك الذهب .

وعام الجدب وذلك قليل منهم[1] .

والطبقات ليست من قبيل الحدود الجامدة ، فقد تتباعد الأنساب فتصير القبائل شعوباً ، والعمائر قبائل والبطون عمائر وهلم جراً ، وقد يكون أبو القبيلة الواحد أباً لعدة بطون ثم يكون له عدة أولاد فيحدث عن بعضهم قبيلة أو قبائل فينسب اليه من هو منهم ويبقى بعضهم بلا ولد أو يولد له ولم يشتهر ولده فينسب إلى القبيلة الأولى وقد يعزى الرجل إلى غير قبيلة بالحلف والموالاة فينسب إليهم فيقال فلان حليف بنى فلان أو مولاهم ، وإذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل فى قبيلة أخرى جاز أن ينسب إلى قبيلته الأولى وأن ينسب إلى القبيلة التى دخل فيها وأن ينتسب إلى القبيلتين جميعاً .

وكل ذلك قائم على العزوة ؛ فالعرب كما قيل يطلبون العز ولو كان فى شامخات الشواهق وبطون البوالق[2] فينتسبون إلى الأعز لحماية الحمية وإباءة الدنية ، وسكون النفس إلى نفيس الكثرة والعصبية ، بطريق دقيق فى النظر لا على الظن المشتهر .

وأكثر العزوة لمن ينقلب عن نسبه إلى اليمن لأجل أن الملوك كانت فى اليمن ، مثل آل النعمان بن المنذر من لخْم

---

(١) العقد الفريد ٢ /٣٨ .

(٢) الأبلق من صفات الذكور من الإبل والذكر لا يحمل ، ويضرب لطلب المحال الممتنع .

وآل سليح من قضاعة وغيرهم[1] وقد كانوا يخاطبون الملوك بالأرباب قال الشاعر :

وأسلمْن فيها ربّ كندة وابنه
وربّ معد بن خبْت وعرْعر[2]

وقضاعة بن معد بن عدنان لما خلف على أمه الجرهمية بعد مالك بن مرة بن عمرو بن زيد نسبه العرب إلى زوج أمه ، وهى عادة لهم فيمن يولد على فراش زوج أمه ، وكذلك قالوا فى عبد مناة بن كنانة بنو على وهو على مسعود الأزدى وكان حضن بنى أخيه لأمه وهم بكر وعامر ومرة ، أولاد عبد مناة بن كنانة ، فغلب اسمه عليهم لما تزوج أمهم هند ابنة بكر بن وائل وخلف عليها بعد أخيه فضم إليه بنى أخيه المذكورين مع أمهم هذه وهم صغار فرُّبوا فى حجره فنسبهم العرب إلى على والقبائل فى الغالب تسمى باسم الأب كربيعة ومضر والأوس والخزرج ونحو ذلك ، وقد تسمى باسم الأم كخنْدف ، فيقال خندفى لكل من يرجع إلى الياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ، وبنو خزيمة بن لؤى كانوا يعرفون بأمهم عائذة بنت

---

(١) نهاية الأرب ٢ / ٣٨٢ .
(٢) نهاية الأرب ٢ / ٣٨٤ .
(٣) الصاحبى لابن فارس ٥٩ .

الخمْس بن فحافة الخثعمى ، ولعل ذلك من بقايا نظام الأمومة .

وأكثر ما يكون إطلاق لفظ الأب فى الشعوب والقبائل كعاد وثمود ومدين وماشا كلهم وبذلك ورد القرآن الكريم كقوله تعالى « وإلى عاد » و « إلى ثمود » و « إلى مدين » يريد بنى عاد وبنى ثمود وبنى مدين ، بخلاف البطون والأفخاذ الصغار إذ يطلق عليها لفظ البنوة فيقال بنو فلان .

وغالب أسمائهم منقولة عما يدور فى خزانة خيالهم مما يخالطونه ويجاورونه إما من الحيوان كأسد ونمر ، وإما من النبات كنبت وحنظلة ، وإما عن الحشرات كحية وحنش ، وإما من أجزاء الأرض كفهر وصخر .

- ٢ -

والظاهر أن مذهب العرب فى هذه الأسماء كان من دواعى الطعن عليهم من قبل الشعوبية ومن لف لفهم ، بحيث كان صنيع علماء العربية وما راموه من بيان معانى تلك الأسماء من قبيل الرد عليهم ، وعلى هذا أدار ابن دريد كتابه الذى سماه الاشتقاق حيث قال فى مقدمته ، : « ولهم مذاهب فى أسماء أبنائهم وعبيدهم وأتلادهم فاستشنع قوم إما جهلا وإما تجاهلا تسميتهم كلباً وكليباً وأكلب وخنزيراً وقرداً وما أشبه ذلك مما لم

يستقص ذكره ، فطعنوا من حيث لا يجب الطعن وعابوا من حيث لا يستنبط عيب ، فشرحنا فى كتابنا هذا أسماء القبائل والعمائر وأفخاذها وبطونها وتجاوزنا ذلك إلى أسماء ساداتها وثنياتها وشعرائها وفرسانها ، وجرارى الجيوش من رؤسائهم ، ومن ارتضت بحكمه فيما شجر بينها وانقادت لأمره فى تدبير حروبها ومكايدة اعدائها ولم نتعد ذلك إلى أسماء صنوف النامى من نبات الأرض نجمها وشجرها وأعشابها ، ولا إلى الجماد من صخرها ومضرها وحزنها وسهلها لأنا إن رمنا ذلك احتجنا إلى اشتقاق الأصول التى تشتق منها وهذا ما لا نهاية له .

فاللغة كانت ملاذاً لابن دريد كما كانت ملاذاً للجاحظ فى رده على الشعوبية ببيان معانى العصا وبيان معانى تلك الأسماء ، وأحسب أن شطراً كبيراً من كتاب الحيوان الذى أطال فيه الكلام على أنواعه كانت وراء تلك الغاية .

والاشتقاق الذى يعنيه الجاحظ هو مايترامى إليه اللفظ من معان محمودة مبناها على التفاؤل والمنفعة وما يجرى مجراهما ، وأخرى مذمومة منشؤها التطير والضرر وما يتعلق بهما ، فقد نقل قول أبى اليقظان إن العرب إنما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك ، وكان الرجل إذا ولد له

ولد ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فإن سمع إنساناً يقول حجراً ورأى حجراً سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطم مالقى ، وكذلك إن سمع إنساناً يقول ذئباً ورأى ذئبا تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب ، ونَّ ن حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، وإن كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعَد الصوت والكسب وغير ذلك ، ولذلك صور عبيد الله بن زياد فى دهليزه كلباً وكبشاً وأسداً وقال كلب نابح وكبش ناطح وأسد كالح ، فتطير إلى ذلك فطارت عليه .

ولكن لو صح كما قيل أن يسمى الرجل ابنه بحجر وكلب وحمار وثور وخنزير على هذا المعنى فهلا سمى برذونا وبغلا ، وعقاباً وأشباه ذلك ، وهذه الأسماء من لغتهم ، فالتعليل بالصفات المحمودة لا يستقيم فى كل حال لأنهم إنما سموا بأسماء دون أسماء ، فهم يسمون بحبل وسند وطور ولا يسمون بأحد ولابثبير ، وهو تلقاء عيونهم متى أطلعوا رءوسهم من خيامهم ، ويسمون ببرج ولايسمون بفدك ، ويسمون بقمر وشمس ولم يسموا بأرض وسماء وهواء وماء ولايستقيم أيضاً ما قيل من أن هذه الأصول أبلغ كما أن جبلا أبلغ من حجر وطور أجمع من صخر ، إذا هم قد سموا بأسد

وليث وأسامة وضرغامة وتركوا أن يسموا بسبع وسبعة وهو **الاسم** الجامع لكل ذى ناب ومخلب[1] .

ومن أعجب ماروى فى باب التسمية ما نقله صاحب نهاية الأرب من أن أرنباً قيل إنها دخلت بين إبل الياس بن مضر وكان قد خرج منتجعاً ومعه أهله وماله فنفرت الابل فخرج أولاد الياس ، فأدركها عمرو فسماه أبوه الياس مدركة ، وخرجت ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة أمة تهرول فقال لها الياس مالك تخندفين والخندفة الهرولة ، فسميت خندف ، وخرج عامر بن الياس أخو مدركة فى طلب الأرنب فاصطادها وطبخها فقال له أبوه الياس أنت طابخة ورأى عمراً أخاهما قد انقمع فى الظلة فهو يخرج رأسه منه فقال له أبوه أنت قمَعة .

كأن هذه الأرنب تحمل سجل الأسماء على جناح العاصفة التى تثيرها بين الابل ، ولكن هذا هو شأن القوم وشأن عالمهم الملىء بالرموز والأمثال التى تستخفى فيها على صغرها الحقيقة الكبيرة ، كالذى قيل فى قصة مضر وربيعة وإياد وكان أبوهم نزار قد جمعهم لما حضرته الوفاة فقال :

---

(١)انظر الحيوان ١/١٥٨ ، ١٥٩ .

يابنى هذه القبة الحمراء ، وكانت من آدم لمضر ، والفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة ، وهذه الخادم وكانت شمطاء لاياد ، وهذه البدرة والمجلس لأنمار ، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون فأتوا الأفعى الجرهمى ومنزله بنجران .

فتشاجروا فى ميراثه فتوجهوا إليه ، فبينما هم فى سيرهم إذ رأى مضر أثر كلأ قد رعى ، فقال إن البعير الذى قد رعى هذا أعور ، وقال ربيعة إنه لأزور ، وقال إياد إنه لأبتر ، وقال أنمار إنه لشرود .

فساروا قليلا فإذا هم برجل ينشد جمله فسألهم عن البعير ، فقال مضر : أهو أعور ؟ قال نعم ، وقال ربيعة أهو أزور ؟ قال نعم ، وقال إياد : أهو أبتر ؟ قال نعم ، وقال أنمار : أهو شرود ؟ قال نعم ، هذه والله صفة بعيرى فدلونى عليه ، فقالوا والله مارأيناه ، فقال هذا والله الكذب ، كيف أصدقكم وأنتم تصفونه بصفته .

فساروا حتى قدموا نجران ، فلما نزلوا نادى صاحب البعير هؤلاء أصحاب جملى وصفوا لى صفته ، ثم قالوا لم نره .

فاختصموا إلى الأفعى فقال لهم : كيف وصفتموه وأنتم لم تروه ؟ فقال مضر : رأيته قد رعى جانبا وترك جانبا فعلمت أنه أعور ، فقال ربيعة رأيت إحدى يديه

ثابتة والثانية فاسدة فعلمت أنه أزور لأنه أفسدها بشدة وطئه ، وقال إياد عرفت أنه أبتر باجتماع بعره ولو كان ذيالا لمصع به ، وقال أنمار : عرفت أنه شرود لأنه يرعى فى المكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان أرق منه ، فقال الأفعى : ليسوا بأصحاب جملك فاطلبه .

ثم سألهم : من أنتم ؟ فأخبروه بخبرهم وبما جاءوا له فأكرمهم وقال أتحتاجون إلى وأنتم كما أرى ؟

ثم أنزلهم وذبح لهم شاة وأتاهم بخمر ، وجلس لهم الأفعى بحيث لايرى فقال ربيعة : لم أر كاليوم أطيب خمراً لولا أن حُبْلَته نبتت على قبر ، فقال إياد لم أر كاليوم رجلا أسرى لولا أنه ليس لأبيه الذى يدعى له ، فقال أنمار لم أر كاليوم كلاماً أنفع فى حاجتنا من كلامنا ، وكلامهم بأذنه .

فدعا قهرمانه فقال : ماهذه الخمر وما أمرها ؟ قال : هى من حبلة غرستها على قبر أبيك ، وقال للراعى : ماهذه الشاة فقال : هى عناق أرضعتها بلبن كلبة ، وكانت أمها ماتت ، ثم أتى أمه فقال : اصدقينى من أبى ؟ فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال ، وكان لايولد له ، فخفت أن يموت وليس له ولد فأمكنت من نفسى ابن عم له كان نازلا عليه فولدتك .

فرجع إليهم وقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال

نزار فهو لمضر ، فذهب بالابل الحمر والدنانير فسميت مضر الحمراء ، وأما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شيء أسود ، فصار لربيعة الخيل الدهم وماشاكلها ، فقيل ربيعة الفرس ، وأما الخادم الشمطاء فلصاحبها الخيل البلق والماشية فسميت إياد الشمطاء ، وقضى لأنمار بالدراهم والأرض فصدروا من عنده على ذلك .

فقال الأفعى : إن العصا من العصية وإن خُشَيْنا من أخشن فأرسلها مثلا [1] .

وقد يقال ما علاقة هذه القصة بالأنساب والقرابات ؟ والجواب عن ذلك أن القصة كالمثل الذى سيقت من أجله فى كتب الأدب والأمثال تحمل فى جرثومتها رحلة الانسان العربى إلى أمسه الذى تأدى إليه بعد أن خاض عالم الظلام وكانت وفاة نزار إيذاناً بانطلاق الأبناء إلى مستقبل مبهم تعوى فيه ذئاب المطامع ، وقد تركهم أبوهم عند حدود الكلمة المقتضبة التى أشكل عليهم فيها أمر الميراث ، والميراث كالنسب كلاهما ينبع من الجوع ويجتهد معه الانسان أن يسد شطرى رمقه الذاهب : الأول بالدم المؤثل والثانى بالمال الموروث ، إلا أن هذا

---

(١) نهاية الارب .

الاشكال لم يكن ليفضى بهم إلى التحطم الذى يقتضيه الشجار إذ كان لهم فى سعة الوصية عافية من الدمار ، فخرجوا من ضيق الخلاف إلى حيث أوصاهم أبوهم أن يذهبوا ، وكان ذهابهم فى الأرض إلى موضع العبرة عند الأفعى الجرهمى فى نجران ، ومروا وهم فى الطريق بأول علامة من علامات هذه العبرة وكانت لهم بمثابة الاختبار فى الأرض التى نبتوا منها ويؤلون إليها كما يؤلون إلى النسب سواء بسواء .

والنسب أيضاً أمر خفى كالبعير الذى استدلوا على صفاته بآثاره ، وكان ذلك درساً للأفعى الجرهمى الذى عرف من كلامهم ، وهو الحكم بينهم ، ما كان قد خفى عليه من أمر خمره وشاته وأبيه بحيث تعلم منهم وجه الاستدلال فى القضية التى جاءوا إليه من أجلها ، وهذا معنى قول أنمار لم أر كاليوم أنفع فى حاجتنا من كلامنا ! وقضى لهم بناء على الشبه بين الأشياء وإظهار ما فيها من خفاء .

وقد استقامت الأسماء بالميراث كما استقامت الأنساب بعد ذلك بالأسماء ، تقيم لها البينات وترسم لها الحدود ، وبيناتها فى الطبيعة التى لاينفصل عنها الكيان التاريخى للعنصر ، والطبيعة العربية من أبنائها الكلأ والبعير والقبة الحمراء والفرس الأدهم والخباء الأسود

يتناهى إليها وعى الأسماء كما يتناهى وعى البشر إلى دماء الآباء ، فيجىء الاسم مأخوذاً من أسماء النبات كثمامة واحدة الثمام وهى شجر ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص ، وطلحة واحدة الطلح وهى شجر عظام من العضاء ، وحمزة وهى بقلة ، عن أنس بن مالك أنه قال : كنانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببقلة كنت أجتنيها ، قال ابن قتيبة وكان يكنى أبا حمزة « وقد ذكرت هذا فى كتابى » غريب الحديث بأكثر من هذا البيان[1] .

ويجىء مأخوذاً من أسماء الطير كهوذة وهى القطاة وعكرمة وهى الحمامة ، وحيْدرة وهو الأسد ، ومنه قول على عليه السلام :

أنا الذى سمتنِ أمّى حيدْرة

ومن أسماء الهوام كحَنش ، والجن كبني حُنّ من بنى ليث ابن سود ، وحن قبيل من الجن ، وفى بنى حن قال النابغة :

لقد قلت للنعمان يوم لقيتُه
يريد بنى حن ببرقُة صادر

(١) انظر ابن قتيبة أدب الكاتب ٥٤ ـ ٦٧ .

تــجــنــب بــنــى حــن فــإن لقــاءهــم
كــريــه وإن لم الق إلا بــصــابــر[١]

ومما اشتق من اسم الكلب كليب بن ربيعة ، وهو كليب وائل ، ويقال إنه قيل فى رجلين من بنى ربيعة ما لم يقل فى أحد من العرب حتى ضرب بهما المثل ، وهو قولهم أعز من كليب وائل والآخر لا حر بوادى عوف .

قالوا وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم توقد ناراً ولم تحوض حوضاً وكان يحمى الكلأ ، ولا يتكلم عنده إلا خفضاً ، ويجير الصيد ويقول صيد كذا وكذا فى جوارى لايباح ، وكان له جرو قد كتعه فربما قذف به فى الروضة تعجبه فيحميها إلى منتهى عوائه ويلقيه بحريم الحوض فلا يرده بعير حتى تصدر إبله[٢] .

ولامعنى لهذه الأسماء إلا أن تكون جزءا من الطبيعة التى استوعبها العربى فى ذاته قطعة من تاريخه الانسانى .

وقد كان الرجل يخرج وامرأته تمخض يريد أن يرى شيئا يسمى به ابنه كالذى ذكره ابن دريد عن وائل بن قاسط أنه خرج وامرأته فى المخاض ، فإذا هو ببكر قد

(١) الاشتقاق لابن دريد ٥
(٢) الحيوان ١/١٥٦

عرض له فرجع وقد ولدت غلاماً فسماه بكراً ، ثم خرج خرجة أخرى وهى تمخض فرأى عنزا فسماه عنزا ، ثم خرج خرجة أخرى فإذا هو بشخيص قد ارتفع له ولم يتبينه نظراً فسماه الشخيص .. ثم خرج خرجة أخرى وهى تمخض فغلبه أن يرى شيئا فسماه تغلب(١) ، كأن ساعة الولادة من ساعات الفزع الخاسمة فى التاريخ توقظ فيه الوعى بالأشياء والكائنات ، وعلى هذا ينبغى أن يحمل ماذكره الجاحظ مما قدمنا وتأوله كما تأوله غيره بالتفاؤل والتطير أو ردّه إلى شىء من طبائع الحيوان كالنباهة للكلب ، وصفات الأشياء كالشدة للحجر .

والاسم حينئذ لاينفصل عن مسماه إذ هو من قبيل الكلمة السحرية التى تحمل قوتها فى ذاتها وتثير بحروفها من الخوف مايثيره مدلولها سواء بسواء ، وحكى إن عمر رضى الله عنه خرج إلى حرة راقم فلقى رجلا من جهينة فقال له : ما اسمك ؟ قال : شهاب قال ابن من ؟ قال ابن جمرة قال وممن أنت ؟ قال من الحرقة ، قال ثم ممن ؟ قال من بنى ضرام ، قال وأين منزلك ؟ قال : بحرة ليلى ، قال واين تريد ، قال لظى وهو موضع فقال عمر : أدرك أهلك فما أراك تدركهم إلا وقد احترقوا .

---

(١) الاشتقاق ٥

والخبر وإن كان قد سيق للدلالة على التطير إذ كان ختامه إن الرجل أدركهم وقد أحاطت بهم النار فإن فيه بيانا لما ذكرنا حيث تشتعل النار فى سائر ما يضمه من أسمـاء هى حزء من الطبيعـة التى صارت من معـالم الانسان .

❊ ❊ ❊

الفصل الثانى

السماء والكوكب والنجوم والسحاب

- ١ -

وللعرب فى باب الفلك والأنـواء ومايتصـل بهما من البروج والمنازل والكواكب والنجوم المعانى المستفيضة التى استخـرجوهـا من المشاهـدة والتأمـل فى الكـون ومـظاهره ، فكـان لهم من ذلك مايعـرف عنـد علمـاء الانثروبولوجيا الثقافية بالثقافة العالية التى يتجاوز فيها أصحابها الحاجات الأرضيـة العاجلة إلى مـايقع وراء المحسوس ، يحدوهم إلى ذلك الشوق إلى الآفاق النائية التى تتألق بالضوء الأبدى وتتوارى فيها ظلمات الخوف من الفناء .

واسم السماء فيه من ذلك أشياء ، فالعلو الذى ينبض به علو فى الآماد البعيدة تنطلق فيها الذات من مكانهـا الضيق إلى عـالمها الأكبـر دون أن تغرق فى متـاهـات اللانهائية ، فمعناه من معنى السقف الذى يقع لما علا المرء فأظله ، كأن السماء فيه على علوهـا تحد الفـراغ الكونى الرهيب وتحمله على التطامن كما تحمل الامتداد

على التناهى ، وكل ماورد فى اللغة من معانى القبة الزرقاء مبناه على ذلك ومرده إليه .

وكما فزع العربى من الفراغ فزع من الضيق ، فدفع الأول بآفاق السماء وهى ما انتهى إليه البصر منها مع وجه الأرض ، ودفع الآخر بالسُّكاك الذى يطلق أيضا على ما بين السماء والأرض .

وللسكاك من باب السلب على ما قال ابن جنى ، فيما نقله ابن سيده ، فتصريف س ك ك فى كلام العرب إنما هو للضيق ، من ذلك قولهم بئرسك أى ضيقة وعليه رواية من روى :

ومسَكّ سابغة هتكتُ فروجها

يريد ضيق حلق الدروع ، وكذلك قوله :

وتلك التى تستكّ منها المسامعُ

أى تضيق فلا تسمع شيئا ، فأما السكاك فبضد هذا المعنى ، وذلك أن ما بين السماء والأرض أوسع شيء ، فكأنه سلب الضيق الذى يكون فيما يجاوره من الأجسام الكثيفة .

وإضافة ما أضيف ألى السماء هو أيضاً من قبيل اللامتناهى والامساك بأقطار السماء أن تزول ، فكان لها كبد هو وسطها ، وأعناق تطلق على نواحيها وأسباب على

أعاليها ، قال الشاعر وكأنه يحتضن المستحيل من أعلاه ومن أسفله :

لئن كنت فى جب ثمانين قامة
ورقِّيت أسبابَ السماء بسلِّم

على أن التناهى إنما يزول دواعيه من خشية المجهول والخوف منه ، فإذا ذهب الخوف تفتحت أبواب السماء وكانت للصديقين والشهداء غرفة وعلياء ، تودع الأرواح عندها أمسها الذاهب فى خضم الفناء لترقى إلى غدها المرتقب فى عالم الخلود والبقاء .

ومما نطقت به العرب من أسماء السماء الجرباء ، سميت به على ماذكر اللغويون من أجل تشبيهها بما يثور فى جلد الجرباء ، قال الشاعر :

أرته من الجرباء فى كل موطن
طباباً فمثواه النهارَ المراكدُ

يصف حمار وحش ألجأته القُناص إلى أن يدخل فى منهبط من الأرض مستطيل فهو لا يرى من السماء إلا رقعة مستطيلة على حسب الطرة المحزوزة على العراق من القربة وهى التى يقال لها الطبَّة .

ولكن لا ينبغى أن يحمل الشبه على مجرد التماثل ، بل الوجه فيه أن يساق فى طريق التضاد ويجرى عليه ، بحيث لايحسن ثوران الكواكب فى السماء إلا بمقدار

مايقبح ثوران البثر فى جلد الجرباء ويكون هذا الاسم بمنزلة قولهم للجارية المليحة جرباء ، لأن النساء ينقرن عنها لتقبيحها بمحاسنها محاسنهن على ما قيل فى بنت لعلقمة بن علَّفة المرىُ كانت تدعى الجربـاء وكانت من أحسن النساء !

وحسن السماء على معنى أنها جرباء إنما يروع من أجل هذه الكواكب الثائـرة فيها لأنهـا من تمام حسن الحياة الكونية وأسرارها ، وهى للحمار الوحشى منتهى آفاقه المضيئة يتطلع إليهـا وقد ضيقت عليـه القُنّاص الخناق وصار بين سجن مـظلم أطبق عليه ومستقبـل امتنع عليه ، بحيث لم يعد يرى منها إلا طباباً ولم يعد يعرف من الأرض إلا شعاباً .

والفتنة بالنجوم تحوم أيضاً فى قولهم لها الرقيع لأنها مرقوعة بها ، والرقيع اسم علم لها وجمعه أرقعة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » على التذكير ذهب إلى السقف .

كما تتبرج السماء فى الرقيع تتوارى فى قولهم لها برقع وقدْ أحدقت به الملائـك وعجت بسكون البحـر المخيف الذى أسلمته الرياح فلم يتموج وذلك فى قول أمية بن أبى

الصلت :

وكــأن بــرْقــع والمــلائـك حــولهــا
سـدِر تــواكــله القــوائـمُ أجــردُ

ولا منافاة بين كونها جرباء ووصفها كالبحر بالجرد والجـرد من الملاسـة ، فكلتـاهمـا لحـظة من لحـظات السماء ، ينفرج فى الأولى دجاها عن الكواكب الثائرة كما قـدمنا وتنقبض الأخـرى انقباض الوحشـة على نحـو ماوصفها ذو الرمة فى قوله :

ودويــة مــثــل السمــاء اعـتسـفـتُـهــا
وقــد صـبـغ الليـلُ الحصى بـســواد

وما عسى أن تكون المـلاسة سـوى الظلام والفراغ الذى تغيب فيه الأوهام ؟ .

ولكن كما يقال لها ذلك يقال لها فى ضده الخضراء ، والخضـراء اسم من أسمـاء الأمــل والرخـاء ، وهــو كتسميتهم إياها كُحَلة فى الخبر الذى ساقه الفارسى فيما نقله ابن سيده قال : تنسك قيس بن نشْبة فى الجاهلية وكان منجما متفلسفاً واعداً بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث النبى عليه السلام أتاه فقال : يامحمد مـا كحلة ؟ ؛ فقال السمــاء . قال ومـامحلة ؟ فقـال : الأرض ، فآمن به ، وقال لايعرف هذا إلا نبى ، فكان قوم قيس إذا وردوا على النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم

كيف حبركم ؟

كأن معرفة اسمى الأرض والسماء من قبيل المعرفة الكونية التى يستأثر بها المتألهون والأنبياء .

واللغويون لم ينصوا على معنى كحلة وإن كان فى الخبر يقابل معنى محلة ، إلا أن مادة كحلة اللغوية مادة جامعة لمعان شتى من معانى المصير الانسانى ، فالكلحة خرزة سوداء تجعل على الصبيان وهى خرزة العين والنفس فيها لونان بياض وسواد كالرُّب والسمن إذا اختلطا ، وقيل هى خرزة تستعطف بها الرجال ، أو هى خرزة تُؤَخِّذ بها النساء الرجال .

ثم إن الكحل كما يكون من معانيه اخضرار الأرض بالنبت يكون أيضاً لشدة المحل ، يقال أصابتهم كحل ومحل ، وكحل السنة الشديدة ، ويقال اكتحل الرجل إذا وقع بشدة بعد رخاء .

فكأن السماء إنما سميت كحلة لأن فيها المعنيين جميعا ، أو لأن احدهما وهو فى الأرضَ لايعرف إلا فيها ولا ينبع إلا منها .

والسموات عند العرب يقال لها الأفلاك من هذه الجهة التى تتضمن مصير البشر على الأرض ، والعرب فى ذلك كالكلدانيين وغيرهم ممن ذهبوا إلى تأثير العالم العلوى فى العالم السفلى .

والفلك هو مدار النجوم الذى يضمها قال تعالى بعد ذكر النجوم « كل فى فلك يسبحون »[١] وسمى فلكا لاستدارته ومنه قيل فلكة المغزل لاستدارتها ، والفلك دوّار يدور بدوره كل ما فيه .

وأما شكل الفلك وهيئته فقد اختلف علماء الهيئة فى ذلك ، فذكر الأكثرون منهم ، وهو لايخرج عما كان يراه قدماء العرب ، أن الأفلاك كروية لامسطحة لأن أسرع الأشياء حركة السموات وأسرع الأشكال حركة الكرة لأنها لاتثبت على مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أكره[٢] فقد ذكر الجمهور من علماء الهيئة أن الفلك عبارة عن تسع أكر متسقة ملتفة بعضها فوق بعض ، بحيث يماس محدب كل كرة سفلى مقعر كرة أخرى عليا إذ لاخلاء بينهما عندهم .

وأقرب هذه الأكر إلى الأرض كرة القمر ثم كرة عطارد ثم كرة الزهُرة ثم كرة الشمس ثم كرة المريخ ثم كرة المشترى ثم كرة زُحَل ثم كرة الكواكب الثابتة ثم كرة الفلك الأطلس ، وسمى بالأطلس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفلك المحيط ويسمى فلك الكل وفلك الأفلاك والفلك الأعلى والفلك الأعظم .

---

(١) الانبياء اية ٣٣

(٢) الأكرة لغية فى الكرة

والمتفلسفون من الاسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالاقتصار على ذكر سبع سموات زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعة هو الكرسى والفلك التاسع هو العرش .

وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة إلى أن فوق الكرة التاسعة كرة عاشرة هى المحركة لسائر الأكر ، وذهب آخرون إلى أن وراء نهاية الأجرام السماوية خلاء لا نهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة إلى وراءها عالم الصورة ثم عالم النفس ثم عالم السياسة ثم عالم العلة الأولى ويعنون به البارى تعالى عن الجهة ، والصابئون يسمون هذه العوالم أفلاكا[1] .

ودورة الفلك هى التى أرقت الانسان منذ القدم لأنه حمل عليها كل ماينوء به من الآم الحياة وأثقال المصير ، وقد راع الشعراء منه ذلك لما عجزوا عن إدراك حقيقته ، فكان سبيلهم إليه هو السؤال الذى لا جواب عليه كسؤال أبى العلاء لأنه يدور بدورة الفلك التى لاتنتهى .

ياليت شعرى وهل ليت بنافعة
ماذا وراءك أو ما أنت يافلكُ

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ٢/١٥٤ ، ١٥٥ .

كم خـاض فى إثـرك الأقـوام واختلفـوا
قـدْمـاً فمـا أوضحـوا حقـاً ولا تـركـوا!

شـمس تغـيبُ ويـقفـوا إثـرهـا قـمـر
ونـور صـبـح يـوافى بـعـده حـلك

طحنتَ طحـن الرحى مـن قبلنـا أممـاً
شـتّـى ولم يـدر خـلْق أيـةَ سـلكـوا

وقـال إنـك طبـع خـامسُ نضر
عمـرى لقـد زعمـوا بـطلاً وقـد **أفكـوا**

رامـوا سـرائـر للرحـمـن حـجبـهـا
مـا نـلهـن نـبـىٌّ لا ولا مـلك

ومثله سؤال ابن سينا[1] :

بـربـك أيـهـا الفـلك المـدار
أقـصـد ذا المـسـيـر أم اضـطرار

مـدارك قـل لنـا مـن أى شيء
فـفـى أفـهـامـنـا مـنـك انـبـهـار

وعـنـدك تُـرفـع الأرواح أم هـل
مـع الأجـسـاد يـدركـهـا انـبـهـار

وفـيـك الشـمس رافـعـة شـعـاعـاً
بـأجـنـحـة قـوادمـهـا قـصـار

(١) وبعض الناس ينسب هذه القصيدة لابن شبل البغدادى .

قطوف ذى النجوم أم اللآلي

هلال أم يد فيها سوار

وشهب ذى المجرة أم ذُبال

عليه المرْخ يقْدح والعفار[1]

وترصيع نجومك أم حباب

تؤلف بينها اللجج الغزار

تمد رقومها ليلاً وتطوى

نهاراً مثل ما طوى الازار

فكم بصقالها صدىء البرايا

وما يصدا لها أبداً غرار

وتبدو ثم تخنس راجعات

وتكنس مثل ما كنس الصّوار[2]

فبينا الشرق يقدمها صعوداً

تلقاها من الغرب انحدار

هى العشواء، ماخبطت هشيم

هى العجماء، ماجرحت جُبار[3]

وحسب الشاعر أن يعدد ما هنالك من أسماء أو أن يصرخ كالبحترى صرخة الهلع من دورة الفلك فى

---

(١) المرخ شجر سريع الورى كثيره ، والعفار شجر يتخذ منه الزناد .

(٢) الصوار القطيع من البقر

(٣) الجبار بضم الجيم الرعد .

الفضاء ويستوقفه لأن فى سيره برهان الفناء :

أنــاة أيــهــا الفــلك المــدار
أنــهْــب مــاتــصــرف أم خــيــار
ســتــبــلى مــثــل مــا نــبــلى وتــفــنــى
كــمــا نــفــنــى ويــؤخــذ مــنــك ثار

والاشارة فى الأبيات السابقة إلى ما يعرف عند العرب بـالدرارى وهى الكواكب السيـارة التى منها الشمس والقمر ، ثم زحل والمشترى والمريخ والزُّهَرة وعطارد وهى التى يقال لها الخنَّس لاستقامتها ورجوعهأ والكنس لانها تستتر تحْت ضوء الشمس كما تكنس الظباء .
أما الشمس فمن أسمائها ذُكاء من ذكوّ النار وهو تلهبها ومنه :

ألقــت ذكــاء يــمــيــنــهــا فى كــافــر

والكافر الليل لأنه يوارى كل شيء ، وإذا ألقت إليه يمينها فقد بدأت فى المغيب .
ويقال لها إلاهة والالهة مثل فعالة ، قال الفارسى فيما نقله ابن سيده[1] : سموها الاهة على نحو تعظيمهم لها وعبـادتهم إياهـا ، وعلى ذلك نهـاهم الله عز وجـل عن عبادتها وأمرهم بالتوجه فى العبـادة إليه دون مـاخلقه

(١) المخصص ٩/ ١٩ .

وأوجده بعد أن لم يكن فقال (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن)[1] .

وقال ويدلك على ماذكرنا من مذهب العرب فى تسميتهم للشمس إلاهة ما حكاه أحمد بن يحيى من أنهم يسمونها إلاهة غير مصروف ، فقوّى ذلك أنه منقول إذ كان مخصوصاً ، وأكثر الأسماء المختصة الأعلام منقولة نحو زيد وأسد ومايكثر تعداده من ذلك ، فكذلك إلاهة تكون منقولة من الإلاهة التى هى العبادة لما ذكرنا وأنشد البيت :

وأعجلنا إلاهة أن تؤوبا

غير مصروف[2] بلا ألف ولام .

وقد جاء على هذا الحد لقيته النّدى وندى وفَيْنة والفِيْنة بعد الفينة ، وفى التنزيل (ولا يغوث ويعوق ونسراً)[3] وأنشد :

أما ودماء لاتزال كأنها: على قُنّة العزّى وبالنسر عَنْدْما

فهذا مثل ما ذكرنا من إلاهة والالهة فى دخول لام المعرفة مرة وسقوطها أخرى .

---

(١) فصلت آية : ٣٧

(٢) المخصص غيره والصواب ما أثبتناه

(٣) نوح : ٢٣

وعبادة الشمس قديمة فى شبة الجزيرة فهى إحدى آلهة ثلاث فى أديان العرب الجنوبيين تذكر مع القمر والزهرة[1] .

ويقال لها أيضا الجونة لا لأنها تسود حين تغيب كما قيل ، بل لأن البصر يحار فيها لشدة ضوئها ، فكأنها تجمع بين البياض والسواد وهذا شأن الجون ، يدل على ذلك ماورد من أن أنيْسًا الجرمى عرض على الحجاج درع حديد وكانت صَافية ، فجعل لايرى صفاءها فقال أنيس إن الشمس جونة أى شديدة الضوء فقد غلب ضوؤها بياض الدرع .

وتسمى أيضاً الجارية لأنها تجرى من المشرق إلى المغرب ، وفى التنزيل (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)[2] .

والغزالة وذلك عند طلوعها بحيث يقال طلعت الغزالة ولا يقال غابت .

والسراج والبيضاء ثم مهاة قال الشاعر :

ثم يجلو الظلام ربٌّ رحيم
بمهاة شعاعها منشور

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/ ١٢٠
(٢) يس آية : ٣٨

ويقال لها جِنَاذ من الحنْذ وهو شدة الحر وإحراقه ، وإذا لم تكن حسنة متجلية قيل لها مريضة .

فهذا بعض تاريخها عند العرب فى الأسماء .

أما أثرها فيظهر فى قولهم لضوئها الشعاع ، تراه كأنه الحبال مقبلة عليك إذا نظرت لها أو الرماح ممتدة بعيد الطلوع ، والفعل والاسم من جنس واحد فيقال أشعت إذا نشرت شعاعها ، قال الشاعر :

إذا سفرت تلألأ وجنتاها
كإشعاع الغزالة فى الضحّاء

ولعابها الذى تراه فى شدة الحر يبرق مثل نسج العنكبوت أو السراب فيحدر من السماء ، وإنما يرى ذلك من شدة الحر وسكون الريح .

وذاب للشمس لعابٌ فنزل
وقام ميزان النهار فاعتدل

وهو مخاط الشيطان وريقه .

وقالوا فى غروبها وكسوفها أكثر مما قالوا فى طلوعها ، من ذلك كمِه النهار إذا اعترضت فى شمسه غُبْرة ، ودنّقت الشمس إذا دنت للغروب كأنه من الدانق ، شبهت به لاستدارة جرْمها وصغرها عند الغروب ، ومثل ضيفّت وتضيفّت ، وهو من تضايف الشىء ، أى تدانيه

وتقابل أقطاره ، قال :

يتبعن عَوْدا يشتكى الأظلّا[١]
إذا تضايقن عليه انسلّا

يعنى إذا صرن قريباً منه فينسلّ لخوفه ، ومنه الحديث (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إذا تضيفت الشمس للغروب) .

ومثله ضرعت من الضرَع وهو ولد البقرة الصغير الضعيف ، وزبّت وأزبت كذلك ، من الزبب وهو كثرة الشعر فى الذراعين والساقين لأن ما داناها من الأرض غطاها كما يغطى الشعر العضو .

ويقال أتيته والشمس دنَف أى قاربت أن تغيب ، وضجّعت على معنى زالت وغيبوبتها تسمى عرجا .

كأن العرب وقعت من الغروب وما يجرى مجراه على معان من الشمس لا تنفد من انقضاء الزمان الذى يشيب معه الولدان ويفنى الأحياء فهى كما قال أبو الطيب :

تسود الشمسُ منا بيض أوجهنا
ولا تسوّد بيض العُذْر واللّمم[٢]

---

(١) الأظل : منسم البعير ، والعود : الجمل المن .

(٢) العذر جمع وهى شعرات من القفا إلى وسط العنق .

وقال ابن سناء الملك ولم يكذب :

لا كانت الشمسُ فكم أصدأتْ
صفحة خدٍّ كالحسام الصقيل
وكم وكم صدت بوادى الكرى
طيف خيال جاءنى عن خليل
وأعدمتنى من نجوم مبصرٌ
ومنه روضاً بين ظل ظليل
تكذب فى الوعد وبرهانُه
أن سراب القفر منها سليل
وهى إذا أبصرها مبصرٌ
حديدُ طرف راح عنها كليل
ياعلَّةَ المهموم يا جلدة الـ
محموم يازفْرة صبٍّ نحيل
يا قرحة المشرق عند الضحى
وسلْحة المغرب عند الأصيل
أنتِ عجوزٌ لِم تبرَّجْتِ لى
وقد بدا منك لعابٌ يسيل

وإذا قيل إن الشمس مدحت بضد ذلك قلنا إنهم إنما ذكروها بما يدفعون عنهم ما فيها من مكروه ، ألا ترى إلى قول الطائى :

فــإنــى رأيت الشــمس زيــدت مــحــبــةً
إلى النـــاس إذ ليــست عــليهــم بسرْ مَــد
وقول على بن الجهم :
والشـــمس لولا انـــهـــا مـــحـــجـــوبـــة
عـــن نـــاظريـــك لمـــا أضـــاء الفـــرقـــد
فـاحتجاب الشمس من حسنـاتهـا ، وتحـولهـا من مأساتها ومأساة الزمان فى تقلبـه ببنى الغبراء ، ولكن هذه هى إحدى آياتها التى يحسدها عليها الإنسان :
فـــأفنت قـــرونـــاً وهـــى فى ذاك لم تـــزل
تـــمـــوت وتـــحـــيـــا كـــل يـــوم وتـــنشر

- ٣ -

وأما القمر فأسماؤه كلها تتعلق بالضوء الذى تغشاه ظلمة ، فاشتقاقه من القمرة وهو بياض فيه كدرة ، وهذا أول تاريخه الذى يـدل على آخــره ، إذ جعلوا حالاتـه خمساً : الأولى الهلالية وهى خروجـه من تحت شعاع الشمس وظهوره فى الغرب فى أول الشهر ، والثانية أن يفضل فيه النور على الظلمة وذلك فى الليلة السابعة من الشهر ، والثالثة الاستقبال وهو كونه فى البرج السابع من بروج الشمس ويسمى الامتلاء لامتلاء القمر فيـه

نوراً وذلك فى الليلة الرابعة عشــرة من الشـهر ويسمى القمر فيه بدراً لكماله ويسمى بذلك لامتلائه وقيل لمبادرته الشمس بالطلوع ، وتسمى الليلة التى قبلها وهى الثالثة عشرة ليلة السواء لاستواء القمر فيها أو لاستواء ليلها ونهارها فى الضياء وهى ليلة التمام ، والرابعة أن تفضل الظلمة فيه على النور وذلك فى الليلة الثانية والعشرين من الشـهر ، والخامسة المحاقية وهى مدة استتناره بشعاع الشمس ويسمى ذلك أيضا سراراً وذلك فى الليلة التاسعة والعشرين .

وأسماء لياليه محدودة بالظلام ويقال له ابن جمير ، والجمير الليل المظلم لأنه ولد فيه ، قال عمرو بن أحمر الباهلى :

نـــهــارهُــم ظمــآن ضــاحٍ وليــلُهــم
وإن كــان بــدراً ظلمــةُ ابــن جَـمــير

وظلمة ابن جمير أول ليلة من ليالى الشهر وقيل أولاها وأخراها .

ولياليه ثلاث غُرَر وثلاث شُهْب ، لأن ضوء القمر فيها غير باهر للظلمة ففيه منها شوب ، وثلاث زهْر والزهرة البياض وقالوا بهْر لأن القمر يبهر فيهن ظلمة الليـل ، وثلاث بيض لبياضهن من أولهن إلى آخـرهن ، وثلاث دُرَع وهى التى يـطلع القمر فيهـا عند وجـه الصبـح

وسائرها مظلم ، وثلاث ظُلَم واحدتها ظلماء ويقال لهن خُنّس ، وثلاث حنادس ، وثلاث مِحاق وهن ليلة ثمان وعشرين الدعجاء وليلة تسع وعشرين الدهماء وليلة ثلاثين الليلاء ، ويوم المحاق آخر الشهر لأن الشمس تمحق الهلال ولا تبينه ، وامتحاق القمر احتراقه وهذه آخرته كما كان جمير أوله ، وما بينهما بحر من الظلام يسبح فى لياليه ، ويصح معه قول أبى هلال العسكرى :

فى هلالٍ كأنه حبة الرمْـ
ـلِ أصابت على اليفاع مقيلا
بات فى معصم الظلام سواراً
وعلى مفرق الدجى إكليلا

وقول ابن الرومى وإن كان قد عول فيه على الاحتجاج لأثر الهجاء فى الشرفاء :

رُبَّ عرضٍ عن قبيح
دنّسته معرّضات الهجاء
لو أراد الأريب أن يهجو البد
ر رماه بالخطّة الشنعاء
قال يا بدر أنت تغدر بالسا
رى وتُزرى بزورة الحسناء
كلف فى شحوب وجهك يحكى
نكتا فوق وجنة برْصاء

يـعـتـريك المِـحـاقُ ثـم يـحـلَيـ
ـك شـبـيـه القـلامـة الحـجـنـاء
ويـليـك النـقـصـان فى آخـر الشـهـ
ـر فـيـمـحـوك مـن أديـم السـمـاء
فـإذا البـدر نـيـل بـالهجـو هـل يـأ
مـن ذو الفـضـل ألسـن الشـعـراء
لا لأجـل المـديـح بـل خيفـة الهـجـ
ـو أخـذنـا جـوائـزَ الخـلفـاء

وهذا من أعدل ما قيل فى المديح من معنى ما كان ابن الرومى ليقع عليه لولا أنه تهيأله فى البدر .

وقد حملت العرب أحلامها الصغيرة إلى القمر فناء بها لضيق ذرعه وقصر أجله فكان من ذلك ما أثبته ابن سيده[1] فيما نقله عن ابن السكيت من سؤال القمر وجوابه : قيل له : ما أنت ابن ليلة ؟ فقال رضاع سُخيْلة حل أهلها برُميلة .

والمعنى أنه يبقى بقدر ما ينزل قوم فتضع شاتهم سخلة ثم ترضعها ويرتحلون ، فبقاؤه فى الأفق كمقدار رضاع السخلة الصغيرة وما اقصره من بقاء .

قيل ما أنت لليلتين ؟ قال حديث أمتين بكذب وميْن .

---

(١) يقال قمر أضحيان بالجر وذلك على الإضافة وإقامة الصفة مقام الموصوف .

يـريد أن بقـاءه قليل كمقـدار ما تلقى الأمـة الأمة فتحدثها فتكذب لها حديثاً ثم يفترقان .

قيـل ما أنت لثـلاث ؟ قال حـديث فتيات غـير جـد مؤتلفات .

يريد أنه يبقى بقاء فتيات أبكار اجتمعن على غير ميعاد فتحدثن ساعة ثم انصرفن غير مؤتلفات .

قيل ما انت ابن أربع ؟ قال عتمة أم رُبَع غير جائع ولا مرضَع .

أم ربع الناقة وهو تأخير حلبها ، يريد أن بقاءه مقدار ما تحلب ناقـة لها ولد ولدتـه فى أول الربيع وهـو أول النتاج ، ويقال عتمت إبله إذا تأخرت ومن هذا سميت العتمة لأنه آخر الوقت .

قيل ما أنت ابن خمس ؟ قال عشاء خَلِفات قُعْس .
والخلفات التى استبان حملهـا ، والقعساء الداخلة الظهر الخارجة البطن .

قيل ما انت ابن ست ؟ قال سِرْوَبِت ، أى سر فىّ وبت فإننى أبقى بقدر ما يبيت إنسان ويسير .

قيل ما أنت ابن سبع ؟ قال دُلْجة الضبع ، وقيل هدى لأنس ذى الجمع ، وقيل حديث جمع .

قيل ما أنت ابن ثمان ؟ قال قمر أضحيان[1] .
والأضحيان المضئ .
قيل ما أنت ابن تسع ؟ قال يلتقط فىّ الجزع .
والجزع الخرز اليمانى لو انقطع العقد الذى يتألف منه ما ضاع منه شىء .
قيل ما أنت ابن عشر ؟ قال ثلث الشهر ومُحْنِق الفجر وقيل أؤديك إلى الفجر .
يريد أنه يبقى إلى قبيل الفجر لا يغيب لطول بقائه .
ومعنى ذلك أن القمر مستسر لا يتكشف إلا بالسؤال والجواب : السؤال الذى تريد البشرية ان تقضى معه من القمر وطرها ، والجواب الذى يسيل ضوءاً من القبة الزرقاء يحف به الظلام ، ولا يكون التعريف به إلا ببنوته لليالى من حيث كان ابن ليلة وليلتين وثلاث وهلم جرا إلى أن يبلغ غايته من الحياة التى هى موته ، ويجيب فى كل منها بالجواب البخيل الذى يعجل فيه سائله عن آماله فلا يعطيه منها إلا أدناها تحدوه اللهفة إلى المسيرة فى أحشاء الزمان .
والعرب لما أرادت ان تقيس الزمان قاسته بالليالى الذاهبة فى دورة القمر دون ما عداه فقالت لعشر خلون

---

(١) المخصص ٩/ ٢٩

من شهر كذا ولثمان بقين من كذا كأنـه عندهـا نعش الحياة ، وهذا معناه فى قول ابن المعتز :

انـظُر إليـه كـزورق مـن فـضّـة
قـد أثـقـلتْـه حـمـولةٌ مـن عـنـبـر

الذى طمسه النقد الردىء للشعر حين لطّخـه بعار الصنعة والزخرف ، وإلا فإن هذا الزورق زورق جنائزى فضى يسبح فى ظلام الرحلة الأبدية إلى شاطىء الموت .

ـ ٤ ـ

والقول فى بقية الكواكب دون الشمس والقمر كالقول فيهما عند العرب ، فهى سيارة لأنها تسير إلى مستقرها المعلوم لا تتعداه ، وفلكها المرقوم لا تتخـطاه ، متحيرة لأنها ثابتة دائمة لا تكاد تنقطع وهذا مناط الفزع منها والهلع ، وأسماؤها مأخوذة من أحوالها ، فزحل من زحل إذا أبطأ سمى بذلك لبطئه فى سيره أو لأنه بعُـد ، قال المتنبىّ :

وعَـزمـةٍ بـعـثـتْـهـا هـمّـة زُحَـلٌ
من تحتهـا بـمكـان الأرض مـن زُحَـل

وقد غلب عليه الثاقب ، وقيل هو المراد فى قوله تعالى (والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب)

[1] والثاقب المضيء . أو الذى ارتفع على النجوم .

كما غلب عليه أيضاً المقاتـل ولم يرد فى المعجمـات اللغوية ذكر للوجه فى إطلاق ذلك عليه ، ولعله راجع إلى بعض معانيه ودلائله القديمة عند العرب على ما يؤخذ من الأحكام الفلكية ، فهو أحد الكواكب الثلاثة التى يقال لها العلويـة وهى زحل والمشتـرى والزهرة لتسلطهـا عنـد أصحاب الفلك والنجوم وطول مقامها فى البروج ودلالتها فى زعمهم على ما فى العالم الأسفل[2] .

وزحل سماه المنجمون النحس الأكبر لأنه فى النحوسة فوق المريخ وأضافوا إليه الخراب والهلاك والهم والغم[3] ويصوره الرسامون فى صورة من يلتهم أبناءه ويقال له شاتورن وهو كيوان بالفارسية .

والمشترى قيل إنه سمى بذلك لحسنـه أو لأنه نجم البيع والشراء ودليل الأموال والأرباح ، قال أبو نواس وسماه زاويش وهو اسمه باليونانية :

ليس زاويش حـين سـار أمـام الحـو
ت والبـدر إذ هـوى لانـتـصـاب

---

(١) الطارق آية ١ ـ ٣ .

(٢) كفاية الطالب فى الأحكام الفلكية تعريب غزال الموسوى ص ١٦٦

(٣) عجائب المخلوق للقزوينى

منك أسخى بما تشح به الأنـ
ـفس عند انتقاص دَرّ الحلاب

يشير بذلك إلى ما يقال من أحكامه إذا دخل برج الحوت ، إذ يدل حينئذ على كثرة صلحاء الناس ونساكهم مع اقتناء الخير والصلاح والعفاف والورع والصدق فى العالم وكثرة الأنداء والأمطار وغزارة العيون وحسن حال الزرع وخصب البلاد وكثر السمك وقلة الصيد[1] ، وقد سماه المنجمون السعد الأكبر لأنه فوق الزهرة فى السعادة .

والمريخ مأخوذ من المرخ وهو من شجر النار كثير الورْى سريعه وفيه يقول قائلهم :

فعند ذاك يطلع المريخ   بالصبح يحكى لونه زخيخ
من شعلة ساعدها نفيخ

والزخيخ النار يمانية وقيل هى شدة بريق الجمر والحر والحرير لأن الحرير يبرق من الثياب .

ولعل لهذه التسمية وجها من وجوه دلالته ، فالمنجمون يسمونه النحس الأصغر لأنه دون زحل فى النحوسة ويضيفون إليه البطش والقتل والقهر والغلبة ، وهذا قريب من شأنه فى الأساطير اليونانية التى جعلت

---

(١) كفاية الطالب ١٧٠ .

منه إله الحرب ويقال له مارس .

وعطارد يسمى بالكاتب لأنه النافذ فى الأمور وهو كثير التصرف مع ما يلابسه ويقارنه .

والزهرة بفتح الهاء على وزن تؤدة يقال لها البيضاء مأخوذة من الزاهر وهو الأبيض النير ، والمنجمون يسمونها السعد الأصغر لأنها فى السعادة دون المشترى ويضيفون إليها الطرب والسرور واللهو والحب .

وفى بعض معانى هذه الكواكب قال أبو إسحاق الصابى :

نلِ المنى فى يومك الأجود
مستنجحاً بالطالع الأسعد
وارْقَ كمرقى زحل صاعداً
إلى المعالى أشرف المقصد
وفض كفيض المشترى بالندى
إذا اعتلى فى أفقه الأبعد
وزد على المريخ سطْواً بمن
عاداك من ذى نخوة أصيد
واطلع كما تطلع شمس الضحى
كاسفةً للحنْدس الأسود
وخذ من الزهرة أفعالها
فى عيشك المستقبل الأرغد

وضـــاه بـــالأقـــلام فى جـــريـــهـــا
عـــطارد الكـــاتـــب ذا الســـؤدد
وبـــاه بـــالمـــنـــظر بـــدر الدجـــى
وافـــضُـــله فى بـــهـــجـــتـــه وازدد

والقول في هذه المعاني قديم لأنه يتعلق بتأثيـرها في العالم السفلى وله تاريخ طويل ، وأقدم ماعرف من ذلك ماكان عند الكلدانيين منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، وهم أمـة من العرب دينهم فلكي في جـوهره إذ كـانوا يعبدون الاجرام السماوية ويقيمون الهياكـل لرصدهـا وعبادتها ، وقد بقيت آثارها الى ايام الاسكندر الأكبر لما فتح بابل سنة ٣٣١ فقد وجدت هناك نقوش فيهـا ذكر لأرصاد فلكية اتصـل تاريخهـا مدة ١٩٠٣ سنـة كأن ابتداءاها كان سنة ٢٢٣٤ .

وتدل الشواهد اللغوية والتاريخية على أن عقيـدتهم أصلها التوحيد فأعظم آلهتهم را أو ال ، والأول مأخوذ من اللغة الأصلية التي يقال لها الكوشية وهو كذلك في اللغة المصرية ، والثاني اسمه في اللغة الســامية التي خلفت الأولى وهو ال العبرانية وإله بالعربية ، ثم اشركوا معه آلهة اخرى أولها ثالوث مركب من ثلاثة آلهة كبار وهم انو وبيل وحيا أو حو ، والأول رب الهاوية والثاني يلقب غالباً بيل نِبرُ أو نِفْرُ أو لعل معناه نفر أو دفـع ،

ولايبعد ان يكون للدلالة على رب الحرب والصيد والمراد به نمرود الذي ألّهوه بعد موته لأنه مؤسنس المملكة وكان يقال له جبّار الصيد ، أما حوا وهو ثالث الثلاثة فهو رب اليابسة لقبوه بإله العلم وقالوا عنه إنه معلم البشرية ، واسمه على مايظهر مشتق من معنى الحياة أو الحية كناية عن الدراية والفهم .

ويلى هذا الثالوث ثالوث آخر يتألف من سين وهو الاله القمرى وعلامته هلال ثم سان أوسان سى وهو إله الشمس وعلامته دائرة ، ثم فول أو إيفا وهو إله الهواء .

ولهم بعد ذلك آلهة يظن أنهم الكواكب السيارة وهم نين ويقابل زحل ، وبيل وهو مردوخ او المشترى ، ونرجل وهو المريخ ، ونبو وهو عطارد .

وما يقال عن الكلدانيين القدماء في هذا الباب يقال مثله عن البابليين الذين أخذوا عنهم أشياء كثيرة من علم الهيئة وتحروه حتى بلغوا مالم يبلغه اسلافهم وسبقوا العالم فيه واستفاد اليونان وغيرهم من معارفهم ، فقد عينوا الأبراج وسموها بيوت الشمس وكان لهم منازل لفلك القمر سموها بيوت القمر(١)

وماذا عسى ان تكون ملحمة جلجامش سوى انها

---

(١) التاريخ القديم لهارق بورتر ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٩

مغامرة كونية دينية للانسان المنحدر من سلالة الآلهة يبحث عن لغز الحياة والموت بين مسالك الظلام وأفلاك الكواكب والنجوم فيقتل الأسود في الآجام ويمسك بثور السماء ؟!

ومن هذه الكأس التى تجرعها الانسان منذ الأعصر الأولى بقيت ثمالة ظلت تطوف بأحلام البشرية انتهى بعضها إلى الجاهليين كما انتهى الى سواهم من ابناء الشرق العربي القديم ، وتناقل اصحاب التواريخ والملل والنحل أصداءها فيما رووه عن عباد الروحانيات وهم الصابئة ، الذين يقولون إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط ولكن ذلك المتوسط يجب ان يكون روحانياً لا جسمانياً ، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب ، والجسماني بشر مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب يماثلنا في الصورة والمادة .

وعندهم أن الروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع والايجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال وتوجيه المخلوقات من مبدإ إلى كمال يستمدون القوة من الحضرة القدسية ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية .

فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها

وهى هياكلها ، فلكل روحانى هيكل ولكل هيكل فلك ، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذى اختص به نسبة الروح إلى الجسد فهو ربه ومديره ومدبره ، وكانوا يسمون الهياكل أرباباً وربما يسمونها آباء والعناصر أمهات .

ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات فتتبعها قوى جسمانية وتركب عليها نفوس روحانية مثل أنواع النبات والحيوان ، ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحانى كلى ، وقد تكون جزئية صادرة عن روحانى جزئى ، فمع جنس المطر ملك ومع كل قطرة ملك .

ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة في الجو مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ، ومما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب ، وما يحدث في الجو من الرعد والبرق والسحاب وقوس قزح وذوات الأذناب والهالة والمجرة ، وما يحدث فى الأرض من الزلازل والمياه والأبخرة إلى غير ذلك .

ومنها متوسطات القوى السارية في جميع الموجودات ومدبرات الهداية الشائعة في جميع الكائنات حتى لاترى

موجوداً ما خالياً من قوة وهداية ، إذا كان قابلا لهما .

قالوا : وأما الحالة فأحوال الروحانيات من الروح والريحان والنعمة واللذة والراحة والبهجة والسرور في جوار رب العالمين كيف تخفى ؟ ثم طعامهم وشرابهم التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد وأنسهم بذكر الله وطاعته ، فمن قائم وراكع وساجد ، ومن قاعد لايريد تبدل حالته لما هو فيه من النعمة واللذة ، ومن خاشع بصره لايرفع ، ومن ناظر لا يغمض ومن ساكن لا يتحرك ومتحرك لا يسكن وكَرَوبى فى عالم القبض وروحانى في عالم البسط (لايعصون الله ماأمرهم) .

ثم لم تقتصر الصائبة على التقرب إلى الروحانيات بأعيانها والتلقى بذواتها حتى اتخذوا أصناماً على هيئة الكواكب السبعة وجعلوا لها بيوتاً وسمّوا البيوت بالهياكل ، وعظموا هذه الأصنام التى صنعوها وزعموا أنهم إذا عظموها تحركت لهم الكواكب السبعة العلوية بكل ما يريدون[1]

ومن مزاعمهم أن البيت الحرام هيكل زحل وإنما طال بقاؤه على مرور الدهور معظماً فى سائر العصور لأن زحل تولاه إذ من شأنه الثبوت وأن بيت غمدان باليمن بناه

---

(١) انظر نهاية الأرب للنويرى ١/ ٦١

الضحاك على اسم الزهرة وهكذا شــأن ســائــر البيوت المقدسة عندهم .

وقد أبطل الاسلام ذلك كله وحكى القرأن احتجــاج ابــراهيم عليه الســلام في البراءة من الشــرك وثبــوت الألوهية لله وحده في قوله تعالى في سورة الأنعام « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكــذلك نرى إبــراهيم ملكوت السمــوات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين[1] .

وإبــراهيم عليــه الســـلام كــان وطنـــه الأول بــلاد الكلدانيين في بلدة يقال لها أور الكلدانيين ، وهى أم قير قرب رأس الخليج العربى ، وعلى ذلك يكون أبوه وقومه من عبدة الكواكب والأجرام السماوية على ماقدمنا ، ومما قيل فى آزر وهو اسم أبيه ما ذكره البيضاوى في تفسيره من أن آزر اسم صنم لقب به أبوه للزوم عبادته ، قال :

---

(١) الأنعام الآيات ٧٤ إلى ٧٩ وانظر فيها تفسير البيضاوى .

وقيل المراد به الصنم ويكون نصبه بناء على ذلك بفعل مضمر يفسره مابعده تقديره أتعبد آزر ، و (أتتخذ أصناما آلهة) ، ويدل عليه أنه قرىء (أزر أتتخذ أصناماً) بفتح همزة أزر وكسرها وهو صريح فى اسم الصنم ، والكوكب فى (رأى كوكبا) هو الزهرة أوالمشترى .

وأما قوله تعالى (هذا ربى) على سبيل الحكاية عن إبراهيم عليه السلام فإنه - على ماذهب البيضاوى - مقول على سبيل الوضع فإن المستدل على فساد قول يحكيه على مايقوله الخصم ثم يكر عليه بالافساد ، أو على وجه النظر والاستدلال ، وإنما قال في زمان مراهقته وأول أوان بلوغه .

(فلما أفل) آى غاب (قال لاأحب الآفلين) فضلا عن عبادتهم فإن الانتقال والاحتجاب بالأستار يقتضى الامكان والحدوث وينافى الألوهية ، فلما رأى القمر بازغا مبتدئاً فى الطلوع (قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) استعجز نفسه واستعان بربه في درك الحق فإنه لايهتدى أليه إلا بتوفيقه إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر ايضاً لتغير حاله لا يصلح للألوهية وأن من اتخذه إلها فهو ضال .

(فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى) ذكر اسم

الاشارة لتذكير الخبر وصيانة للرب عن شبهة التأنيث ، كبره استدلال أو إظهاراً لشبهة الخصم ، (فلما أفلت قال ياقوم إني برىء مما تشركون) من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدث يحدثها ومخصص يخصصها بما تختص به ، ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدها ومبدعها الذى دلت هذه الممكنات عليه فقال إنى وجهت وجهى للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين .

ولنا أن نضيف إلى ماذكره البيضاوى أن احتجاج إبراهيم عليه السلام لم يكن من قبيل الاحتجاج أو الاستدلال العقلى الذى جرى عليه المتكلمون بل هو تفسير وجودى لجوهر الايمان ، الذى لا ينفصل عن المعرفة ، وهذا معنى قوله تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) فعودة إبراهيم إلى النظر فى الكواكب بعد إنكاره على أبيه عبادة الأصنام هو فى نفس الوقت فعل من أفعال التعرف الذى تتحقق به الذات فى رحلتها من التفرق إلى الوحدة ، ومن ثم كان لابد من التدرج فى مطالعة الكواكب واحداً بعد الآخر حتى انتهى إلى الشمس وهى أكبرها ، وبيانه ليس مبناه على الجمود الذى يقصى الإشكال وينفى التردد الحى ، بل هو يؤكد جوهر الذات فى شوقها المطرد إلى

المعرفة بحيث يتجـدد سؤالهـا اليقظ فى كـل لحظة من لحظات الرؤية وهذه هى سبيلها إلى الوفاء مع نفسها ، وبذلك لايكون التكرار تكراراً لأنه استمرار للحقيقة التى لاتحيا إلا فى التجدد الذى يكفل لها الأمن والسلطان فى قـول إبراهيم بعـد ذلك (وكيف أخاف مـا أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) وإنما كان الشرك ظلماً لأنه إخلال بـالوفاء مـع الذات بالتأرجح فى تيار الاحتمـال وإيثاره عـلى الأصالة التى تقتضيها مناجزة الممكنات تحقيقاً لتعالى الذات فى رحلتها إلى الإمكان الأخير بعد دفع الأخطار .

ونـظير هذه الرحلة مـاورد فى قوله تعـالى فى سـورة الصافّات[1] (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) بعد قوله (وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم إذ قـال لأبيه وقـومه مـاذا تعبدون أئفكـاً آلهـة دون الله تريدون ؛ فما ظنكم برب العالمين) .

قال البيضاوى : فنظر نظرة فى النجوم فرأى مواقعها واتصالاتها أو فى علمها أو كتابها ، ولا منع منه مع أن

---

(١) الصافات آية ٨٨ ، ٨٩ وانظر تفسير البيضاوى .

قصده إيهامهم وذلك حين سألوه أن يعبد معهم فقال إنى سقيم ، أراهم بأنه استدل بها لأنهم كانوا منجمين ، على أنه مشارف للسقم لئلا يخرجوه إلى معبدهم ، فإنه كان أغلب أسقامهم الطاعون وكانوا يخافون العدوى ، وأراد أنى سقيم القلب لكفركم أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قل من يخلو منه أو بصدد الموت ومنه المثل كفى بالسلامة داء وقول لبيد :

فدعوت ربى بالسلامة جاهداً
ليصحنى فإذا السلامة داء

والذى يبدو لنا أن (سليم) فى قوله تعالى (إذ جاء ربه بقلب سليم) سبيله الحزن ، من السليم بمعنى اللديغ ، والمجىء فى الآية بداية الطريق الذى ينتهى بتحطيم الأصنام ، وهو طريق الإسلام الذى لا يرد فيه المؤمن على أعقابه بعد الهداية «قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين» ولأمر ما كره المسلمون الأوائل ما يوحى بالعود إلى أمر من أمور الجاهلية ومقالاتها كالذى ورد من أن الحسن سمع رجلاً يقول طلع سهيل وبرد الليل فكره ذلك ، وقال إن سهيلا لم يأت بحر ولا ببرد قط ، قال

الجاحظ (ولهذا الكلام مجاز ومذهب وقد كرهه الحسن كما ترى ، وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة ما أخلقها للمطر ، وهذا كلام مجازه قائم ، وقد كره ابن أنس كأنهم من خوفهم عليهم العود فى شىء من أمورهم فمنعوهم من الكلام الذى فيه أدنى متعلّق .

ورووا أن ابن عباس كره قولهم قوس قزح وقال قزح شيطان وإنما ذهبوا إلى التعويج والتلوين كأنه كره ماكانوا عليه من عادات الجاهلية وكأنه أحب أن يقال قوس الله فيرفع من قدره كما يقال بيت الله وزوّار الله وأرض الله وسماء الله ، وأسد الله[١] .

وعلة هذه الكراهة ظاهرة وهى أن القوم أرادوا أن ينتزعوا من هذه الألفاظ والعبارات معانيها الجاهلية إذ كانت الجاهلية أشبه بدين وملة بدليل قوله تعالى «أفحكم الجاهلية يبغون[٢]» ، ويؤصلها فى سياق إسلامى تنتفى معه كل شبهة .

على أنه ليس كل ماقيل في هذا الباب مما يعرف وجهه ، فلوكانت الأمور تروى ـ كما يقول الجاحظ ـ مع

---

(١) الحيوان ١/١٦٦ ط الساسى

(٢) المائدة ٥٠

عللها وبرهاناتهـا خفت المؤنـة ، ولكن أكثر الروايـات مجردة وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الإخبار عن البرهان .

ولاشك أن الذى انتهى إلينا من متن اللغـة فى هذا الباب لايحمل على كثرته إلا القليل من ذلك ، وماجاءنا منه جاءنا مجرداً عن معانيه الأولى مقتطعاً من سياقه ، واجتهد اللغويون فى بيانه وتفسيره على نحو ما أداهم إليه هذا التجريد ولم يبق إلا التعلق بالصفات الظاهرة يعللون بها الأسماء كقولهم فى المشترى سمى بذلك لأنه اشترى الحسن لنفسه وفى زحل لبعده وهلم جرا ، وإلا فإن القوم كانوا ينسبون الفعل للكواكب والنجوم يشركونها مع الله سبحانه في تدبير الأمور حتى نعى عليهم ذلك فى كتابه ، والشعرى العبور كان من معبوداتهم لأنه يقطع السماء عرضاً دون غيره من الكواكب وذلك قوله تعالى «وأنه هو رب الشعرى»[١] ، وفى الحديث إن الله تعالى قال أصبح من عبادى كافر بى مؤمن بالكواكب ، وفسره رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه القائل مطرنا بنوء كذا وكذا .

وقد كانوا يقولون ـ على ماذكر أبو حنيفة الدينوري فيما نقله صاحب المخصص ـ لابد لكل نوء كوكب من أن

---

(١) النجم اية ٤٩

يكون فيه مطر أو غيم أو حر أو برد ، ينسبون ماكان فيه من ذلك إليه .

قال : وقد اختلف فى معناه فذهب إلى أن النوء فى اللغة للنهوض وذهب الفراء إلى أنه السقوط والميلان ، وذهب أخرون إلى أنه يطلق على النهوض والسقوط جميعاً ، على أنهم متفقون على أن العرب كانت ترى الأمر للسقوط دون الطلوع ، فمن ذهب إلى المراد بالنوء السقوط يجريه على بابه ، ومن ذهب إلى أن المراد بالنوء النهوض يقول إنما سمى نوءاً لطلوع الكوكب لا لسقوط الساقط .

ومنهم من يطلق النوء على السقوط وإن كان موضوعه فى اللغة النهوض من باب التفاؤل كما يقال للديغ سليم وللمهلكة مفازة . على أن بعضهم قد ذهب إلى أن الكوكب ينوء بمعنى ينهض ثم يسقط فإذا سقط فقد مضى ودخل نوء الكوكب الذى بعده .

قال أبو حنيفة : وهو التأويل المشهور الذى لاينازع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذى بين يديه أطل هو على السقوط وكان أشبه حالاً بحال الناهض .

والأنواء ثمانية وعشرون بعدد منازل القمر وهى نجوم معروفة المطالع فى أزمنة السنة كلها .

ولكل صنف من أمطار السنة وقت عرفته العرب بمساقط المنازل التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه ، فقال

سبحانه «والقمر قدرناه منازل»[1] ، وقد جاء حمـدهم بعض الأنواء وذمهم بعضها من قبل مواقع الأمطار التى تكون فى أيامها فأى كوكب جاء وقت نوئه فصادف المطر الذى يكون فيه من الزمان ومن البلد موافقة ونجع فتبين خيره ونفعه حمدوا ذلك النوء وأضافوا حمده إلى الكوكب ونوهوا به ، وأى كوكب لم يصادف المطر الذى يكون فى أيام نوئه من الزمان مشاكلة ولا من الأرض موافقة فلم ينجع أو حدث منه ضرر أضافوا ذلك إلى الكوكب فذموه وسموا نوءه به حتى كأن الفعل فى ذلك فعل الكوكب .

ولما جربوا هذه الأمور فى القديم وطال اختبارهم لها فوجدوها ثابتة على مراتبها أكثر ذلك صرفـوا القول فى المدح والذم على مايثبت فى التجارب وألزموا الكواكب ذلك وصار قولاً مأثوراً يأخذه الآخر عن الأول وهذه أمـور قدرها الخـلّاق القديم ، فـأودع الأشياء طبـائع منهـا المتسالمة ومنها المتعادية ومنا المشاكلة ومنها المخالفة والمسالم سِلم لمسالمه والمعادى عدو لمعاديه والمشاكل قوة لشكله وزيادة فيه والمخالف ضرر لمخالفه ، ثم أرسلها تتدانى وتتلاقى فلا تنفك أبد الأبيد من تغير وتبدل إما بفساد وإما بصلاح ، وذلك أيضاً على قلة وكثرة فصلاح

---

(١) يس ٣٩ .

كل شيء فساد لما خالفه وكذلك فساده صلاح لما خالفه ، وذلك أقوى أسباب الهلكة والبيود اللذين إليهما مصير هذه الدنيا ، ومن وقف على ماوصفت من هذا حتى يتبينه ويتيقنه علم أن الأرض كلها لله وحده لا شريك له وأن هذه الأشياء النامية والحائرة والفاسدة والصالحة كلها منقادة لتدبيره جارية على أذلالها صائرة إلى غاياتها فأخلى لها السبل[1] .

وقد زاد الزجاج الأمر بياناً فيما نقله صاحب اللسان حيث قال فى بعض أماليه وذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم : من قال «سقينا بالنجم فقد آمن بالنجم وكفر بالله ومن قال سقانا الله فقد آمن بالله وكفر بالنجم» .

قال وإنما غلّظ النبى صلى الله عليه وسلم فيها لأن العرب كانت تزعم أن ذلك المطر الذى جاء بسقوط نجم هو فعل النجم وكانت تنسب المطر إليها ولا يجعلونه سقياً من الله ، وإن وافق سقوط ذلك النجم المطر يجعلون النجم هى الفاعلة لأن فى الحديث دليل هذا .. وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا ولم يرد ذلك المعنى ومراده أنا مطرنا فى هذا الوقت ولم يقصد إلى فعل النجم فذلك والله أعلم جائز كما جاء عن عمر رضى الله عنه أنه استسقى

---

(١) المخصص ٩ / ٨٢ ، ٨٣

بالمصلى ثم نادى العباس : كم بقى من نوء الثريا ؟ فقال إن العلماء بها يزعمون أنها تعترض فى الأفق سبعاً بعد وقوعها ، فوالله ما مضت تلك السبع حتى غيث الناس ، فإنما أراد عمر رضى الله عنه كم بقى من الوقت الذى جرت به العادة أنه إذا تم أتى بالمطر .

كان هذا هو المعنى الإسلامى للنوء تمييزاً له عن المعنى الجاهلى الذى ينسب فيه الفعل للنجوم .

ـ ٥ ـ

والنجوم كثيرة ، والعرب تطلق عليها نجوماً وإن كان منها ما هو كوكب واحد وكان منها ما هو أكثر ، وتضم نجوم البروج التى تنتقل فيها الشمس فى فصول السنة ونجوم الأخذ وهى منازل القمر ، سميت بذلك لأخذه كل ليلة منها فى منزل ، يقال أخذ القمر نجم كذا نزل به ، قال الشاعر :

وأخوت نجومُ الأخذ إلا أنضَّةً
أنضَّة محل ليس قاطرها يثرى

أى ليس يبلّ الثرى ، والنضيضة المطر الضعيف ، ونضّ الماء من العين اذا نبع ويجمع على أنضّة ، وأخوت النجوم امحلت وذلك إذا سقطت ولم تمطر فى نوئها .

والأنضة كالأنفاس التى تلهث بها النجوم عند احتضارها ، فهى لا تغنى شيئاً إلا الحسرة على موتها .

وقد مثلوا مجاميعها شأنهم فى ذلك شأن الامم الأخرى بصور الحيوانات التى عرفوها وسموها بأسمائها كأنهم نقلوا الأرض إلى السماء فكان من ذلك موكب حيوانى نورانى ينتهى إليه البصر ، ناجاه الشعراء وكائناتهم الناطقة والصماء ، كناقة العجاج ترى الكوكب لؤلؤة فى الماء :

باتت تظن الكوكب السيارا
لؤلؤة فى الماء أو مسمارا

ذلك لأنها كرهت السير وملته حتى لم يعد عندها له معنى ، فأشفقت على الكوكب السيار فأوقفته ووكلته إلى الماء ، فكان كاللؤلؤ المكنونة أو المسمار ، وكلاهما ثابت يتحدى الفلك الدوّار .

وإبل أبى العلاء تمد أعناقها إلى مورد فى السماء لتشرب منه يلوح منه نسر على أحد طرفيه ، وفرقد على الطرف الآخر .

فمدّتْ إلى مثل السماء رقابها
وعبَّتْ قليلا بين نسر وفرقد

شأنها شأن البشر سواء بسواء فهم أيضاً يعبون من النجوم الماء لأنها تدلهم على الأنواء .

ثم تجوب فلاة واسعة تتخرق فيها الرياح ، الليل فيها ساجد والارض خاشعة والريـاح تكتم أنفاسهـا وبنات نعش يبحثن عن أبيهن وله من اسم المنيـة نصيب فلا يقفن له على أثر ، كأن الكون قبر كبير كل شيء يلوذ فيه بالصمت ويستجير من الموت بالموت .

بخـــرْقٍ يـطيـل الليـل فيـه سـجـوده ... وللأرض زيّ الراهــبِ المـتـعـبّـد

ولو نـشـــدتْ نعـشــاً هــنــاك بـنــاتُــه ... لمــاتت ولم تسـمــع له صــوت منـشــد

وتكتـم فيـه العــاصـفــاتُ نفـوسـهــا ... فــلو عـصــفَـتْ بــالنـبـت لم يـتــأوّد

ولم يـثبـت القــطبــان فـيــه تـحـيـراً ... ومــا تــلك إلا وقــفــةٌ عــن تــبــلّد

كـأن الليل بسجـوده الطويل والأرض بـرهبانيتهـا السابغة يصحـحان نزق الخـرق ويردانــه إلى صوابـه بالحقيقة التى علمته إياها بنات نعش .

وقد وردت الأبراج والمنازل فى كتب اللغة متفرقة كأنها أشلاء ممزقة أو ملحمة ناقصة من ملاحم الأنواء ، غير أن الأصـل فيها دورة النيـرين وهما الشمس والقمـر وتنقلهمـا ، هذا فى ثمـانية وعشـرين منزلاً فى ثمـانيـة وعشرين يوماً بلياليها ،وتلك فى بروج عدتها اثنا عشر برجاً

فى سنة كاملة .

والمنازل مقسومة على البروج موزعة عليها فالشَّرَطان والبُطَيْن وثلث الثريا للحمل ، وثلثا الثريا والدبران وثلثا الهقعة للثور ، وثلث الهقْعة والهنْمة والذراع للجوزاء ، والنثرة والطَّرْف وثلث الجبهة للسرطان ، وثلثا الجبهة والخرتان وثلثا الصرفة للأسد ، وثلث الصرفة والعوّاء والسماك للسنبلة ، والغفْر والزبانان وثلث الإكليل للميزان ، وثلثا الإكليل والقلب وثلثا الشولة للعقرب ، وثلث الشولة والنعائم والبلدة للقوس ، وسعدٌ الذابح وسعد بُلَع وثلث سعد السعود للجدْى ، وثلث الفرغ المقدم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت .

وكل ما قيل فى بيان هذه الأسماءمداره على الصور التى تشكلت فيها النجوم إذا جمع متفرقها فى كل قسم من أقسام الفلك ، ولكن يبقى وراء ذلك ، السؤال عن الوجه فى إيثار صور الحيوانات على سواها ، ولإبد أن يكون ذلك لعلة وراء الشكل الظاهر للعين ، والعلة فيما نرى هى تعلق الخيال بالحيوانية الجامحة التى تضطرب فى الظلام وتؤذن بانقضاء الليالى والأيام وكر الدهور والأعوام ، فهى رموز للزمان العاتى الذى يلتهم البشر ويقض مضاجعهم منذ القدم ، يتقلب بهم من صحة إلى سقم ومن سلامة إلى آفة ثم لايزال يسوقهم بسياطه إلى

الشيخوخة والضعف والذبول ثم الموت ، وهذه الكائنات الرهيبة التى تملأ الظلام بزئيرها وخوارها وصهيلها إن هى إلا آيات تخفق لمرآها القلوب رغبة ورهبة ، وتتطلع إلى الأحلام تطلب عندها العزاء عن الآلام .

ونذكر ما قيل فى تفسير أسمائها وأشكالها ونبدأ بمنازل القمر ، فالشرطان تثنية شرط أى العلامة وهما قرنا الحمل ويسمونهما النَّطْح على أنه تسمية بالمصدر والبُطين على التصغير ويقال البطن ثلاثة كواكب خفية على أثر الشرطين بين يدى الثريا ، وأما الثريا فلا يتكلمون بها مكبرة ، وهى تصغير ثروى مشتق من الثروة فى العدد ، وهى أنثى ثروان وتسمى النجم علماً عليها وبه فسر قوله تعالى « والنجم إذا هوى » والدبران الكوكب الأحمر الذى على إثر الثريا وسمى دبراناً لدبوره الثريا ولذلك سمى تالى النجم وحادى النجم وتابع النجم ثم كثر حتى عرف بالتابع مفرداً من غير إضافة ، والكوكبان القريبان منه كلباه والباقى غنمه ويقولون قلاصه ويزعمون أن الدبران ساقها فى خِطبة الثريا قال ذى الرمةَ :

قلاصُ حداها راكب متعمِّمٌ
هجائن قد كادتْ عليه تفرَّقُ

والهقعة ثلاث كواكب صغار مثفاة وتسمى الأثافى

لذلك وبها شبهت الدائرة التى تكون بجنب بعض الدواب فى معدّه ومركله ، والهنعة كوكبان بينهما قيد سوط على أثر الهقعة وسميت هنعة لتقاصرها عن الهقعة ، او لانعطافها ، ويقال هى قوس الجوزاء يرمى بها ذراع الأسد ، وقائل ذلك يزعم أنها ثمانية أنجم فى صورة قوس من مقبضها النجمان اللذان يقال لها الهنعة ، والذراع كوكبان أحدهما نير والآخر مظلم بينهما قدر سوط فى رأى العين وفيما بينهما كواكب صغار تسمى الأظفار ، ويقال لهذه المنزلة الذراع لأنها ذراع الأسد وللأسد ذراعان مقبوضة ومبسوطة .

والنثرة ثلاثة كواكب متقاربة أحدها كأنه لطخة يقولون هى نثرة الأسد أى أنفه أو كأنها شيء نثره من أنفه وتسمى اللهاة أيضاً ، وإلى جانبيها الكوكبان الآخران على منخرى الأسد ،والزبْرة زبرة الأسد سميت كذلك لشعر يكون فوق ظهره مما يلى خاصرته ، ويقال لهما الخراتان تشبيها بثقبين فى السماء وهما كوكبان ، والصرْفة كوكب واحد نير على إثر الزبرة ، وسمى كذلك لانصراف الحر عند طلوعه مع الفجر من المشرق وانصراف البرد إذا غاب مع الشمس ، ويقال الصرفة ناب الدهر لأنها تفتر عن فصل الزمانين .

والعوّاء أربعة كواكب أو خمسة يشبهونها بكلاب

تعوى خلف الأسد لأنها وراءه ، ويقال لها عوّاء البرد ويزعمون أنها إذا طلعت أو سقطت جاءت ببرد .

والسِّماك كوكبان أحدهما الرامح لكوكب صغير بين يديه والآخر الأعزل لأنه لا شيء بين يديه ، وهما فى صورة العذراء وهى السنبلة ، والعرب تجعلها ساقى الأسد ، وربما عدل القمر فنزل بعجز الأسد ، وهو أربعة كواكب بين يدى السماك الأعزل يقال لها عرش السماك ، وتسمى أيضاً الخباء والأحمال والغراب .

والغفر ثلاثة كواكب خفية على خط فيه تقويس ، سميت بذلك لأنها مأخوذة من الغفرة وهى الشعر الذى فى طرف ذنب الأسد .

الزبانان كوكبان نيران هما يد العقرب .

الإكليل ثلاثة كواكب مجتمعة فى خفاء الغفر مصطفة معترضة سميت بذلك لأنها فوق جبهة العقرب كالتاج .

والقلب كوكب أحمر نير مضطرب قريب من الجبهة بين كوكبين خفيين تسميهما العرب نياطى القلب أى علاقتيه ، والقلوب أربعة أحدها هذا والثانى قلب السمكة والثالث قلب الثور والرابع قلب الأسد ، وحيث ذكر القلب على الإطلاق دون إضافة فالمراد قلب العقرب .

الشَّوْلة وهى كواكب متقاطرة على تقويس فى برج العقرب أشبه شيء بذنب العقرب إذا شالته ولذلك سميت

الشولة ، وفى الشولة كوكبان خفيان ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإبـرة والحمة . وخلفهما نجم صغير لا يزايلهما يقال له التابع .

والنعائم وكواكبها ثمانية ، منها أربعة يمانيـة نيّرة تسمى الواردة لأنها ترد المجرة والأربعة الأخرى تسمى الصادرة لبعدها عنها كأنها وردت ثم صدرت .

والبلدة فرجة فى السماء مستديرة شبه الرقعة ليس فيها كواكب وهى بين النعائم وسعد الذابح .

وسعد الذابح كـوكبان صغيـران سمى **ذابحـاً** لأن بالقرب من نجمه الشمالى نجما صغيراً كأنه ملتصق به يقولون هو شاته التى تذبح .

وسعد بُلَع نجمان أيضاً نحو من سعد الذابح أحدهما خفى جداً وهو الذى بلّعه أى جعله بلع ، وقيل سمى بلع لأنه فيما يزعمون طلع حين قـال الله (يا أرض ابلعى ماءك) وهو على كعب ساكب الماء القريب من الدلْو .

وسعد السعود كوكبان أو ثلاثة ، واصحاب الصور يثبتونه على صدر ساكب الماء القـريب من صورة الدلو وسعد الأخبية كوكب واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثـة تشبه رجل بَطّة والكوكب هو السعد والثلاثة الخبـاء ، وقيل سمى سعد الأخبية لخروج المخبآت فيه من الثمار والحشرات وكانت العرب تتبرك به لاخضرار العود فيه .

والفرغ المقدم ويقال فيه مقدم الدلو والفرغ المؤخر ويقال له مؤخر الدلو السفلى يوكلاهما كوكبان ، والحوت وهو آخر المنازل ويقال لها السمكة وتسمى الرّشاء وهى ثمانية عشر كوكباً .

والقول فى بروج الشمس كالقول فى منازل القمر من حيث تسميتها بأشكالها ، فأولها الحمل وهو الكبش على خط وسط السماء مقدمه فى المغرب ومؤخره فى المشرق ، وأول ما يطلع منه فمه ، ويده وساقاه ممتدان إلى الشمال وكأنه إنما يظهر منه يد واحدة ورجل واحدة ، والثريا على طرف أليته .

ثم الثور ومقدمة إلى المشرق ومؤخره إلى المغرب وظهره إلى الشمال ويداه ورجلاه إلى الجنوب ويظهر منه رجل واحدة ويدان وذنبه أبتر .

والتوأم ويقال له الجوزاء ، جسدان ملتصقان برأسين يظهر لكل واحد منهما يد واحدة ورجل واحدة والرأسان فى جهة المشرق ورجلاهما فى جهة المغرب .

والسرطان على صدره النثرة ، وزباناه كوكبان فيهما خفاء .

والأسد فى وسط السماء فمه مفتوح إلى النثرة ، والطرف على عنقه والجبهة على صدره والصرفة ذنبه ، وكفه المتقدمة فى آخر السرطان ، وكفه الأخرى بعد هذه الكف إلى المشرق ، ورجله الأولى تخرج من الكوكب القبلى

من الخرانين إلى الجنوب والأخرى تحت هذه إلى المشرق.

والعذراء ويقال لها السنبلة صورة امرأة رأسها على قدم الصرفة وقدمها الزبانان اللذان على كفتى الميزان ، والكواكب التى على بطنها كلاب تعوى خلف الأسد ومن أجل ذلك تسمى عوّاء ، وبقرب يدها السماك الأعزل لأنه لا سلاح معه بإزاء الرامح .

والميـزان بين العذراء والعقـرب وليس فيه شيء من الكواكب المشهورة والعقرب لها إكليل على جبهتها ، وعلى بدنها قلب العقرب وخلفه النياط ثم الفقرات والشولة .

والقوس ويقال له الرامى نصفـه شبه فـرس ونصفه الآخر وجه إنسان تقوس ورأسه فى الشمال ورجلاه فى الجنوب قد حفت به النعائم التى وردت المجرة والنعائم التى صـدرت عنها ، ويـده اليمنى قابضـة عـلى رأس السهم .

والجدى مستلق على ظهره كأنه منقلب إلى القوس ، وقرناه إلى بطنه وفمه إلى القوس ، وعلى أحد قرنيه سعد الذابح ، وعلى كتفه سعد بُلَع وعلى وركه سعد السعود .

والدلو أو ساكب الماء رجـل قائم بيـده دلو ، رأسه الكواكب التى تسمى الخباء من سعد الأخبية ، ويـده اليسرى من فوق رأســه حتى تنزل إلى الدلو الذى عن يمينه ، ومرفقه الأيسر سعد الأخبية ، وبطنـه الجرة ،

ودلوه أربعةسعود هى سعد ناشرة وسعد الملك وسعد البهام وسعد الماتح .

والحوت ويقال له السمكة وهو فى الحقيقة سمكتان إحداهما المنزلة التى يسميها أصحاب المنازل بطن الحوت وهى شمالية ، والثانية جنوبية عنها وهى أطول منها ، وشقها ثلاثة من السعود هى سعد الهمام وسعد البارع وسعد الماطر .

ويذكر أصحاب الصور مع هذه البروج الأثنى عشر صوراً أخرى موزعة على النصف الشمالى من الكرة والنصف الجنوبى وكل منها كوكبة مرصعة بالنجوم تمتد عليها الكائنات .

والصور الشمالية إحدى وعشرون ، أولاها كوكبة الدب **الأصغر** وهى سبعة كواكب أربعة على المربع هى النعش وثلاثة على الذنب هى بناته ، والنيران من الأربعة الفرقدان والنير الذى على طرف الذنب الجدى ، وجميع الكواكب الداخلة فيها والخارجة عنها تشبه بحلقة سمكة .

ثم الدب الأكبر فيها مستطيل على ذنبه بنات نعش الكبرى وعلى طرف الذنب القائد وعلى وسطه العناق (وهى الأنثى من المعزى) فوقه السها وعلى كل قدم من أقدامه الثلاث قفزات الظباء ، القفزة الأولى على الرجل

اليمنى تتبعهـا الصرفـة وهى الكوكب الذى عـلى ذنب الأسد ، فوقها الهقعة ، والظباء إنما قفزت فى زعمهم لما ضرب الأسد الأرض بذنبه .

وعـلى عنقـه وصـدره سـريـر بنـات نعش ويسمى الحوض ، وعلى الحاجب والعينين والأذن والخطم الظباء التى وردت الحوض بعد أن نفرت من الأسد .

والتنين فى شكـل أفعى ، الرابض عـلى لسـانـه ، والعوائذ على رأسه فى وسطها الربع وهو ولد الناقة ، وعلى مؤخر الذئبان تتقدمهما الأظفار ، وقد وقعت العوائـذ بين الذئبين وبين النسر الواقع منعطفين عـلى الربع ، ويقـولون إن الذئبين طمعـا فى استلاب الربـع وجاءت العوائذ وهى أربع نوق فعطفن عليه ، وفى أصل الذنب الذيخ وهو ذكر الضباع .

وقيقاوس أو الملتهب كهل بيده اليسرى قضيب ، وعلى رأسه عمامة فوقها تاج ، وعلى رجله اليسرى الراعى ، وبين رجليه الكلب ثم الأغنام .

والعوّاء أو البتّار ويسمى حارس السماك ، رجل فى يده اليمنى عصا ، وعلى رأسه ومنكبيه عصا أخرى يقال لها عصا الضباع ، وعلى يده اليسرى أولاد الضباع ، وبين فخذيه السماك الرامح .

والفكّة وهى مستديرة بحيال بنات نعش خلف السماك

الرامح هى التى تسميها الصبيان قصة المساكين لأن فى جانبيها ثلمة وكذلك كواكبها المجتمعة فى جانب منها فضاء .

والجاثى ويقال الراقص رجل مد يده وجثا على ركبتيه ، إحدى رجليه على طرف عصا العوّاء وهى اليمنى ، والأخرى عند الأربعة التى على رأس التنين وهى العوائذ .

والسلياق أو اللورا عشرة كواكب ، النير منها النسر الواقع وهو نسر ضم جناحيه إلى نفسه كأنه واقع على شىء ، وقدامه كوكب خفى يقال له الأظفار أو الأثافى .

والدجاجة فى المجرة إلى الشرق من السلياق ، وتعرف بخمسة كواكب على هيئة صليب أكبرها فى الذنب ويسمى الردف وذنب الدجاجة ، يتلوه الذى فى الرأس وهى منقارها ، والأربعة المصطفة عرضاً تسمى الفوارس ، والذى فى ملتقى ذراعى الصليب صدرها .

وذات الكرسى امرأة جالسة على كرسى له قائمة كقائمة المنبر وقد أدلت رجليها فى المجرة وبسطت كفها المخضبة تضىء فيها الأنامل وفرساوس أو حامل رأس الغول رجل فى المجرة مجنح الرجلين ، فى يمناه سيف وفى يسراه رأس الغول .

يتلوه ممسك الأعنة أو صاحب المعز وهو رجل قائم

يمسك الأعنة بيسراه ويحمل الجدى على ذراعه اليمنى ، وعلى منكبه الأيمن العيوق وهو العنز وعلى المعصم الجديين ، وفى الوسط الخباء .

والحواء رجل قائم قد قبض بيديه على حية وأمرها بين فخذيه ، على عنقها أكبر الكواكب وعلى رأسها النسق الشامى وهى كواكب مصطفة ، وتحت عنقها النسق اليمانى وما بينهما الروضة التى تضم الأغنام ،ورأس الحواء الراعى ورأس الجاثى كلبه .

والسهم خمسة كواكب بين منقار الدجاجة والنسر الطائر فى نفس المجرة ، نصله إلى ناحية المشرق وفُوَقه إلى ناحية المغرب ، وطوله فى رأى العين إذا كان فى السماء نحو ذراعين .

والعقاب فيه ثلاثة كواكب مشهورة تسمى النسر الطائر ، وبإزائه النسر الواقع وثلاثة كواكب أخرى تسمى الميزان فوقهما الظليمان ، ويتبع النسر الطائر حيوان يقال له الدلفين ثم رأس فرس على أربعة كواكب الأول فى موضع الفم والثلاثة الباقية على الرأس .

يلى ذلك الفرس الأعظم ، وهو فرس له رأس ويدان وبدن إلى آخر الظهر وليس له كفل ولا رجلان ، على بدنه النعائم والكرب وهى فى رأس الدلو حيث يشد الحبل ، وعلى رأسه سعد البهائم وعلى عنقه سعد الهمام وفى

الصدر سعد البارع وعلى الركبة اليمنى سعد المطر .

ثم المرأة المسلسلة تمد إحدى يديهـا نحو الشمـال والأخرى نحو الجنوب ، وبين يديها كواكب كالسلسلة وفوق مئزرها بطن الحوت وهى آخر الصور الشمالية .

أما الصور الجنوبية فمن مشاهدها الحوت وكواكبه اثنان وعشرون ، فى رأسه الكف الجذماء لأن امتدادها دون الكف المخضبة ، وعلى يديه النعامات وعلى الشعبة الجنوبية من الذنب الضفدع الثانى .

والجبار وهو رجل قائم فى ناحية الجنوب بيده عصا وفى وسطه سيف وعلى وجهه الهقعة والأثافى ، وعلى منكبه الأيمن منكب الجوزاء ويدها ، ويطلق على الجبار اسم الجوزاء .

يليه النهر وكواكبه أربعة وثلاثون ، يبتدىء من عند النير الذى على قدم الجوزاء فيمر فى الغرب على تعريج ثم يمر فى الجنوب على ثلاثة كواكب وينعـطف إلى الشرق والجنوب ، وعلى آخره الظليم وهو ذكر النعام وفى وسطه أدحى النعـام أو عشه وحـواليها البيض ، وبين هـذا الظليم والظليم الذى على فم الحوت فـراخ النعام وهى الرئال .

وتحت رجل الجبار أرنب وجهه إلى المغرب ومؤخره إلى المشرق ، على اثنى عشر كوكباً ، اثنان منها على يديـه

واثنان على رجليه ويقال لهذه الكوكبة كرسى الجوزاء ، ثم الكلب الأكبر وعلى موضع فمه الشعرى التى يقال لها اليمانية لأنها تغيب فى شق اليمن كما يقال لها العبور لعبورها المجرة إلى ناحية سهيل .

ويزعمون أن الشعريين أخت سهيل وأن سهيلا تزوج الجوزاء فركّها وكسر فقارها فهو هارب نحو الجنوب خوفاً من أن يطلب من الجوزاء ، وعلى يده اليسرى مِرْزم[1] العبور ومرزم الشعرى وعلى ساقى رجليه العذارى .

ووراء الجبار على الجانب المقابل من المجرة الكلب الأصغر ، وفيه نجمان أحدهما أنور من الآخر ، يقال له الشعرى الشامية لأنه يغيب فى شق الشام ويسمى أيضاً الشعرى الغميصاء الى أحبت سهيلا ، ثم لما عبرت الشعرى اليمانية المجرة إلى الجنوب وإلى ناحية سهيل وبقيت هذه فى الشمال الشرقية بكت على سهيل وغمصت عيناها .

وآخر هذه المشاهد كوكبة السفينة وهى معقوفة على نفسها من مقدمها ومؤخرها ، وفى وسطها سارية رأسها كالكأس ولعله مرقب للربان ، وموضع سهيل طرف

---

(١) المرزم لعله مأخوذ من رزمة الناقة وهو حنينها إلى ولدها أو هو من رزم الشتاء برد ..

السكان الثانى منها ، وتحت قدماه[1] .

وأكثر هذه الصور ينبىء عن أساطيـر تناقلهـا أبناء العـالم القديم كقـول اليونـان فى التنين إنه هـو الذى استعان عليه قدموس بالإلهة منرفا فقتله وقلع أضراسه وزرعها فنبتت رجالاً مسلحين ، وقيل بل هو التنين الذى قتله هرقل فنقله زفس إلى السماء ، وفيها من المشابهة فى الأسماء قدر غير قليل وإن كانت كل أمة قد أضفت عليها ما طاب لها من معان ودلالات غذّاهـا الخيال .

وهى فى جملتها من بنات القحط والجدب والظلام عند العرب ، ذلك أن انقطاع المطر يظهر أثره أول ما يظهر فى الحيوان وما يتفشى فيه من موتان ، كما أن نزوله آيته حياتها ، التى منها حياة البشر ، يقـال أحيا القـوم على معنى حسنت حال مواشيهم ، وحيى القوم فى أنفسهم وأحيوا فى دوابهم وماشيتهم ، والحيوان كالحياة بل هو تجسيد لها ، وسمى الله عز وجل الآخرة حيواناً فقال : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان[2] » قال قتادة فيمـا نقله صاحب اللسان هى الحياة ، الأزهرى ، المعنى أن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حياً فيها لا يموت ، فمن

(١) انظر عجائب المخلوقات للقزوينى ٢ / ٢٣ وما يليها .

(٢) العنكبوت ٦٤ .

أدخل الجنة حى فيها حياة طيبة ومن دخل النار فإنه لا يموت فيها ولا يحيا كما قال تعالى .

فالحيوان والمطر والسماء رموز تتلاقى عندها الحياة والموت لأنها رموز الخصب والجدب التى حفلت بها العربية وتعاطاها الشعراء ، وقد ذكر الجاحظ أن من عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التى تقتل بقر الوحش ، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كانت ناقتى بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب هى المقتولة ، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها **ولكن** الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها ، وأما فى أكثر ذلك فإنها تكون هى المصابة والكلاب هى السالمة والظافرة وصاحبها الغانم[1] .

ولا معنى للملازمة بين المرثية وقتل بقر الوحش إلا ما يوحى به قتله من الجدب والموت ومأساة الأحياء التى تناسب الرثاء ، وكذلك يقال فى ضد ذلك من الملازمة بين المديح وقتل الكلاب من حيث كانت الكلاب رمز الجوع والقحط موتها موت لكليهما وحياة للخصب والرى والسعة والنعمة وغيرها من المعانى التى تساوق المديح والبهجة .

---

(١) الحيوان ٢ /٨ ط الساسى .

فالمطر هو ينبوع تلك المشاهد النورانية التى تعج بها السماء لأنه ينبوع الحياة عند أبناء الصحراء ، وقد احتفلت به العربية فى معجمها الزمانى فجعلت صفحاته مرقومة بالأمطار تقسم إليها السنة ، فالسنة عند العرب نصفان شتاء وصيف ، هكذا روى عنهم فيما نقله ابن سيده(١) ، وروى أنها تبدأ بالشتاء فتقدمه على الصيف ، فابتداء الشتاء هو النصف الأول من السنة من حين انتهاء النهار فى القصر وابتدائه فى الزيادة ، وذلك لحلول الشمس برج رأس الجدى إلى أن ينتهى النهار إلى منتهاه فى الطول ويبتدىء فى النقصان وذلك لحلول الشمس برج السرطان .

وأما النصف الثانى من السنة وهو الصيف فإنه عند انتهاء النهار فى الطول وابتدائه فى النقصان وذلك لحلول الشمس برأس برج السرطان إلى أن ينتهى فى القصر ويبتدىء فى الزيادة وذلك لحلول الشمس برأس برج الجدى .

---

(٢) المخصص ٩/٨٨ وما يليها .

ولكل واحد منهما أربعة عشر نوءاً[1] ، فأول أنواء الشتاء الهنعة وآخرها الشولة وأول أنواء الصيف النعائم وآخرها الهقعة ، ثم قسم الشتاء نصفين والصيف أيضاً **نصفين**، ومنتصف كل واحد منهما استواء الليل والنهار ، فالذى يكون فيه الاستواء الذى يكون فى نصف الشتاء يسمى الاستواء الربيعى وهو لحلول الشمس برأس الحمل .

ويسمى قسما الشتاء أيضاً الربيعين فالأول منهما هو ربيع الماء والأمطار والثانى ربيع النبات لأنه ينتهى النبات منتهاه ، والشتاء كله ربيع عند العرب من أجل الندى ، والمطر عندهم ربيع متى جاء .

ويسمى الاستواء الذى يكون فى نصف الصيف الاستواء الخريفى .

فهذه أربعة أرباع السنة التى تسمى الفصول ، فالربع الأول من الشتاء يسمى الفصل الشتوى ، والربع الثانى منه يسمى الفصل الربيعى ، ويسمى الربع الأول من الصيف الفصل الصيفى ويسمى الربع الثانى منه الفصل الخريفى .

وليس الخريف فى الأصل باسم للفصل إنما هو اسم

---

(١) قدمنا معنى النوء فيما سبق

لمطر القيظ ثم سمى الناس الزمان به فجرى .

وأسماء الأمطار عندهم مأخوذة من أثرها على الأرض وهى ثمانية أصناف : الوسمىّ والولىّ والشتىّ والدفئى والصيّف والحميم والرمضى والخريف ، ومساقط منازل القمر الثمانية والعشرين علامات تعرف بها أوقاتها ، ومن هذين الأمرين يتألف تاريخ السماء على الأرض .

فأول أمطار السنة الوسمى : سموه وسمياً لأنه يسم الأرض بالنبات ، وجعلوا أنواءه خمسة أنجم وهى فرع الدلو المؤخر والرشاء والشرطان والبُطَين والثريا ، وهذه الأنواء هى أول أنواء الخريف .

والولى اسم النوأين الباقيين وهما الدبران والهقْعة .

والفرغ نوؤه نوء محمود جيد الوقت ، كأن له من اسمه نصيباً فالفرغ للدلو مفرغة وهو خرقه الذى يأخذ الماء ، وأما الرشاء فما أقل ما يذكر نوؤه ، غلب عليه ما قبله وما بعده ، وأما الشرطان وقد قدمنا أنهما قرنا الحمل فنوؤه من الأنواء المحمودة ، والبطين نوؤه غير محمود ولا مذكور ولا محبوب ليمطر ، وأما الثريا فإن نوأها من الأنواء المذكورة المقدمة فى الحمد والفضل ومن ثم كان اشتقاقها من الثروة فى العدد .

والدبران مكروه النوء غير محبوب ، والهقعة نوؤها داخل فى أنواء الجوزاء وأنواؤها محمودة .

وأما أنواء الشتاء فإن أنواءه الأربعة الأول شتيّة وهى الهنعة **لتقاصرها** عن الهقعة والذراع والنثرة والطرف ، وأنواؤه الثلاثة الباقية دفئية وهى الجبهة والزّبْرة وهى جميعاً للأسد كما قدمنا[١] ، ثم الصرفة .

وأنواء الأسد محمودة عندهم ، فهذا شأن الذراع نوؤها مذكور محمود مقدم فى الفضل ، والنثرة كذلك محمودة النوء مذكورة ، والجبهة نوؤها من أذكر الأنواء وأشهرها وأفضلها وأحبها إليهم وأعزها فقدا .

وهذه الأنواء يقال لها دَفئية لأنها فى دُبر الشتاء وقبْل الصيف وابتداء الدفء .

وأما أنواء الصيف فإن الخمسة الأول منها وهى العوّاء والسِّماك والغفر والزُّبانى والإكليل صيّف ، وأما نوءاه الباقيان فحميم ، سميا حميما لأن أمطارهما تجى فى حركة من الحر .

فأما السماك فإن نوأه من الأنواء المذكورة المشهورة المحمودة ، وأما الغفر فقلما يذكر نوؤه لغلبة السماك عليه ، وأما الزبانى والإكليل والقلب والشولة فقلما تذكر أنواؤها وربما ذكرت العقرب مجملة .

فإذا تجاوزت السماك إلى ما بعده من الأنواء غلب على

(١) انظر ص ١١٩

وقتها الحر فكثر إخلافها وهان فقدها ، وأمطارها إن نزلت لا أثر لها لأنه وقت شدة الحر وهيج الأرض وهبوب البوارح .

فأما أنواء الخريف وهو فصل القيظ فإن أنواءه النعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بُلَع وهى رمضية وشمسية ، سميت بذلك لشدة الحر فى أيامها .

وأنواؤه الثلاثة الباقية يقال لها خرْفية نسبة إلى خريف وهو من شاذ النسب كأنهم فيما قال سيبويه (بنو الأسم على خرف) وهى سعد السعود وسعد الأخبية والفرغ المقدم ، ونوؤه من الأنواء المشهورة المذكورة المحمودة النافعة لأنه إرهاص للوسمى ومقدمة له بين يديه وموطىء له ، وهو والفرغ الآخر فرغا الدلو وأمطار الدلو موصوفة بالنفع وجودة الموضع .

- ٧ -

والريح تذكر فى سياق الإرهاص للمطر أو النذير بعدمه .

وهى نسيم الهواء أنثى إلا أنها كالصيرورة ، وهذا هو الوجه فى قولهم على ما ذكر ابن السيد نقلا عن أبى عبيدة : يوم راح شديد الريح ، وقد راح يراح وريّح طيب

الريح وعشية ريّحة ، وريح الغدير أصابته الريح وريح الغصن كذلك وغصن مَريح ومَروح وأنشد ابن السكيت :

غصنٌ من الطرفاء ريح ممطور

وهى فى كل ذلك تداخل الزمان والمكان والأشياء فتصير لحظة من لحظاتها وكأنها تزيل ما بها من جمود لتبعث فيها مثل النسيم ، والرياح الأربع وهى الدَّبور والقَبول والجَنوب والشَّمال مناطها مكانان وهما الكعبة والحِجْر ، فالدبور التى تأتى من دُبُر الكعبة والقبول من تلقائها وهى الصَبا ، والشمال تأتى من قِبل الحجْر والجنوب من تلقائها .

وما يقال فى صيرورة الريح على إطلاقها يقال فى صيرورة هذه الرياح الأربع ، بدليل قولهم دبرت الريح تدبُر دُبوراً وقَبلت تقْبُل قبْلا وقبولا وصبَتْ تصبو صباً وجنبت تجنُب جُنوباً ثم أدبر القومُ دخلوا فى الدبور وكذلك أخواتُها فأفعلْتُ مقولة فى ذلك كله ، ومعنى ذلك أنها تعاطى الذات شيئاً من صفتها فتكون الذات منها وهى من الذات لا شىء يفصل بينهما ، فإذا أردت أنها أصابتهم قيل عُلوا كأنما كتب لها الغلبة وهذا من الفروق الدقيقة فى العربية .

ومن أجل ذلك كان اختلاف اللغويين فيها أسماء أم صفات فإن سيبويه قال هى صفات فى أكثر كلام العرب

سمعناهم يقولون هذه ريح شمال وهذه ريح جنوب وهذه ريح سموم ، والوصفية كالفعلية يزول معها جمود الأسماء وثباتها ، والريح فيها منهما غير قليل لأنها كالحدثان الذى يحيا فيه الإنسان .

ولكل ريح بعد ذلك شيء تذكر به ، فهى إذا انخرقت فوقعت بين ريحين نكباء ، وإذا محت **السحاب** كانت محوة ، وإذا هبّت بحر كانت هَيْفا ، وإذا لانت كانت رَيْدانة .

ومما تذكر به الهبوب من حيث شدته وضعفه ، وديمومته وانقطاعه ، فيقال زفّت الريح تزِفّ زفيفاً وهو هبوب ليس بالشديد ولكنه فى ذلك ماض ، وقد تكون الزفزافة الشديدة التى لها زفزفة **وهى الصوت**، والصوت معنى تسمى به الريح كالحنون التى لها حنين مثل حنين الإبل ، **ويقال هدجت الريح هدجاً حنت وصوتت** ، والخرير صوت الريح والعقاب إذا حفّت خرّت تخر خريراً .

وتؤول أيضاً إلى بعض معانى الحيوان كقولهم تذأبت **وتذاءبت وهى المتذّئبة التى تجيء منهنا ومن هنا مرة تخيل أنها عدة ذئاب** . ومن الباب **قولهم ريح مريضة وهى الضعيفة** .

ثم تسمى بأثرها فى التراب والحصى والأرض وورق الشجر وما يجرى هذا المجرى فيقال فى شدتها وسوقها

التراب أعجّت وأنشبت وأنفست كما يقال عصفت وهى عاصف وعاصفة ، وفى التنزيل « جاءتها ريح عاصف » وفيه « ولسليمان الريح عاصفة » تعصف ما مرت به من جولان التراب تذهب به ، والمعصفات التى تثير التراب والورق والعصف ونحو ذلك .

ومن بابها الزوبعة وهى الريح تثير الغبار تديره فى الأرض حتى ترفعه فى الهواء ، والمؤتفكة وهى التى تجىء بالتراب ، والحاصب التى تنشر الحصى عن وجه الأرض والتى تحمل التراب وما تناثر من دقيق البرَد والثلج ، وفى التنزيل « إنا أرسلنا عليهم حاصباً » أى حجارة .

والتراب حظه مع الريح لا يدانيه إلا حظها مع السحاب ، فهى تنسج التراب إذا سحبت بعضه إلى بعض ومثله نسج الماء إذا ضربته فانتسجت فيه طرائق ، ونسج الورق والهشيم إذا جمعت بعضه إلى بعض ، وتنمنم التراب إذا خطته وتركت عليه أثراً شبه الكتابة ، وتفقأ الأرض إذا حثت على نباتها ترابا .

وأما السحاب فلها معه الألفاظ الكثيرة التى يكتنفها طرفان أحدهما نذير الموت والآخر بشير الحياة ، فالأول فى الريح العقيم وهى التى لا تلقح شجراً ولا تنشىء سحاباً ولا مطراً ، والثانى الريح اللاقح التى تلقح الشجر وتنشىء السحاب ، وبينهما الطحور التى تطحر

السحاب إذا فرقته فى أقطار السماء ، ومن الباب الريح تزجى السحاب إذا ساقته ، وفى ذلك حياتها وفى ضده موتها على ما يدل عليه قول القائل : أنشر الله الرياح بعثها ونشر الله الريح أحياها فنشرت أى حييت ، وقال المرّار الفقعسى :

وهـبّـت له ريـح الجـنـوب وأُحـيِـيَـتْ
له رَيْـدةٌ يـحيـى المَـاتَ نـسـيمُـهـا

والريدة الريح ، وصفها بالحياة كما وصفت بالموت :

إنـى لأرجـو أن تـمـوت الريـحُ
فـأقـعـد اليـوم فـأسـتـريـحُ

ومن عجيب الريح فى المفرد والجمع ما جاء فى الحديث من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا هبّت ريح « اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » والوجه فيه أن عامة ما جاء فى التنزيل على لفظة الرياح للسقيا والرحمة كقوله عز وجلّ «وأرسلنا الريِّـاح لواقح » وقـوله « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشّرات»والله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً » وما جاء بخلاف ذلك جـاء على الإفـراد كقـوله عز وجـل « وفى عـادٍ إذا أرسلنـا عليهم الريـح العقيم » وقوله « وأما عادٌ فأهلكوا بريح صرصر عاتية » و « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » فجاءت فى هذه المواضع على لفظ الإفراد وفى خلافها عـلى لفظ

الجمع .

فهل كان الجمع كذلك لأن من معانيه أن الريح جاءت نشراً من كل جانب فتعددت فكان منها الرحمة والسقيا ، كما كان إفرادها معناه السكون والموت ؟ .

- ٨ -

والسحاب لا يحمد إلا بسيره بل لايعرف إلا به فهذا مصيره ، والسحابة إنما سميت سحابة لانسحابها فى الهواء ، وهو أول ماينشأ نشء ، والخرج كالنشء ، ويقال قد خرج له خروج حسن ، كأنه كان مستسراً فظهر ولما ظهر تعلقت به الآمال ، إذ النشء أن تراه كالملاءة المنشورة .

ثم لاتزال العين ترأمه فى حركاته والقلب يحدوه فى نموه وامتداده ، وأول مايكون من ذلك أن يعرض فى الأفق ، ويقال له العانّ ، فالعارض من السحاب الذى يعرض فى قطر من أقطار السماء من العشى ثم يصبح وقد حبا واستوى ، وإذا أقبل وأخذ يعلو فهو الحبىّ كأنه يعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبّق السماء أو يشرف على الأرض من الأفق وقد دنا إليها ، وهو من حبو الصبىّ .

ثم يطبِّق الجو بأن يتغشّاه وتظهر منه ثقَبُه ومخارج الماء منه وهى التى يقال لها خلَل السحاب وخلاله ، فإذا التأَم وتبسّط حتى يعم السماء فقد تدجّى وذلك إذا لم تر خللاً ولا فتْقا .

ومن أسمائه ماأخذ من دنوه من الأرض وامتلائه من الماء ويقال له المكفهرّ وهو الذى يَسوادّ ويصهابّ ويُعرف فيه المطر ، ومنه المِسفّ وهو مايتدانى من الأرض ، والسَّقط طرَف منه يرى كأنه ساقط على الأرض فى ناحية الأفقِ كأنه طائر يسقط بجناحيه ، ثم يتدانى ويثقل أو يتخزّل ويتراجع أو يسير سيراً ، رويداً أو يتحيّر فلا يتجه جهة ويتحرك بعضه فى بعض ، وكأنما راعهم معه ثباته فأطلقوا عليه فى اللحظة التى يكون فيها كذلك الصبير مأخوذ من الصبر وهو الحبس ، والصبير السحابة البيضاء التى يقال لها الفاسقة من أجل ذلك .

وتقطُّع السحاب وجه آخر من وجوه تسميته فيجعلون منه كالنمر وهو قطع صغار متدانٍ بعضها من بعض ، والنَّمِرة إذ تراها كجلد النمر من غيمٍ صغار تكاد تتصل وفعله نمُر .

ومن الباب القَزَع يقال للسحاب الصغار الذى يتطاير فى السماء والقطع الرقاق التى تمر كالظل ، ومثله الكِسْف وهى السحابة العريضة ، والصِّرمة والرمىّ سميت كذلك

لأنها قدر الكف أو أكبر شيئاً والجمع أرماء .

ثم يرون فيه قطعاً كالجبال يقال لها الكنْهور واحدتها كنْهَورة ، ومثلها القَلَع والخال وهى السحابة الضخمة والجمع خِيلان ، ويكللون السحابة بقطع من السحاب ويثقلونها بالماء فى السحابة الدلوح ، ويمكنون الرياح من اعتصارها واستنزال قطرها فتكون المعصرات ومنه قوله « وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجّاجاً » وربما رأوا فيها نجاةً من البلاء وملجأ من الجدب بالخصب ، والعُصْرة الملجأ ، قال ابو زبيد :

صادياً يستغيث غير مُغاث
ولقد كان عُصْرةَ المنجود

ومنه الاعتصار فى قول عدىّ بن زيد :

لو بغير الماء حلقى شرِقٌ
كنتُ كالغصّان بالماء اعتصارى

وتتناهى صيرورة السحاب فى المكان فيعلو منه مايعلو ويسفل منه مايسفل وذلك كِفافُه وهى أسافِله ثم شماريخه وهى أعاليه وبواسقه ، وقواعده أركانه كأركان البنيان ، ورحاه مستداره ، ومستأرضه متمكنه وهو مأخوذ من الأرض يقْتنصون فى كل ذلك السحاب ويخشون عليه الزوال ويرجون المطر ، روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن سحائب مرّت فقال كيف

ترون قواعدها وبواسقها ، أجونٌ أم غير ذلك ، وقال كيف ترون رحاها ، ثم سأل عن البرق أخفوا أم وميضاً أم يشق شقًّا ، فقالوا يشق شقاً فقال جاءكم الحيا .

ولحظوا السحابة بعين حانية تأسى لمفارقتها أخواتها أو لأنها تمطر بأماكن أخرى فيسمونها الفارق والغيابة ، وجعلوها شاخصة مشرفة وسموْ ماكان منها كذلك خناذيذ الغيم وهى أطراف منه ، وتتبعوا السحاب أبعد مايُرى فأطلقوا عليه طرة الغيم من أجل ذلك .

وكما راموا له الثبات فى الأرض فقالوا استأْرض السحاب ثبت وتمكّن وأرسى وألقى أكنافه واورواقه ومراسيه ؛ سموه بالجهة التى يقبل منها فقالوا العين للسحاب الذى أقبل من ناحية القبلة وعن يمينها يعنى قبلة العراق ، يقال كما فى اللسان هذا مطر العين ولا يقال مطرنا بالعين ، وقال ثعلب اذا كان المطر من ناحية القبلة فهو مطر العين والعين اسم لما عن يمين قبلة اهل العراق ، وكانت العرب تقول إذا نشأت السحابة من قبل العين فإنها لاتكاد تخلف ، أى من قبل قبلة أهل العراق ، وفى الحديث إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غُدَيْقة هو من ذلك قال وذلك أخلق للمطر فى العادة .

ومن أجل ذلك كان العين مطر أيام لايقلع ويدوم خمسة أيام أو ستة .

قال الراعى :

وأنـــاءُ حـــىٍّ تــحـــت عـــينٍ مــطيـرة
عــظامِ البـيــوتً يــنــزلون الروابــيــا

يعنى حيث لاتخفى بيـوتهم يـريـدون أن تـأتيهم الأضياف ، والأناء جمع نُؤْى وهو الحاجز حول الخيمة وذلك تحت سقف من العين المطيرة ، فى مكان طليق ليس له حـدود إلا الروابى التى ينزلهـا أصحـاب البيـوت وأضيافهم .

وتتداعى اللغة على إيقاع هـذا الوجدان السحـابى الذى يوغل فى أعماق المكان فيلتقط لحظات السحاب وقد ارتفع وتراكم وركب بعضه بعضاً ، فيكون منه الركـام والمكفهـر وهو الذى يغلظ والنشـاص وهـو الذى يعلو ويطول ، والعرَّاص ، وهو مااضطرب فيه البرق والطل من فوقه حتى صار كالسقف ، والقَرِد الذى تلبّد بعضه على بعض .

ومن الباب مايكون بعضه فـوق بعض ودون بعض يتلون أو تتدلى منه أطراف كـالرباب وهـو المتعلق دون السحاب وقد يكـون أبيض ويكون أسـود ، أو كأن له نوائس متدليـة ويقال له الهيْـدب إذ يدنـو مثل هُـدْب القطيفة ، وربما يتسلسل فى وجهه للوْدق فينصب كأنه خيـوط متصلة ، وإذا كان كـذلك كـان أهـدب وأوطف

ومؤنثه وطفاء .

وكما صنعوا له إكليلا ألبسوه غفارة وجعلوا له أفانين وهى أوائله كأوائل الشباب وأفانينه ثم نسجوا له ، والوَدْق يخرج من خلاله قد اتصل بالأرض مايشبه الريط المنشّر وسموه السبل .

وكان لهم من قِبل كثرة الماء وقلته وجه آخر من وجود تسمية السحاب وصفته فقالوا المزن للماء الريّان كما قالوا الحمل للسحاب الكثير الماء .

وربما آلت كثرة الماء إلى خضرة تضرب إلى السواد كما فى قول القائل :

سقى أمَّ عمرو كلَّ آخر ليلةٍ
حَناتمُ سُحْمٌ ماؤُهن ثجيج

وفى اللسان عن الأزهرى وقيل للسحاب حنْتم وحناتم لامتلائها من الماء شبهت بحناتم الجرار المملوءة ، قال طفَيل الغنوى :

له هيدبٌ دانٍ كأن فروجه
فويقَ الحصى والأرض أرفاضُ حنْتَم

أرفاضه قطعه وماتكسّر منه .

ثم جعلوها أنثى فقالوا لها سحابة حُرّة بِكر ، قال :

جادتْ عليها كلُّ بكْرٍ حُرَّةٍ
فتركْن كل حَديقةٍ كالدرهم

وفى ضد ذلك يقال للسحاب الذى لا ماء فيه جُلْب والجمع أجلاب كأنه سحاب الشدة والجهد والجوع يكثف وهو ظمآن ويكون فيه الرعد والبرق ومن أجل ذلك قيل فيه ماقيل :

كجِلْب السوء يُعجب من رآه
ولا يشْفى الحوائمَ من لَماق

واللماق اليسير من الطعام والشراب ، وخص بعضهم به الجحد يقولون ماعنده لماق وماذقت لماقاً ولا لماجاً أى شيئاً .

ومن أسمائه أيضاً الهِف وهى كلمة من كلمات الأسى لأنها تنضح بالسلب الذى كان حقه الإيجاب والجدب الذى كان ينبغى أن يكون خصباً كالشهدة التى كان ينبغى أن تحمل العسل إلا أنها جاءت خلواً منه .

وإذا ولّت السحابة وهراقت مافيها من ماء كانت كالهاربة من حقيقتها والمنهزمة ويقال لها النِّجاء وجمعه نجوّ وقد وجد فيها جميل مراحاً لألمه مع وجيب القلب والهموم حيث يقول :

أليس من الشقاء وجيب قلبى
وإيضاعى الهموم مع النُّجوّ
فأحزن أن تكون على صديق
وأفرح أن تكون على عدوّ

وأبحت السحابة ولت ، وإذا كان من معنى النجوّ وهو السحاب أول ماينشأ كان مقتضاه أنه ولد ميتاً مختنق الأنفاس .

ويلاحقه مايشبه الفزع فيما يقال له الجَفْل كأنه فرّغ ماءه ثم انجفل وتفرق ، ويلوح منه وجه كريه كالح فى قولهم له الجهام لأنه لا خير فيه .

وأمارات الغيث عندهم كالمخاض للولادة يطرب لها الكون ويتألم ويرقبون لها آثاراً ودلائل فى الشمس والقمر ، فمن دلائله من جهة الشمس حمرة تكون عند مغربها هى كما قال شاعرهم : حمرة دمها لما اغتالها الأفق،ومن أماراته من جهة القمر : هالة حوله كثيفة مظلمة .

وزعموا أن بنات مخْرٍ إذا رئين فى أول الشتاء كان ذلك العام خليقاً للمطر وهو النشء تراه من قبل المشرق ، وبنات مخر سحائب يأتين من قبل الصيف وهى منتصباتٍ رقاق بيض حسان ، ولايبعد أن يكون المخر ـ كما فى اللسان ـ من قوله عز اسمه (وترى الفلك فيه مواخر) وذلك أن السحاب كأنها تمخر البحر لأنها فيما تذهب إليه عنه تنشأ ومنه تبدأ المكان .

وكلامهم فى الخلاقة للمطر أكثر من المطر نفسه ولهم فيه فراسات غير البرق وكلها خالٌ ومخيلة إذا كانت

خليقة للمطر ، فى لغة تحمل فى طياتها المصير ، وهمها أن تنبىء عما سيكون أكثر مما تدل على ماكان ، تدفع الخوف بالأمل وتبحث عن الاستقرار على الأرض للانسان والحيوان ، ولا تكاد لغة تبلغ من صفة الرعد والبرق وأحوالهما ماتبلغ العربية ، فبين أخفى الرعد وأشده درجات شتى من الأصوات ، وفى البرق مثله ، وأخفى الرعد الرزّ والدوىّ فإذا زاد فهو الإرزام ثم القرقرة وهو حين يفصح السحاب بالرعد كأنه كان يجمجم قبل ذلك .

قال الراجز يصف سحاباً :

حتى إذا كان على مُطار
يسراه واليمنى على الثرثار
قالت له ريح الصبا قرقار

يعنى قالت له قرقر ، ومطار كغراب واد بين البوباة والطائف ، والثرثار بالجزيرة .

فاذا زاد فهو التهزّج وهو أن يرجّع بالرعد ، فإذا زاد على ذلك حتى كأنه يتشقق فذلك التهزّم والهزْمة ، وأشد منه القعقعة ، ثم الرعد اللجب . فإذا صفا صوته فهو الجلجلة والصلصلة ، فإذا بلغ الغاية فى الشدة فهو القاصف .

وأما البرق فأول بدئه الإيشام وقد أوشمت السماء ،

ومنه قيل أوشم النبت إذا أبصرت أوله ، وأضعفه الخفو والتبسّم نحوه والانكلال كالتبسم وهو قدر مايريك سواد الغيم من بياضه ، فإذا زاد قليلا فهو اللمْع ، فإذا زاد فأضاء كل شيء فهو الائتلاق والتألق ، فإذا رأيته في وسط السحاب كأنه سيف مسلول فتلك العقيقة وهي شعاعه .

ثم تتهلل السحابة بالبرق وتتلألأ ويخرج البرق من أعراض السحاب ويشق صعُدا ويقال له المستطير .

ويعرف أيضاً بأثره فيقال خطِف البصر إذا ذهب به . وفي التنزيل « يكاد البرق يخطَف أبصارهم [1] » ومثله البرق الخُلّب من الخلابة وهو الخداع وذلك إذا برقت السماء حتى تطمعك في المطر ثم أخلفت فلم تمطر .

وكما يعرف بما يكتنفه من زمان أو مكان أو شيء ما يُجرى فعله عليه ويستوعبه كاليوم الخدِر للندىّ ، واليوم الدامع ، والديمة للمطر يدوم اليوم واليومين والثلاثة ، والخضِل لكل شيء ندٍ يترشش نداه ، والرش المطر الخفيف القليل .

ويقال للأرض طلّت فهي طلّة كما يقال طلّت ليلتنا ، والأرض المربوعة والمصيفة والمخروفة من الربيع والصيف والخريف حيث يتداخل الزمان والمكان .

(١) البقرة ٢٠

وأسماء المطر مأخوذة من ضعفه وشدته ، وقوته وكثرته ، وأخفه وأضعفه الطل ثم الرذاذ والنضح فويق ذلك وربما كان بِريح ، والهطلان تتابع المطر المتفرق العظيم القطْر والوابل المطر الشديد ، والغَدِق المطر الكثير .

وقد كانوا فى الجاهلية يرون فى المطر والسحاب والرعد والبرق قوى من قوى الكون الخفية التى يعبدونها ، فمن نيرانهم نار الاستسقاء « كانوا فى الجاهلية الأولى إذا تتابعت عليهم الأزمات واشتد الجدب واحتاجوا إلى الأمطار يجمعون لها بقراً ، معلقة فى أذنابها وعراقيبها السلع والعُشَر[1] ، ويصعدون بها الى جبل وعر ، ويشعلون فيها النيران ويضجون بالدعاء والتضرع . وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصّل بها إلى نزول الغيث[2] » كأن ذلك لها من قبيل القربان .

وفى الحديث عن ابن عباس « لاتقولوا قوس قزح فإن قزح اسم شيطان قولوا قوس الله » مايدل على النهى عن هذه التسمية كراهة العودة إلى شىء من أمور الجاهلية كما قدمنا فى الأنواء .

---

(١) السلع شجر والعشر من كبار شجر العضاد .

(٢) نهاية الأرب للنويرى ١ / ١١٠ .

الفصل الثالث

الحيوان

إذا كانت الحياة تقتنص فى شىء من ألفاظ اللغة عند العرب فهى إنما تقتنص فى لفظ الحيوان الذى يطلق على جنس الحى ، وهو والحياة وإن كانا بمعنى واحد فإن فى بنائه زيادة معنى ليس فى بناء الحياة . فمجيئه على فعلان مبالغة فى معناها ، وفى بناء فعلان من الاضطراب ما فيه كالنزوان وما إليه ، وفى الحيوان الحياة الدائمة ، حتى لقد سمى الله عز وجل الآخرة حيوانا من أجل ذلك فقال (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان [1]) لأن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حيا فيها لا يموت ، فمن أدخل الجنة حيى فيها حياة طيبة ومن دخل النار فإنه لا يموت فيها ولا يحيا ، كما قال تعالى .

وأسماء أجناس الحيوان مأخوذة من

(١) العنكبوت آية ٦٤ .

الاضطراب والحركة التى تظهر على أوضاع شتى تتبعتها العربية ذلك كما تتبعت غيرها من مظاهر الحياة فأثبتتها ، فكانت هذه الأسماء كاللحظات المستقرة فى سيل الصيرورة احتضنت جزءا من كيان الانسان ودلّت على تاريخه فى الأعصر الأولى وهو يجاور النافر والطائر ، والصاهل والحامل ، والسانح والسائح ؛ يروعه منها الناب ويروقه منها ما كان موشّى الإهاب .

وربما رأى فى قرونها السلاح ، وفى أظلافها الكد والسعى ، وفى ثغائها السرور والخصب ، وفى ركضها المنعة والعزة ، وفى أجنحتها النهوض ومكابدة الصعود .

ثم صارعها وختلها فى بطون الأودية وعلى سفوح الجبال ، ورآها وهى تطوف بالقتيل وتلعق الدم وتأكل الجيفة ، وتثب وتصيح ، وتغرّد وتنوح ، واتخذ من جلودها البيوت ، ومن أوبارها وأشعارها الكساء .

وكان له فى كل منها آية ، فمنها ما كان سببا من أسباب الوحشة ، ومنها ما كان سبيلا إلى الأنس والرحمة ؛ وقد عبدها حينا ثم كفر بها ، وامتدت إليها القدسية ثم نزعت عنها ، وبقيت آثار ذلك فى

الأساطير التى توارى أكثرهـا من المعجم العربى وضـربت لهـا الأمثـال ، وذكـرت بهـا الطبـائـع والصفات .

ومن وجوه تسمية الحيوان ما ذكره الجاحظ وهو عـلى أربعة أقسـام :**شىء يمشى ، وشىء يطير** ، وشىء يعوم ، وشىء ينساح فى الأرض ، إلا أن كـل شىء يطير يمشى وليس كل شىء يمشى يطير .

فأما النوع الذى يمشى فهو على ثلاثة أقسام : نـاس وبهائم وسبـا ع ، والطير كله سبـع وبهيمة وهمج ، والخشاش ما لطف جرمه وصغر جسمـه وكان عديم السلاح ، والهمج ليس من الطيور ولكنه يطير ، وهو فيما يطير كالحشرات فيما يمشى .

والسبـع من الطير مـا أكل اللحم خـالصـا ، والبهيمـة مـا أكـل الحب خـالصـا ، والمشتـرك كالعصفور فإنه ليس بـذى مخلب والا منسروهـو يلتقط الحب ، ومع ذلك يصيد النمل ويصيد الجراد ويأكل اللحم ، ولا يزق فراخه كما يزق الحمام فهو مشترك الطبيعة ، وأشباه العصافيـر من المشترك **كثيرة** .

وليس كل ما طار بجناحين من الطير ، فقد يطير الجعـلان والذبـاب والزنـابيـر والجـراد والنمـل

والفراش والبعوض والأرضـــة والنحل وغيـر ذلك ولا تسمى طيورا [١] .

ومن أجناسها النعم وهى عند اللغويين الإبـل والشاة يذكر ويؤنث ، قال تعالى (نسقيكم مما فى بطونها[٢]) وقال فى موضع آخر (**مما فى بطونه**[٣]) والجمع أنعام ، وعند الفقهاء النعم يشمـل الإبل والبقـر والغنم ، وقال ابن الأعـرابى النعم الإبـل خاصة والأنعام الإبل والبقر والغنم .

وكأن الإسلام أراد من النعم النعمة والتسخير وسهولة الانقياد بحيث لا تكون لها شراسة الدواب ونفرة السباع كما قال تعالى (وذلّلناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفــلا يشكـرون [٤]) وذلك خـــلافـا لصنيعهم فى الجاهلية على ما بينه تعالى فى قوله (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة و **لاحام**[٥]) .

ولفظ جعل لا يتجه أن يكون بمعنى خلق لأن الله **تعالى خلق هذه الأشيـاء كلها ، ولا بمعنى صـيّر**

---

(١) الحيوان ١ / ١٤ ط الساسى .

(٢) المؤمنون آية ٢١ .

(٣) النحل آية ٦٦ .

(٤) يس آية ٧٢ .

(٥) المائدة آية ١٠٣ .

لعدم المفعول الثانى . ، وإنما هى بمعنى ماسنّ وماشرع ولذلك تعدى إلى مفعول واحد .

والبحيرة : هى الناقة ، كانت إذا ولدت خمسة ابطن بحروا أذنها ، أى شقّوها وحرّموا ركوبها والحمل عليها ، ولم يجزّوا وبرها ، وتركوها تأكل حيث شاءت ، لا تطرد عن ماء ولا كلأ ، ثم نظروا إلى خامس ولدها ، فإن كان ذكرا نحروه فأ كله الرجال والنساء ، وإن كان أنثى تحروا أذنها وتركوها وحرموا على النساء لبنها ومنافعها ، وكانت منافعها للرجال خاصة ، فإذا ماتت حلّت للرجال والنساء .

وقيل كانت الناقة إذا تابعت اثنتى عشرة أناثا سيِّبت فلم تركب ظهورها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، فما نتجت بعد ذلك من أنثى بحر اذنها ثم خلى سبيلها مع أمها فى الإبل فلم تركب ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلاضيف كما فعل بأمها فهى البحيرة بنت السائبة .

والبحر الشق ، قيل ومنه سمى البحر بحراً لشقه الأرض ، والبحيرة فعيلة بمعنى مفعولة .

والسائبة الناقة التى سيِّبت ، وذلك أن الرجل من أهل الجاهلية إذا مرض أو غاب قريبه نذر فقال

إن شفانى الله أو شفى مريضى أو ردغائبى فناقتى هذه سائبة ، ثم يسيبها كالبحيرة فلا تحبس عن مرعى ولا ماء ولا يركبها أحد .

وقال سعيد بن المسيب : السائبة الناقة التى كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء ، والبحيرة الناقة التى يمنع درّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ، وقيل السائبة الناقة إذا ولدت اثنتى عشرة أنثى سيبت .

والسائبة فاعلة بمعنى مفعولة ، كقوله ماء دافق أى مدفوق ، وعيشة راضية أى مرضية .

والوصيلة من الغنم ، كانت الشاة إذا ولدت ثلاثة بطون أو خمسة وقيل سبعة ، فإن كان آخرها جدياً ذبحوه لبيت الآلهة وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كانت عناقاً استحيوها ، وإن كان جدياً وعناقاً[1] استحيوا الذكر من أجل الأنثى وقالوا هذه العناق وصلت أخاها فلم يذبحوه ، وكان لبن الأنثى حراماً على النساء ، فإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء جميعاً .

والحامى هو الفحل من الإبل إذا لقح من صلبه

---

(١) العناق الأنثى من أولاد المعزى إذا أتت عليها سنة .

عشرة أبطن ، وقيل إذا ضرَب عشر سنين ، وقيل إذا ولد من ولد ولده ، وقيل إذا ركب من ولد ولده ، قالوا قد حمى ظهرَه فلا يركب ولا يحُمل عليه شيء ولا يمنع من كلأ ولا ماء ، فإذا مات أكله الرجال والنساء .

فأعلم الله تعالى أنه لم يحرم من هذه الأشياء شيئاً بقوله عزّ وجلّ (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) وإنما هذه كلها من أفعال الجاهلية التى نهى الله عنها[1] .

وهذه كلها من النذور والقرابين الحية ، تسمى باسم الأرباب فتحبس عليها ، وتكون حرة طليقة لا تمس بسوء ، والظاهر أن ذلك يرجع إلى عهود سحيقة ، وينسب إلى **عمرو بن لحىّ** وكان أول من غيّر دين إسماعيل عليه السلام ، ونصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامى ، وقد ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة أنه قال لأكثم بن الجون الخزاعى « ياأكثم ، رأيت عمرو بن لحى يجر قُصْبَه[2] فى النار ،فما رأيت من رجل أشبه برجل منك

---

(١) الدميرى : حياة الحيوان ٢/٢٦٨ وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٥/٢٠٨

(٢) القصب اسم للامعاء كلها أو ماكان أسفل البطن من الامعاء .

به ولا بك منه ، ولقد رأيته فى النار يؤذى أهل النار بريح قصبه ، قال أكثم : أيضرنى شبهه يارسول الله ؟ قال لا ، إنك مؤمن وهو كافر » .

فالإسلام إنما رام تجريد هذه الحيوانات وأمثالها من التوحش والقداسة التى كان يضفيها عليها الجاهليون وصرف معانيها إلى وجوه الانتفاع بها إذ هى خلق من خلق الله تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جَمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لاتعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم اجمعين)[1] .

* * *

---

(١) النحل اية ٥ وما يليها .

الناقة

وقد كان التعلق بالحيوانية عندهم تعلق الخائف من الموت والفناء والراغب فى الحياة والخلود ، فتعاطوها فى اللغة من الجهتين وأقبلوا عليها من الطريقين وكان تاريخهم معها حافلا بما يحفل به كل تاريخ يحمل معنى المصير ، وكانت وجوهها أقنعة يتنكر فيها الزمان الذى يفتك ببنى الانسان ، ولما أراد أبو ذؤيب أن يجسد المنية جسدها فى سبع له أظفار فقال :

وإذا المنيةُ أنشبت أظفارها
ألفيتَ كل تميمة لاتنفع

وكأنه فى ذلك يرجع الى عقيدة قديمة الحيوان فيها تمثال رابض للحداد وشبح اسود ينتهى عنده الميلاد .

ومن قولهم فى المجاز مشت رواحله إذا شاب وضعف ، والشيب لغة الموت تدل عليه بنوع من الدلالة فى الحياة .

والانسان لم يزل ضالا فى طلب الحياة يلتمسها من كل

وجه حتى اذا تأتّت له أسبابها انقض عليها بحرصه وشراهته ولايدرى أنه إنما يذهب الى الفناء بما كسب ، ويدمر وجوده اذا تمادى وغلب ، وماالناقة التى ذكرها الله فى القرآن إلا رمز اللعنة التى تلحقها الضراوة والكفر وأشباههما من الصفات ، بمن تقتحم نزعاته على الحقيقة الإلهية وتلتبس عنده معانى الأشياء ، قال تعالى : (كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها)[1] .

وليس فى قصة الناقة إذا هى أخذت من هذا المعنى مايدعو الى المكابرة فى تفاصيلها على ماسيقت فى كتب التاريخ والآثار ، فالعبرة فى مثلها ليست بالحقائق التجريبية بل فى رمزيتها الكثيفة التى تحتمل ماكان فيها من فتنة كما قال تعالى : (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم)[2] .

وتفصيل القصة أن صالحاً عليه السلام أُتى بالناقة من قبل نفسه ، وقال الجمهور بل سألوه ان يدعو ربه ان

---

(١) الشمس آية ١١ ومايليها

(٢) القمر آية ٢٧

يخرج لهم آية من صخرة يقال لها الكاثبة ناقة عشراء فدعا الله فانشقت عن ناقة عظيمة ، يروى انها كانت حاملا فولدت ، وهم ينظرون إليها ، سَقْبا قدرها ، فعقرها قُدار بن سالف ، وهو أشقى الأولين ، تعاطى فعقر ، أى قام على أطراف أصابع رجليه ثم رفع يديه فضربها .

روى ان سيد ثمود جنْدع بن عمرو قال ياصالح أخرج لنا من هذه الصخرة ـ لصخرة منفردة فى ناحية الحِجْر يقال لها الكاثبة ـ ناقة مخترجة[1] جوفاء وبراء عشراء ، فصلى صالح ركعتين ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخّض النتوج بولدها ثم تحركت فانصدعت عن ناقة مخترجة جوفاء ، لايعلم مابين جنبيها عظما إلا الله تعالى وهم ينظرون ، ثم نتجت سقباً مثالها فى العظم ، فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه ، فقال لهم صالح عليه السلام : هذه ناقة الله لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم ، فمكثت الناقة ومعها سقبها فى أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت ترد الماء غباً ، فاذا كان يوم شِربها وضعت رأسها فى بئر فى الحجر يقال لها بئر الناقة لاترفع رأسها حتّى تشرب كل مافيها فلا تدع فيها

---

(١) معنى المخترجة انها جبلت على خلقة الجمل وهى أكبر منه و أعظم

قطرة ، ثم ترفع رأسها فتتفحج لهم فيحلبون منها ماشاءوا من لبن فيشربون ويدخرون ويملأون أوانيهم كلها ، ثم تصدر من غير الفج الذى وردت منه لأنها لاتقدر أن تصدر من حيث جاءت ، فإذا كان الغد كان يومهم فيشربون من الماء ماشاءوا ويدخرون ماشاءوا ، فهم من ذلك فى بر ودعة .

وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادى فتهرب منها المواشى إلى بطن الوادى فى حره وجدبه ، وتشتو إذا كان الشتاء ببطن الوادى فتهرب مواشيهم الى ظهر الوادى فى البرد والجدب ، فأضر ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار ، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن امر ربهم ، وحملهم ذلك على عقر الناقة ، فعقرها قُدار بن سالف وهو أشقى الأولين ، وكان أحمر أزرق قصيراً ملتزق الخلْق واسم أمه قديرة .

روى أنه ولد على فراش سالف ولم يكن من ظهره ، فدعته امرأة يقال لها عُنيزة وكانت عجوزاً مسنة وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم ، وكان قدار عزيزاً منيعاً فى قومه ، فقالت له : أعطيك أىَّ بناتى شئت على أن تعقر الناقة ، فانطلق قدار ، فكمن لها فى أصل شجرة على طريقها ، فلما مرت به شد عليها بالسيف فعقرها ، فذلك قوله تعالى : (فتعاطى فعقر)

أى قام على أطراف أصابع رجليه ثم رفع يديه فضربها فجرت ورغت رغاءة واحدة تحذر سقبها ، فانطلق السقب حتى أتى جبلا منيعاً يقال له صنو ، وأتى صالح عليه السلام فقيل له : أدرك الناقة فقد عُقرت ، فأقبل وخرجوا يتلقونه يعتذرون إليه ويقولون يانبى الله ، إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا ، فقال انظروا هل تدركون فصيلها ، فان أدركتموه فعسى إن يرفع عنكم العذاب ، فخرجوا يطلبونه ، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه ، فأوحى الله الى الجبل فتطاول فى السماء حتى ماينا له الطير .

وكان عقر الناقة يوم الأربعاء ، فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت بالخلوق ، صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم ، فأيقنوا بالعذاب ، وكان صالح عليه السلام قد أخبرهم بذلك وخرج هارباً منهم ، فشغلهم عنه مانزل بهم من عذاب الله ، فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون فى وجوههم ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ان قد مضى يوم من الأجل ، فلما أصبحوا يوم الجمعة اذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدماء ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم الا قد مضى يومان من الأجل ، فلما اصبحوا يوم السبت اذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى الأجل وحضركم العذاب .

فلما كان يوم الأحد لما اشتد الضحى اتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء له صوت يصوّت به فى الأرض ، فقطعت قلوبهم فى صدورهم فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

وكان الذى آمن بصالح عليه السلام من ثمود أربعة آلاف ، فخرج بهم صالح إلى حضرموت ، فلما حضرها صالح مات فسميت حضرموت ، ثم بنى الأربعة آلاف مدينة يقال لها حاضور .

وروى أحمد والطبرانى والبزار بإسناد صحيح عن جابر رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال (لاتسألوا نبيكم الآيات ، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث لهم آية ، فبعث لهم الناقة ، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم ورودها وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروا الناقة ، فقيل لهم تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام أو قيل لهم إن العذاب يأتيكم الى ثلاثة أيام ، ثم جاءتهم الصيحة فأهلكت من تحت أديم السماء منهم فى مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلا واحداً كان فى حرم الله تعالى فمنعه من عذاب الله عز وجل ، قالوا يارسول الله من هو ؟ قال أبو رغال ، قيل ومن هو أبو

رغال قال جد ثقيف)[1] .

ولو قلنا بعد هذا الذى أثبتناه من قصة الناقة إن مصير ثمود هو فى مصيرها لما أبعدنا عن موضع الحكمة فيها ومغزاها ، فبداية ذلك وأوليته هو كما قال الله عز وجل (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين[2]) .

وقوم عاد ومساكنهم مابين عُمان إلى حضرموت فى الرمال والتلال التى يقال لها الأحقاف إنما أهلكهم الله لكفرهم وتماديهم فى عبادة الأصنام بعد أن أنذرهم هود عليه السلام وألزمهم وهم يجادلونه على ماحكى القرآن عنه وعنهم فى قوله تعالى (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إذ نقول إلا اعتراك بعضُ آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أني برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتُنظرون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط

(١) حياة الحيوان ٢ / ٣٣١ ومايليها
(٢) الأعراف آية ٧٤

مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ماأرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوماً غيركم ولاتضرونه شيئاً إن ربى على كل شىء حفيظ)[١] فأمسك الله عنهم المطر وأجدبت الأرض وخرجت عليهم الريح واستمرت (سبع ليال وثمانية أيام حسوماً)[٢] أى دائمة فلم تترك على وجه الأرض شيئاً إلا نسفته نسفاً وتركتهم كأنهم (أعجاز نخل منقعر[٣]) بعد أن مزقتهم كل ممزق .

ثم جاءت ثمود وعمرت الأرض وكانوا قبائل شتى ذوى بطش وقوة ومنازلهم فى ديار الحجر من وادى القرى بين الحجاز والشام ، ومقتضى كونهم خلفاء لبنى عاد مراعاتهم للتاريخ الإلهى والنزول على أحكامه على ماتستوجبه إرادة الله عز وجل بالوحى المنزل من السماء وإلا حل بهم من الهلاك ماحل بسواهم من الأمم بناء على مااستقر فى ضمير البشرية منذ الأعصر الأولى وماثبت فى الكتب المنزلة كما فى قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون[٤]) وقوله (ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة

(١) هود آية ٥٣ ومايليها
(٢) الحاقة آية ٧ .
(٣) القمر اية ٢٠
(٤) الأنبياء آية ١٠٥

ولايستقدمون)[1] كأن السابق الهالك واللاحق الناشىء يحققان دورة ذلك التاريخ من اجل استمرار الحياة البشرية على الأرض .

ورسالة صالح عليه السلام كغيرها من الرسالات جوهرها التوحيد على ماتوجبه الفطرة التى لم يلوثها الشرك ، وكان الذى انتهت اليه ثمود بمثابة المأساة فى الوعى الدينى لديها ، الى مثله تنتهى الأمم والجماعات البشرية عند انحلال عقد التوحيد فيها ، فتنسى خالقها وخالق السموات والأرض ومقلب الليل والنهار وفالق الحب والنوى ومخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ثم تنزع الى التعلق بالمحسوس فتشكل الصور للآلهة وتصنع لها التماثيل وتنحت الأصنام وتقبل عليها بالعبادة وتتوجه اليها بالتقديس .

وكل ماكان عند ثمود من هذا الباب يؤول على مايظهر الى الطوطمية وآثارها لأن اكثر آلهتهم على أشكال الحيوان ، فصنمهم على ماورد فى الاخبار قد فتحوه فى جبل يقال له الكثيب وجعلوا وجهه كوجه الانسان وعنقه وصدره كالبقر ، ويديه ورجليه كالخيل ، وضربوه بصفائح الذهب والفضة وعقدوا على رأسه تاجاً ورصعوه

---

(١) الأعراف آية ٣٤

بالدر والجوهر .

قيل فلما كمل خروا له سجداً وقربوا القربان وأقبلوا الى ملكهم فقالوا له : اخرج الى هذا الإله الذى اتعبنا انفسنا فى اتخاذه ! فخرج الملك إليه فى زينته وأصحابه ، فلما رأوه خروا له سجدا ، ثم امر الملك ان يتخذ له بيت وان يسقف بصحائف الذهب والفضة ويرصع بالجوهر وتفرش ارضه بالديباج ، وأمر أن تتخذ لسائر الأصنام بيوت وأن يتخذ سرير من العاج والأبنوس علـى عرض البيت ، قوائمه من الفضة ، وان تعلق قناديـل الفضة بسلاسل الذهب ، وامر ان يجعل للبيت مصراعان ، فى كل مصراع مائة حلقة من الذهب والفضة ويعلق عليهما ستران وسماها ستور العـز ، ووضع الصنم عـلى ذلك السرير وسـائر الأصنـام الصغار عـلى كراسى العـاج والأبنوس ، وأمر أن يندب لخدمـة الأصنام رجـل من أشراف قومه وأحسنهم وأنسبهم ، فقالوا ليس فى ثمود أشرف نسباً وأجمل وجهاً من (كانوه) ، فـاستدعـاه وقربه ، وتوّجه وسوّده ، وجعله على خدمة الأصنـام ، فقبل ذلك وتفرغ لخدمتها وعبادتها ، وقوم ثمود يعبدون ذلك الصنم ، وقد ازدادوا عتواً وتجبراً وكفراً وفساداً والله تعالى يزيدهم سعة وخصباً وهم يرون أن ذلك كله من

أصنامهم [1]) .

ومن تمام المفارقة الدرامية أن يكون (كانوه) سادن الأصنام أبا صالح عليه السلام ، وكأن الله عز وجل قد بعثه إبان أزمة دينية ظهرت آثارها فى صنع الإله الذى أتعبوا أنفسهم فى اتخاذه على ماقالوا فى القصة ، والمعبود الذى يخلق بأيدى عابديه مدخول بل معدوم ، لأن فى ذلك برهاناً على انتزاع القدرة منه ولاتثبت الألوهية إلا بها ، وانتزاع القدرة منه قتل له وتدمير .

ولايبعد أن يكون طلبهم الآية التى تدل عندهم على صدق رسالته من دواعى تلك الأزمة التى اصابت منهم مقتلا حين دعاهم الى التوحيد وهو يذكرهم بآلاء الله فى قوله (ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب [2]) وقوله (وماأسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أتتركون فى ما هاهنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولاتطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض

(١) نهاية الأرب ١٣ / ٧٢

(٢) هود آية ٦١

ولايصلحون ، قالوا إنما أنت من المسحّرين ، ماأنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين [١]) .

وبشرية الرسول هى الحجة التى يتذرع بها منكرو الوحى فى كل زمان ومكان ، كأنهم يتذرعون بها لتعلقهم بالمحسوس وعجزهم عن اقتحام العقبة التى تفصل البشرية عن الألوهية وتحول بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، والرد على ذلك هو فى الاحاطة التى أشار اليها التنزيل العزيز فى قوله تعالى (ألا إنه بكل شىء محيط[٢]) ونحوه ، فلا معنى للاحاطة والله أعلم إلا الجمع بين المتباينات فى علم الله الأزلى ووجوده المطلق الذى يتوقف عليه كل وجود ، وتدل عليه آياته من ارض وسماء ، وشمس وقمر ، وبحر وجبل ، ونبات وحيوان ، بحيث تنزل هى وسواها منزلة الرموز والعلامات التى يخرج فيها المرء من الحس الذى يتحيفه وآفات الشك التى تختلجه ليعرج الى معانيه فى الكلمات الالهية التى ينفد البحر قبل ان تنفد (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفِد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً)[٣] .

---

(١) الشعراء آية ١٤٥ ومايليها
(٢) فصلت آية ٥٤
(٣) الكهف آية ١٠٩

وقد كانت الناقة آية بهذا المعنى إذ هى ناقة الله كما قال تعالى ، طلعت عليهم من الصخرة الصماء وكأنها تخط بأقدامها حروف التحدى على مسمع من الجبال والصخور لتكون شاهداً على تمرد الانسان وكفره بخالقه ، فهى من هذه الجهة كالنذير ، فى رغائها الوعيد وفى حنينها الصيحة وفى خطوها رحلة الموت .

وتلقاها القوم بمثل ماتلقتهم به من التحدى على مايلوح ذلك فى الروايات التى تناهت اليها القصة فيما سقناه ، بحيث كانوا وإياها كالمختلفين ، فلها شرب يوم ولهم شرب يوم معلوم ، وكانت ترد الماء غباً ، فإذا كان يوم شربها وضعت رأسها فى البئر لاترفعها حتى تشرب كل مافيها فلا تدع فيها قطرة ، ثم ترفع رأسها وكأنها تغريهم فتتفحج[1] لهم فيحلبون منها ماشاءوا من لبن فيشربون ويدّخرون ويملأون أوانيهم كلها ، ثم تصدر من غير الفج الذى وردت منه لأنها لاتقدر أن تصدر من حيث جاءت .

ويشتد الخلاف حين تشتو وتصيف ، إذ كانت تصيف ، إذا كان الحر بظهر الوادى فتهرب منها المواشى الى بطن الوادى فى حره وجدبه ، وتشتو ، اذا

---

(١) الفحج تباعد مابين الفخذين

كان الشتاء ببطن الوادى ، فتهرب مواشيهم الى ظهر الوادى فى البرد والجدب .

ولا معنى لذلك الا تفجـر الأزمة التى تفيض فيهـا الروايات وتنطق فى احداها النـاقة اذ كـانت تقول اذا اصبحت : إلهى كـل من شـرب من لبنى وآمـن بـك وبرسولك فزده إيماناً ويقيناً ، ومن لم يؤمن بك وبرسولك فاجعل مايشرب من لبنى فى بطنه داء لا دواء ، إنك على كل شيء قدير .

قالوا فلما كانت تدعو بذلك صار القوم إذا شـربوا لبنها اعترتهم الحكّة فى أبدانهم ، فاجتمعوا وقالوا ليس لنا فى هذه من خير وأجمعوا على عقرها .

وعقر الناقة شؤم فى شؤم ، تتداعى اليه النساء قبل الرجال والعجائـز اللائى أدبر زمـانهن دون الجوارى الحسان ، لكى تفوح منهن جميعا رائحة المـوت الذى يقترب من ثمود والهلاك الذى يزحف على الحجر ، حتى يكون العرس الذى تعرضه عنيـزة لبناتهـا عرس الدم وزفافهن الى قدار زفاف الفناء .

وقدار وهو أشقى الأولين ـ على ماقيل ـ أقبح رجل فى ثمود ، فى عينيه زرقة وكأنهما عدستـان وأنفه أفـطس ولحيته بطوله ، وكأن قبحه هـو الذى أهّله لأن ينهض بأقبح رسالة فى التاريخ حين تعاطى فعقر .

والعقر لايكون إلا فى القوائم ، قال الأزهرى : العقر عند العرب كشف عرقوب البعير ، ثم يُجعل النحر عقراً لأن ناحر الإبل يعقرها ثم ينحرها .

ومن تمام القصة ماورد بعد ذلك من اخبار الهلاك فى رواية الكسائى قال : وصاح قدار بأصحابه : هلموا ، فقدموا فأَمرهم أن يقطّعوا لحم الناقة فقطعوا وطبخوا وقعدوا للأكل والشرب ، وصالح لايعلم بذلك ، فنادته الوحوش : ياصالح هتكت ثمود حرمة ربها وتعدوا أمره ، فأقبل بالمؤمنين من قومه ، فلما رآها بكى وقال إلهى أسألك ان تنزل على ثمود عذاباً من عندك .

فأوحى الله إليه أن أنذر قومك بالعذاب ، فبشرهم بعذاب الله ، فقالوا له افعل مابدالك ، فقد عقرناها ، وقد أنذرْت بالعذاب منذ بعيد ومانرى له أثراً ، فقال لهم (تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب [(١)]) .

وبات القوم ليلتهم ، فلما أصبحوا تفجرت آثار وطء الناقة بعيون الدم وظهرت الصفرة فى ألوانهم ، فقالوا ياصالح ماهذا التغيير فى ألواننا وبلادنا ؟ قال غضب ربكم عليكم ، فأجمعوا على قتله وقالوا إذا قتلناه امتنع عنا سحره ولاتمكنه الاساءة إلينا ، فتقدم التسعة الذين

---

(١) هود آية ٦٥

عقروا الناقة لقتله عندما أقبل الليل ، فوقف لهم جبريل ورمى كلا منهم بحجر فقتله .

فلما كان من الغد نظرت ثمود إليهم وقد قتلوا ، فقالوا هذا من فعل صالح ، فعزموا على الهجوم عليه وقتله ، فأمره الله تعالى بالخروج من المسجد ، فجاءوا ليقتلوه فما رأوه ، وأصبحوا فى اليوم الثانى وقد احمرت وجوههم ، وفى اليوم الثالث اسودّت فأيقنوا بعذاب الله ، وحفروا لأنفسهم حفائر ولأهليهم وأولادهم ، ولبسوا الأنطاع وجلسوا فى الحفائر ينتظرون العذاب وصالح يخوفهم وينذرهم عذاب الله وهم لايبالون به .

فلما كان فى اليوم الرابع أرسل الله تعالى جبريل فنشر جناح غضبه وأتاهم بشرارة من نار لظى ، وجعل يرميهم منها بجمر متوهج كأمثال الجبال وثمود باركة فى حفائرها ، وأخذ جبريل بتخوم الأرض فزلزلت بيوتهم وقصورهم ، ثم نشر جناح غضبه على ديار ثمود وصاح صيحة فكانوا كما قال الله تعالى : (فكانوا كهشيم المحتظر[1]) ثم أقبلت سحابة سوداء على ديارهم فرمتهم بوهج الحريق سبعة ايام حتى صاروا رماداً ، وفى اليوم الثامن انجلت السحابة وطلعت الشمس وجاء

---

(١) القمر آية ٣١

صالح بمن معه من المؤمنين فطاف بديـارهم واحتملوا مـاقدروا عليـه من اموالهم وارتحـل بقومـه الى ارض الشام ، فنزل أرض فلسطين وأقام عليـه السلام حتى مات[1] .

وقد ظل طائف الموت يطوف بالناقة منـذ ذلك الحين كأنها راية سوداء تخفق فى طريق الأقـدار والمصايـر ، لايخفيها تطاول الزمان ولا كر الليالى والأيام ، وكان زهير ممن أرقهم نتاجها وشقوا بآثار دمائها ، فقال فى معلقته يهجّن الحرب بين عبس وذبيان :

ومـا الحـرب إلا مـاعلمتـم وذقتـمُ
وما هـو عنهـم بـالحـديث المـرجَّمِ
مـتى تـبعـثـوهـا تبـعثـوهـا ذميمـة
وتضر إذا ضـريـتـمـوهـا فـتـضْـرَم
فـتعـركـكـم عـرك الرحـى بـثـفـالهـا
وتـلقـح كِشـافـاً ثـم تـنـتـجَ فـتـتئـم
فـتـنـتـج لكـم غـلمـان أشـأم كـلهـم
كـأحـمـر عـاد ثم تـرضـع فـتـفـطم
فـتـغـلل لكـم مـالاتُـغـل لأهـلهـا
قـرى بـالعـراق مـن قـفـيـز ودرهـم

(١) نهاية الأرب ١٣ / ٨٥

قوله (وماهو عنها بالحديث المرجم) معناه وما الخبر عنها بحديث يرجم فيه الظن ، فالمرجم الذى يرمى فيه بالظن ، وذميمة مذمومة ، وتضر معناه تضرى كما يضرى السبع ، ويروى (إذا ضريتموها وتلذم) أى تلزم ، قال الأصمعى يقال ألذم به إذ أُغرى به حتى لزمه ، قال عمر بن الخطاب : إياكم وهذه المجازر فان لها ضراوة كضراوة الخمر .

وتضرم تضطرم ، يقال أضرم نارك ، وقد تضرمت إذا اشتعلت ، يقال هو يتضرم من الغيظ ، قال ابوعبيدة : والضَّرم دق الحطب وماتسرع فيه النار الاشتعال وهو الضرام .

والثفال فى قوله (فتعرككم عرك الرحى بثفالها) جلدة أو خرقة تجعل تحت الرحى ليكون ما سقط من الطحين فى الثفال ، قال ابن الأنبارى ، ولم يرد كما تعرك الرحى ثفالها وإنما أراد عرك الرحى ومعها ثفالها ، أى عرك الرحى طاحنة يريد فى حال طحنها ، فالباء تقديرها تقدير الحال ، و لا تجعل الثفال تحتها أبداً إلا أن تطحن ، فإذا طحنت جعل الثفال تحتها حينئذ ، ويقال ثفِّل رحيَيْك وثفل لهما ، أى اتخذ لهما ثفالا .

والكشاف أن يحمل على الناقة فى كل سنة فتلقح وذلك أردأ النتاج ، ومثل الكشاف فى الغنم الإمغال ، وأحمد

النتاج فى الإبل أن يحمل على الناقة سنة ثم تجمّ سنة وذلك أقوى للولد ، وفى الغنم أن يحمل عليها فى السنة مرة ، فإذا حمل عليها فى السنة مرتين فذلك الإمغال.

ويقال نُتجت الناقة تُنتج نتاجاً ونتجها أهلها ولا يكون الفعل إلا فى قولك أنتجت الناقة وذلك إذا نُتجت فوضعت ولدها وليس أحد يحضرها ، ويقال ناقة كشوف وإبل وقد أكشف بنو فلان العام فهم كشفون .

وقوله (فتتئم) معناه تنتج اثنين فى بطن ، يقال أتأمت المرأة والشاة فهى متئم إذا ولدت اثنين فى بطن واحد ، فإذا كان ذلك من عاداتها قيل متآم وقال أبو جعفر : قوله كشافاً يعجل عليكم أمرها بلا وقت ، وأنتجت الناقة إذا بلغت وقت نتاجها ولما تنتج ، والكشاف منصوب على المصدر فى قول الكوفيين ، قال البصريون هو مصدر جعل فى موضع الحال .

وقوله (فتنتج لكم غلمان أشأم) معناه تنتج لكم غلمان شؤم ، وأشأم هو الشؤم بعينه ، يقال كانت لهم بأشأم يريد بشؤم ، فلما جعل أفعل مصدراً لم يحتج إلى من ، ولو كان أفعل تفضيل لم يكن له بد من مَن ، وإنما أراد كأحمر ثمود ، فاضطر الشعر إلى عاد فقال على جهة الغلط كما قال الأعشى :

فــإنــى وثــوبَــىْ راهــب اللجَ والتــى
بــنــاهــا قصىٌّ وحــده وابــن جــرهُــم

وقصى لم يبن الكعبة .

وقال أبو عبيد : كأحمر عاد وثمود سواء ، وقال بعض النسّاب إن ثموداً من عاد .

وقوله (ثم ترضع فتفطم) معنـاه أن أمرهـا يطول عليكم ولا يسرع انكشافها عنكم حتى تكون بمنزلة من يلد ويفطم ، وقال أبــو جعفر : المعنى أنهـا تُسرع بكم وتــدارك بذنــوبكم شراً بعــد شر فيفنى بعضكم بعضاً وتذهب أموالكم فى الحمالات .

ويقــال للصبى وللسخلة فى لغة نجـد رضع يَـرضَع رضاعاً وفى لغة تهامة رضع يرضِع ، وينشد أهل تهامة هذا البيت لابن همام السلولى :

وذمّــوا لنــا الدنيــا وهم يــرضِعــونهــا
أفــاويــق حــى مــا يــدرّ لهــا ثُــعْــل

الثعل زيادة فى أطباء الناقة والبقرة والشاة ، وذكره للمبالغة فى الارتضاع والثعل لا يدر .

وقوله (فتغلل لكم) قال يعقوب هذاتهكم أى هزء ، يقول لا يأتيكم منها ما تسرون به مثل ما يأتى أهل القرى من الطعام والدراهم ولكن غلة هذا عليكم ما تكرهون ، قال أبو جعفر : فتغلل لكم معناه أنكم تقتلون ويحمل

إليكم ديات قومكم فافرحوا فهذه لكم غلة[1] .

وألفاظ الشعر كلها من لغة الولادة والرضاع والطعام ، انتزعت منها معانى الحياة لتؤول فى نهاية مطافها إلى الموت والعقم والجوع والخراب ، تحلق أغربتها فوق بيوت عبس وذبيان وتغتال الوالد وما ولد والمرضع وما أرضعت ، وتسيل الدم قبل تضميد الجراح وترسل الدمع من المآقى قبل جفافه فيها ، ويغدر الطعام بالأكلة كما تغدر الرحى بطحنها والغلة بالمغلين .

فبين المتقابلات صراع كالصراع الذى يحتدم بين قوى الخير وقوى الشر هذه تريد أن تفترس وتلك تريد أن تعفى الكلوم ، والناقة مناط ذلك ومتعلقه لأنها أوله وآخره ، حملت ذلك من عهد ثمود رسالة إلهية مخيفة تتردد فى أصداء الرغاء الذى يتعالى إلى عنان السماء ، ليشهد الكون على كفر أبناء آدم وحواء ، وورثة قابيل وهابيل ، فى المنازعة والتقتيل ، بالحقيقة التى تضمرها غرائزهم وتكنها سرائرهم وتبطش بها أيديهم وتدّوى بهاحناجرهم ، ولقد تعجبت منها الملائكة وحق لها أن تتعجب فيما حكاه الله من سؤالهم وجوابه عن هذا السؤال (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء

---

(١) شرح القصائد السبع لابن الأنبارى ٢٦٧

ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون[1] .

وقد انتزع زهير هذه الحقيقة من فم الزمان لينطقه بعد صمته ويحركه بعد سكونه وعبر بها القرون الطويلة والآماد البعيدة ليزفها إليهم فى تابوت الموتى مكللة بتاج الفناء تطوف بها ناقة صالح يركض بين يديها قدار .

وهذه الحقيقة هى بنت العلم الذى استصرخه زهير والتذوق الذى استدعاه فى قوله .

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتُم

وما هو عنها بالحديث المرجّم

والعلم والتذوق فى هذا المقام كلاهما من باب واحد لأنهما صنوان ، يرتفع بهما الجهل القاتل والجوع المهلك ، والعلم تنتفى حقيقته الإنسانية إذا كان علماً مبناهعلى اللامبالاة فهو كالتذوق يكون بالوعى والإدراك الحى الذى يتنزى بالدم ويعض فى اللحم وينخر فى العظام .

ومن ثم انثالت فى كلمات زهير الرحى التى تضنّ بالقوت ، والرضيع الذى يموت ، والغلة التى تنقلب علقماً وسماً فى الأبدان ، والحديث الذى يسكت به

---

(١) البقرة آية ٣٠

الجنان ، والناقة التى تلد أشأم الغلمان ، وهى جمعياً من سياق واحد يؤول بعضها إلى بعض فى كتاب الحدثان .

ومثل زهير قمين بأن يستحضر ذلك من عهد عاد وثمود ليذكّر به ويتوخاه ، فقد كان سيداً حليما معروفاً بالورع ، هجا آل بيت من كلب بن عُلَيْم بن جناب وكان بلغه عنهم شيء من وراء وراء ، وكان رجل من بنى عبد الله بن غطفان أتى بنى عُلَيم وأكرموه لما نزل بهم وأحسنوا جواره ، وكان رجلاً مولعاً بالقمار فنهوه عنه فأبى إلا المقامرة ، قمر مرة فردوا عليه ، ثم قمر أخرى فردوا عليه ، ثم قمر الثالثة فلم يردوا عليه ، فترحل عنهم وشكا ماصُنِع به إلى زهير والعرب حينئذ يتقون الشعراء اتقاء شديداً ، فقال : ما خرجت فى ليلة ظلماء إلا خفت أن يصيبنى الله بعقوبة لهجائى قوماً ظلمتهم ![1] .

* * *

والناقة أيضاً كانت خليقة بأن تخطو فى عالم الموت الخطو الواسع الذى تصعد فيه إلى قدار أشقى الأولين لتهبط بعد ذلك إلى كليب بن ربيعة وجساس فى الآخرين ،

---

(١) الأغانى ١٠ / ٣١٠ .

فتمسك التاريخ من طرفيه طرف فيه العرب البائدة وطرف فيه العرب الباقية ، والأيام أول فصل من فصوله خطّت الناقة فيه أول كلمة دامية لبثت بعدها الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة وهى حرب البسوس ، وفى ذلك يقول النابغة الجعدى يحذّر عقال بن خويلد العقيلى غِبَّ الظلم :

كليبٌ لعمرى كان أكثر ناصراً
وأيسر جُرْماً منك ضُرِّج بالدم
رمى ضرع ناب فاستمر بطعنة
كحاشية البرد اليمانى المسهَّم
وما يشعر الرمح الأصم كعوبُه
بثورة رهط الأبلخ المتظلِّم
وقال لجسّاس أغثنى بشربة
تفضّلْ بها طولاً علىّ وأنعم
فقال تجاوزت الأحصَّ وماءه
وبطن شُبَيث وهو ذو مترسَّم

والناب الناقة المسنّة ، والمترسم موضع الماء لمن طلبه ، والأبلخ العظيم فى نفسه الجرىء على ما أتى من الفجور ، والمتظلم الذى يظلم الناس حقوقهم ، وهذا الوصف لكليب .

قالوا : وكان كليب بين ربيعة ليس على الأرض بكرى

ولا تغلبى أجار رجلاً ولا بعيراً إلا بإذنه ، ولا يحمى حمى إلا بأمره ، وكان إذا حمى حمى ، لا يُقرب ، وكان لمرَّة بن ذُهْل بن شيبان بن ثعلبة عشرة بنين جسّاس أصغرهم ، وكانت أختهم عند كليب ، وخالة جسّاس البسوس وهى التى يقال لها (أشأم من البسوس) فجاءت فنزلت على ابن أختها جساس فكانت جارة لبنى مرة ، ومعها ابن لها ، ولهم ناقة خوّارة من نعم بنى سعد بن ضُبَيْعة ومعها فصيل .

وكان كليب قد قال لامرأته أخت جساس ذات يوم وهى تغسل رأسه وتسّرحه : من أعز وائل ؟ فصمتت فأعاد عليها ، فلما أكثر عليها قالت : أخواى جسّاس وهمّام ، فنزع رأسه من يدها وأخذ القوس ورمى فصيل ناقة البسوس خالة جساس وجارة بنى مرة فقتله ، فأغمضوا على ما فيه وسكتوا على ذلك ثم لقى كليب ابن البسوس فقال : ما فعل فصيل ناقتكم ؟ قال : قتلتَه وأخليت لنا لبن أمه ، فغمضوا على هذه أيضاً .

ثم أن كليباً أعاد امرأته فقال : من أعز وائل ؟ فقالت : أخواى ، فأضمرها وأسرّها فى نفسه وسكت حتى مر به إبل جساس ، فرأى الناقة فأنكرها ، فقال : ما هذه الناقة ؟ قالوا لخالة جساس ، قال : أو قد بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير علىّ بغير إذنى ! ارم ضرعها

يا غلام ، فأخذ القوس فرمى ضرع الناقة فاختلط دمها بلبنها ، وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر ، فقال : احلبوا لها مكيالَىْ لبن بمحلبها ولا تذكروا لها من هذا شيئاً ، ثم أغمضوا عليها أيضاً ، حتى أصابتهم سماء ، فغدا فى غيها يتمطر ، وركب جساس بن مرة وابن عمه عمرو بْن الحارث بن ذهل وطعن عمرو كليباً فحطم صلبه ، وقال أبو برزة : فسكت جساس حتى ظعنِ ابنا وائل ، فمرت بكر بن وائل على نِهى[1] يقال له شُبيث فنفاهم كليب عنه وقال : لا يذوقون منه قطرة ، ثم مروا على نهى آخر يقال له الأحص فنفاهم عنه وقال : لا يذوقون منه قطرة ، ثم مروا على بطن الجريب فمنعهم إياه ، فمضوا حتى نزلوا على الذنائب ، واتبعهم كليب وحيه حتى نزلوا عليه ، ثم مر عليه جسّاس وهو واقف على غدير الذنائب فقال : طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشاً ، فقال كليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون ، فمضى جساس ومعه ابن عمه المزدلف ، وقال بعضهم بل جساس ناداه فقال :

هذا كفعلك بناقة خالتى ، فقال له : أو قد ذكرتها ، أما إنى لو وجدتها فى غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل بها ،

---

(١) النهى الغدير

فعطف عليه جساس فرسه فطعنه برمح فأنفذ حِضنيه[1] ، فلما تداءمه[2] الموت قال : يا جساس اسقنى من الماء ، قال : ما عقلت استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه .

وقال المفضّل فى خبره : فلما قُتل كليب قالت بنو تغلب بعضهم لبعض : تعجلوا على إخوتكم حتى تُعذِروا بينكم وبينهم ، فانطلق رهط من أشرافهم وذوى أسنانهم حتى أتوا مرة بن ذهل ، فعظموا ما بينهم وبينه ، وقالوا له : اختر منا خصالا : إما أن تدفع إلينا جساساً فنقتله بصاحبنا فلم يظلم من قتل قاتله ، وإما أن تدفع إلينا هماماً ، وإما أن تقيدنا من نفسك ، فسكت وقد حضرته وجوه بنى بكر بن وائل فقالوا : تكلم غير مخذول ، فقال : أما جساس فغلام حديث السن ركب رأسه فهرب حين خاف فلا علم لى به ، وأما همام فأبو عشرة ، ولو دفعته إليكم لصيَّح بنوه فى وجهى وقالوا دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره ، وأما أنا فلا أتعجل الموت وهل تزيد الخيل على أن تجول جولة فأكون أول قتيل ولكن هل لكم فى غير ذلك ؟ هؤلاء بنىّ فدونكم أحدهم فاقتلوه به ، وإن شئتم فلكم ألف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل ، فغضبوا

---

(١) الحضن مادون الابط

(٢) تداءمه : تراكم عليه وتزاحف

وقالوا : إنا لم نأتك لتُرذل[1] لنا بنيك ولا لتسومنا باللبن، فتفرقوا ووقعت الحرب .

وتكلم فى ذلك عند الحارث بن عُباد فقال : لا ناقة لى فى هذا ولا جمل ، وهو أول من قالها وأرسلها مثلا ، وكانت حربهم أربعين سنة فيهن خمس وقعات مزاحفات وكانت تكون بينهم مغاورات[2] .

وفى مقتل كليب قال رجل من بنى بكر بن وائل فى الإسلام وهى تنحل للأعشى :

ونحن قهرنا تغلب ابنة وائل
بقتل كليب إذ طغى وتخيّلا
أبأناه بالناب التى شق ضرعَها
فأصبح موطوء الحمى متذلِّلا

قوله أبأناه بالناب أى قتلناه بها يقال أبأت فلاناً بفلان قتلته به ، وهذا هو القصاص العادل الذى تواترت الرواية بذكره ، وكانت الناقة أوله وكليب آخره مع ما بينهما من مقوِّمات الدراما العربية التى لا يخطىء ما بينها وبين قصة قدار من مشابهة .

غير أن الحمى الذى كان لناقة صالح حمى مقدس

---

(١) تعطينا رذال بنيك بالضم ورذال الشىء أرذله

(٢) الأغانى ٥/٢٣ وما يليها .

لأنها ناقة الله ، والحمى الذى خوله كليب نفســه حمى مدنس لأنه يقوم على الجور والافتيات ، إذ كـان يطرد النـاس عن المياه حتى كـاد يقتلهم عطشـاً كمـا قـاله جســاس ، وبغى بغياً شـديداً فكـان هو الذى ينـزلهم منازلهم ويرحلهم ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره .

وبلغ من عزه وبغيه أنه اتخذ جِرْو كلب ، فكان إذا نزل منزلاً به كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوى ، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه ، وكان يفعل هذا بحياض الماء ، فلا يردها أحد إلا بإذنه أو من آذن بحرب ، وكان يحمى الصيد ويقول صيد ناحية كذا وكذا فى جوارى فلا يصيد أحد منه شيئاً ، وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس ولا يحتبى أحد فى مجلسه غيره .

وتعلق الجرم فى كلتا الحالتين بالحمى ، فكان جزاؤه فى عقر ناقة صالح عقاباً من الله تعالى أنزله بثمـود إذ خالفوا أمره فى قوله (فـذروها تـأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء[١]) ، وكان جـزاؤه فى قصة كليب قتله بأيدى جساس ومن معه ، وكأنه أداة من أدوات القدر الذى يبطش بالظالمين .

ولحظة الموت التى يسقط فيها كليب تنزل منزلة القمة

---

(١) الأعراف آية ٧٣

التى طفق يصعد إليها ، إذ كان لا يمر قوم من بكر بن وائل على نهى إلا نفاهم عنه كأنما تزداد الأرض بسعتها ضيقاً حتى تنشق له عن القبر الذى يضمه .

والماء هو الحد الذى تنتهى إليه الحياة لما غدا يتمطر ، كما ينتهى إليه الموت لما طلب إلى جساس أن يسقيه وهو يحتضر ، فكان جواب جساس أبلغ جواب إذ قال له : ما عقلت استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه ، فقد أحيا الموت فى عينيه الحقيقة التى كان يجهلها بعلمه الجائر ، وتأتى له فى تألمه بالحياة عقل جديد حجبه عنه من قبل الجنون .

وجاءت المرأة لترقص على حافة الهاوية كما رقصت من قبل بين يدى قدار ، فالناقة ناقة البسوس جاءت بها لتحفر القبور فى كل مكان ، وكأن كليباً توقع الشر منها فخافه ، إذ أنكرها لما رآها فقال : ما هذه الناقة ؟

قالوا لخالة جساس ، ثم أمر برمى ضرعها فاختلط دمها بلبنها أيذاناً بالفتنة العمياء .

وقد اتصل اسم المرأة باسم البسوس فقيل إن البسوس اسم للناقة ، كأنهما تدلان على شىء واحد فى عالم الظلام .

وفى البسوس قول آخر روى عن ابن عباس فى قوله تعالى (واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آيتنا فانسلخ

منها[1]) قال هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيها ، وكان له امرأة يقال لها البسوس وكان له منها ولد وكانت له محبة فقالت : اجعل لى منها دعوة واحدة ، قال فلك واحدة فماذا تأمرين ؟ قالت ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئا آخر ، فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان وجاء بنوها فقالوا : ليس لنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة تعيّرنا بها الناس ، فادع الله أن يعيدها إلى الحال التى كانت عليها ، فدعا الله فعادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث فى البسوس وبها يضرب المثل فى الشؤم[2] .

وكما قيل ذلك فى المرأة قيل أشأم من البسوس للناقة ، سميت بسوساً لأنها تُدر على المُبسّ بها ، والإبساس أن يقال لها بس بس بالضم والتشديد وهو الصويت الذى تسكَّن به عند الحلب ، وشاعت إحدى الروايات أن لا تبرئها من الإثم فقيل إنها كسرت بيض طير كان كليب قد أجاره حتى يكون هناك ما يسوّغ قتلها .

وكما سميت البسوس سميت السراب وكلاهما يعج

---

(١) الأعراف آية ١٧٥

(٢) انظر اللسان مادة بسبس

بتاريخ واحد هو تاريخ الزلزلة والتراب الذى تتحول إليه الجبال والأجساد ، وفى التنزيل العزيز (وبُسَّت الجبالُ بسًّا[1]) أى فتت كما فى اللسان نقله اللحيانى فصارت أرضاً ، قاله الفراء ، وقال أبو عبيدة فصارت تراباً ، وقيل نسفت كما قال تعالى (ينسِفها ربى نسفاً)[2] وقيل سيقت كما قال تعالى (وسُيِّرت الجبال فكانت سراباً)[3] فدلالة السراب من دلالة النسف لأنه من الحياة التى يغشاها الموت والمتاع الذى يزجيه الباطل والغرور .

والناقة يقال لها بليّة لأن صاحبها يموت فيحفر لديها حفرة وتُشد رأسها إلى خلفْها وتبلى أى تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً كانوا يزعمون أن الناس يحشرون يوم القيامة ركباناً على البلايا أو مشاة إذا لم تعكس مطاياهم على قبورهم ، وفيه دليل على أنهم يرون فى الجاهلية البعث والحشر بالأجساد ، تقول منه بليت وأبليت قال الطرمّاح :

منازل لا ترى الأنصابَ فيها
ولا حفر المبلِّى للمنون

أى أنها منازل أهل الإسلام دون الجاهلية .

---

(١) الواقعة آية ٥
(٢) طه آية ١٠٥
(٣) النبأ آية ٢٠

وجمع البلية البلايا قال أبو زُبيد الطائى :

كـالبـلايـا رؤوسـهـا فى الولايـا
مـا نـحـات السـمَّـوم خُـرَّ الخـدود

والولايا جمع ولية وهى البرذعة ، سميت بذلك لأنها تلى ظهر الناقة وكانت تطرح على رأسها إلى أن تموت .

وأبو زيد عنى النساء اللواتى كن يقمن حول الراحلة ينحن حول الرجل إذا مات أو قتل ، ويقال لهن المُبلِّيات .

فلم حكموا على الناقة بالإعدام إذا مات صاحبها وهلّا أبقوا عليها لتكون له ذكرى أم هل كانوا يرون فى الموت حياة مقلوبة تُعكس من أجلها المطايا على القبور ؟ لقد كانت الناقة راحلة الحياة وينبغى أن تكون راحلة الموت ، ولعلهم لما منعوا عنها الطعام والشراب بأن لا تعلف ولا تسقى إلى أن تموت أرادوا أن يدمروا فيها الحياة بعد فسادها بموت صاحبها لتنبعث من جديد ، أليس الجديد عندهم من أسماء الموت كأنه حياة بعد حياة فى زمن بعد زمن كالمسُتقبل الذى بلى الماضى والليل الذى يعقبه نهار من غير غاية إلا غاية الهلاك كما حكى الله تعالى عنهم فى التنزيل (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما

يهلكنا إلا الدهر[1]) ، ولا نسق عندهم فى هذه الأحداث إلا نسق الواو الذى يفتقر إلى العلّية ، والفناء الذى يذيب العظام ويذهب اللحم ، والألم الذى يجتاح الذات ويحرق الفؤاد ، وكانت الناقة الرفيق الرهيب الذى يتلقاهم فى كل طريق يحف فيه العدم بالوجود .

وإلى مثله اقتاد طرفة أيضاً ناقته :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره
بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

فقد كان همه وليد الصراع بين الوجود المتناهى والخلود ، ما كان له أن ينتهب اللذات إلا لأنه يحيا بلا غد .

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفدَ
لعمرك إن الموتِ ما أخطأ الفتى
لكالطِّوَل المرخى وثِنياه فى اليد

والطول الحبل تربط به الدابة يطوّل لها فى الكلأ حتى ترعاه .

وهذا الهم الذى لا حدود له لأنه ماهية الذات ليس السبيل إليه التعليل والتفسير لأنه لا يقع تحت هذا

---

(١) الجاثية : آية ٢٤

وذاك ، بل سبيله الاحتضار والمثول ، إذ كان شيئاً من الأشياء التى لا تغنى عنه ثـرثرة الكلمـات ، فمعناه فى الصمت الذى ينبع من التمرد ولا يقنع بأقل من مناجزته بما هو أشد منه قوة وأكثر عدداً .

وهو إنما استصرخ الناقة لأنه خرج فيها من هـذا الصمت إلى حياة كثيفة مجسدة تقوم لمـا تقاضـاه من عناء ، فكانت كما أراد كائنات شتى فى كائن ، عكف على أعضائها يتقصاها كما يعكف عابد الصمّ على الصنم فى لغة تشريحية ينفذ بها إلى أجزائها وكأنه يدور منها على أقطار الحياة التى لا تنتهى ، يجتلى فيها الجمل والنعامة والأرض الصلبة والصخر والكهف والقنطرة وغيرها من أشياء يتشبث بها ويقيم فيهـا الوجود المستحكم الذى يناوىء الدمار .

ولهذه الأشياء قوتها التى تؤول إليها أعضاء الناقة ويغالب بها الطريق الوعر الذى يسلكه بدءاً من سكون الهم الأصم ، وما كان ليدفعه إلا (بعوجاء مرقال تروح وتغدى) والعوجاء التى قد لحق ظهرها ببطنها فاعوجّ شخصها ، كأن العوج غموض ، وقد قالوا العوج كل ما لا يحيط به العيان .

والمرقال المسرعة ، والإرقال أن ينفض البعير رأسه ويرتفع عن الزميل فى سيره ، والرواح بالعشى ، وغدوّها

فى سيرها أن لا يكسرها سيرُ ليلها وعشية أمسها أن لا تغدو .

ولكن ما هى نهاية السير ؟ إن كانت نهايته مخوفة فلابد من إقراره ببث الثبات فيه والأمن ، وقد انتشى الشاعر به حيناً ثم استدركه بما يؤمن عثار الناقة وزللها ، ولا شيء أشد ثباتاً من تابوت الموتى فى مسيره إذ هو كالحقيقة الثانية تنقى به الناقة نزق الإرقال ، وتمضى على الطريق البين الذى لا عوج فيه .

أمون كألواح الأران نسأتها
على لاحب كأنه ظهر برجُدَ

ولكن أنّى لها ذلك وهىً ما هى فى السرعة والسباق شأنها العجلة لأنها إنما تركض إلى الحياة بروضها وحدائها لترعى الربيع مع سواها من النوق .

تربعت القُفّين بالشول ترتعى
حدائق مولِّى الأسرَّة أغْيَد

والقفين مثنى قف وهو ما ارتفع من الأرض فى غلظ وصلابة ولم يبلغ أن يكون جبلا فى ارتفاعه ، وبالشول معناه فى الشول جمع شائله وهى التى قد أتى عليها من نتاجها ثمانية أشهر فخفّت بطونها وضروعها ، والأسرة طرائق النبت والأغيد الريان المنثنى من النعمة .

ومع ذلك فهل ذهب عنها الروع ، كيف وصوت

الراعى يلاحقها وفحلها يناجـزها ؟ فهى بين أن تقبـل لتستجيب وتدبر لتدفع الفزع .

تـريـع إلى صـوت المـهيـب وتـنـتـقـى
بـذى خـصـلٍ روعـات أكـلف مـلبـد

كـأن جـنـاحى مـضْـرحـىٍّ تـكـنـفـا
حـفـافيـه شُـكـا فى العيـب بِـمـسْـرَد

ابن الأنبارى : تريع معناه تعطف وترجع إلى راعيها ، يقاله راع عليه الفىء إذا رجع عليه فيقول تعـطف إلى صوت المهيب وهو الذى يصيح بها هوبَ هوبَ ، والمهيب ها هنا فحلها ، وقوله (وتتقى بذى خصل) معناه بذنب ذى خصل مجتمعة من الشعر ، واحدتها خُصلة ، أى إذا أتاها الفحل اتقته بذنبها فرفعته تريه أنهـا لاقح ، والأكلف لونه حمرة إلى السواد وهو فحلها ، و(ملبد) ضرب بذنبه على ظهره من الهياج وقـد بال عليـه وثلط فتلبد ذلك على ظهره ، والمضرحى العتيق من النسور ، وحفـافـاه جـانبـاه ، والعيب عـظم الذنب والمسـرد المخصف .

ألفاظ تثب وتتطاير إلى غير غاية إلا غاية الروع الذى تتعاقب لحظاته بين أجنحة النسر ، فهل أراد طرفة أن يعاقبها بما لم تجن يداها ؟ بل لا جدوى من هذا السؤال لأنها لا تعان فى حياتها إلا بالألم ، ولكن روحها الواعية

خليقة بأن تحررها من الخوف ، فلتتمرد كما تشاء ولتضرب بذبنها خلف الرديف أو ضرعها فكل ذلك سواء .

فطوراً به خلف الزميل وتارة
على حَشِفٍ كالشَّنِّ ذاوٍ مجدَّد

معناه طوراً ترفع ذنبها وتضرب به خلف الزميل أى الرديف ومرة تضرب به ضرعها ، وسماه الحشف لأنه متقبض لا لبن فيه ، والشَّن القربة الخلق ، ويقال قد استشنّ جلده إذا تقبض وتخدد ، والذاوى الذابل الذى قد أخذ فى اليبس ، والمجدد الذاهب اللبن ، وكل ما كان للناقة بعد هذه المعركة انتصار للتمرد ، يتعالى فى قصر ممرد ودأى منضد وصلب مؤيد .

لها فخذان أكمل النحضُ فيهما
كأنهما بابا منيف ممرد

النحض اللحم ، ومنيف أى قصر منيف .

وطيُّ محال كالحنىّ خلوفُه
وأجرنة لُزَّت بدأْى منضد

معناه ولها طى محال مطوية ، والمحال الفقر الواحدة محالة وهى خرز الظهر ، يقول محال ظهرها متراصف متدان بعضه من بعض ، وذلك أشد لها وأقوى من أن يكون محالها متباينات ، والحنى القسى واحدتها حنية ،

ولزت قرن بعضها إلى بعض فانضمت واشتدت ، وأجرنة جمع جران وهو باطن الحلقوم ، والدأى والديات فقار العنق ، وخلوفه أضلاعه من جانبى المحال .

ولو شاء رسام تشريحى أن يرسم فقار الناقة وأضلاعها وحلقومها لما بلغ من ذلك ما بلغ طرفة ، فهى قائمة بذواتها ، كائنة فى السرد غير مقدرة ، منفصلة غير متصلة لكنها متتابعة غير منقطعة ، كل منها حاضر لا غد له ووجود يحدق به العدم ، فالشاعر الجاهلى مفتون بالأشياء لذاتها لا يخفيها وراء الكلمات لأنها أمله الوحيد فى العالم تسعى إليه كما يسعى القطر إلى الأرض فيتلقاها بكلتا يديه ويرأمها بلحظات الصمت التى تسفر عن بيان خصيب .

وقد بقيت آثار تلك الشعرية فى المعجمات ، على ما يظهر فى المخصص ، إذ ضمت ما نقله اللغويون والرواة منها فى أبواب الإبل التى اتسعت على قدر اتساع حياتها بين العرب ، فكان من ذلك الفصول الطوال التى تراءت فيها منذ حملها ونتاجها إلى أسنانها ونعوتها فى الرأم والحلب والورد والسير وما إلى ذلك مما لا تدانى فيه العربية لغة أخرى .

كما بقيت أصداء الأسطورية فيما نقلوه كالذى ذكره الجاحظ فى الإبل الوحشية التى زعموا أنها تسكن أرض

وبار لأنها غير مسكونة ، ولأن الحيوان كلما اشتدت وحشيته كان للخلاء أطلب ، وربما خرج الجمل منها لبعض ما يعرض ، فيضرب فى أدنى هجمة من الإبل الأهلية ، فالمهربة من ذلك النتاج .

وقال آخرون: هذه الإبل الوحشية هى الحوش وهى التى من بقايا إبل وبار ، فلما أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأمم مثل عاد وثمود وطسم وجديس وجاسم بقيت إبلهم فى أماكنهم لا يطورها إنسى ، فإن سقط فى تلك الجيرة بعض الخلفاء أو بعض من أضل الطريق حثت الجن فى وجهه ، فإن ألح خبلته ، فضربت هذه الحوش فى العمّانية ، فجاءت هذه المهرية وهذه العسجدية التى تسمى الذهبية(١) .

وأكثر كلام المتكلمين فى الإبل إنما هو من جهة طبائعها كشأنهم فى سائر الحيوان ، وعندهم أنه ليس لشىء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه إذ يسوء خلقه ويظهر زبده ورغاؤه ، فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل ، ويقل أكله ويخرج الشقشقة وهى الجلدة الحمراء التى يخرجها من جوفه وينفخ فيها فتظهر من شدقه ، وقالوا الجمل أشد الحيوان حقداً وفى طبعه

---

(١) الحيوان للجاحظ ١ / ١٥٤ط هارون

الصبر والصولة ، ومن طبع الإبل أنها تستطيب الشجر الذى له شوك وتهضمه أمعاؤها ، ولا تستطيع فى غالب الأوقات أن تهضم الشعير[1] .

* * *

والإبل اسم واحد يقع على الجميع ليس بجمع ولا اسم جمع إنما هو دال عليه ، والإبل مخفف عنه وجمعهما أبآل ، كُسِّر اذ كانوا قد يكسرون الجمع واسم الجمع فهذا أولى لأنه واحد وإن دل على جميع كما قالوا أراهط ، قال سيبويه ، وقالوا إبِلان لأنه اسم لم يكسر عليه ، وإنما يريدون قطيعين ، وإنما ذهب إلى الإيناس بتثنية الأسماء الدالة على الجمع ، فهو يوجهها إلى ألفاظ الآحاد .

فهل كان ذلك على هذا الوجه لأن الإبلية كينونة لا تقع تحت الكم ؟

وما قيل فى الإبل قيل نظيره فى البعير من حيث التذكير والتأنيث ، فهو اسم يقع عى الذكر والأنثى ، وهو من الإبل بمنزلة الإنسان من الناس ، فالجمل بمنزلة الرجل ، والناقة بمنزلة المرأة ، والقعود بمنزلة الفتى ،

---

(١) حياة الحيوان للدميرى ١ / ٢٤

والقلوص بمنزلة الجارية ، وحكى عن بعض العرب صرعتنى بعيرى أى ناقتى ، وشربت من لبن بعيرى .

وأسماؤها متعددة بتعدد جهات التسمية ، فمن أسماء ما يركب منها ويحمل عليه المطية وهو اسم جامع لكل ما يمتطى من الإبل ، فإذا اختارها الرجل لمركبه لتمام خلقتها ونجابتها فهى راحلة ، وفى الحديث : الناس كإبل مائة لا يكاد يوجد فيها راحلة ، يعنى أن المرضىَّ المنتخب من الناس فى عزة وجوده كالنجيب من الإبل القوى على الأحمال والأسفار الذى لا يوجد فى كثير من الإبل .

فإذا استظهر بها صاحبها وحمل عليها فهى زاملة ، والناس يقولون فى الرجل العاقل الثابت فى أموره : رجل زاملة ، يريدون بذلك مدحه .

ولا معنى لإطلاق هذه النعوت على البشر إلا أن الإبلية جزء من كيان العربى يمدح بها كما يذم ، وقد شبهوا الفصيح ليطيق بالفحل الهادر ولسانه بشقشقته وهى لهاته ، روى الحاكم فى حديث فاطمة بنت قيس رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : أما معاوية فصعلوك وأما أبو جهم فإنى أخاف عليك من شقاشقه ، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إن الخطب من شقاشق الشيطان .

وقد أكثروا من التأمل فيها دون أن ينقضى عجبهم منها وجعلوها كالصورة المثالية التى ينبغى أن تكون على ما كانت عليه ، فرووا عن بعض الحكماء أنه حُدِّث عن الإبل وعن بديع خلقها وقد نشأ بأرض لا إبل لها ففكر ساعة ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق ، وحيث أراد الله بها أن تكون سفائن البر صيّرها على احتمال العطش حتى إن ظمأها ليرتفع إلى العشر ، وجعلها ترعى كل شيء نابت فى البرارى والمفاوز مما يرعاه سائر البهائم !

وأنزلوا النظر إليها منزلة العبادة امتثالاً لقوله تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت[1]) . روى عن سعيد بن جبير أنه قال : لقيت شريحاً القاضى ذاهباً فقلت له : أين تريد ؟ فقال : أريد الكناسة ، فقلت : وما تصنع بالكناسة ؟ قال : أنظر الى الإبل كيف خلقت[2] .

والإعجاب بها جزء من المعنى الحيوى القائم فيها إذ كانت سفينتهم فى البر وقد قرنها الله تعالى بالفلك فى قوله تعالى (وعليها وعلى الفلك تحملون)[3] وهى عز لأهلها تعطى فى الديات فتحقن بها الدماء وتمنع من أن يهراق دم

---

(١) الغاشية آية ١٧

(٢) حياة الحيوان للدميرى ١ /٢٢

(٣) المؤمنون آية ٢٢

القاتل ، وفى الحديث « لا تسبوا الإبل فإن فيها رقوء الدم ومهر الكريمة) وكل ذلك من المعانى التى توخاها الإسلام .

ومن أجل ذلك خصت العربية الإبل دون غيرها من أجناس الحيوان بمعجم حافل من تاريخها منذ تولد بل قبل أن تولد على ما يبدو فى حملها ونتاجها كأن ذلك من الأحداث الكونية التى لا دخل فيها لأحد فقالوا أُنتجت ونُتجت وأنتجت الناقة فجعلوه كما قال أحمد بن يحيى من باب ما لا يتكلم به إلا على الصيغة الموضوعة للمفعول ، وذلك من النتاج .

وساءهم أن لا تحمل الناقة سنتها فسموها عسيراً كما سموها زعْلة ، وهى من الحوامل التى لا تحمل سنة ولا تحمل أخرى ، ولهم فى لحظات الحمل وعدمه الألفاظ المتباينة المأخوذة من حركة الجنين فى بطنها وما تبشر به من ذلك برفع ذنبها ، فأول ما تحمل قارح ، ويقال أقرّت الناقة ثبت حملها ، فإذا تحرك ولدها فى بطنها قيل أركضت ، فإذا نبت عليه الشعر فى بطنها فأخذها لذلك وجع قيل أكلت أكالاً كسمع سماعاً كأنه لما أشعر ولدها فى بطنها حكمها ذلك وتأذّت ، فإذا أتى عليها من يوم حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها فهى حينئذ شائلة وجمعها شَوْل ، وقد قدمناه ، لأنها تشول بذنبها أى

ترفعه ، والشائل بلاهاء الناقلة التى تشول بذنبها للقّاح ولا لبن أصلاً ، والجمع شوّل مثل راكع وركّع ، وهذا من الفروق الدقيقة التى لحظتها العربية ، ونظيره أبـرقت وهى مُبرِق وبَروق التى تشول بذنبها وتوزغ ببولها بأن تخرجه دفعة واحدة تُرى أنها لاقح ، قال الأصمعى قال رجل من الأعراب لأخيه ، دعنى من تكذْابـك وتأثـامك شوّلان البروق ، أى إنك تبرق مثل هذه فيظن الناس أنك صادق فتكذب ، كما كذَبت ، فأظهـرت أنها لاقـح وليست بلاقح ، كأنها تخدع الناظر إليها .

ويقال ناقة كتوم التى لا تشول بذنبها عند اللقاح ولا يعلم بحملها ، وقد كتمت تكتم كتوما والجمع كتم ، ويقال لها أيضا كمون وذلك إذا لقحت فلم تبشّر بذنبهـا ، إذ يعرف حملها فى البدء بشَوَلان ذنبها .

وتتعـاقب عليها الأسمـاء والأفعال يتعـاقب أزمنـة الحمل ، فإذا ثبت اللقاح وهو حملها فهى خِلَعه كأنه من بـاب الخِلْفة فى النبت وهـو ما ينبت بعـد النبات الذى يتهشم ، ويقال لها المخاض ، ولاتزال خَلِفـةً حتى تبلغ عشرة أشهر فهى عُشَرا ويزول عنها اسم المخاض ،ثم لايزال اسمها كذلك حتى تضع وبعد ما تضع أيضاً .

وعندئذ تتراءى للناظر إذ يعظم بطنها ويستبين فيه الوالد ويقـال أرأتْ وهى مُـرءٍ ، والضـرع آيـة ذلك

وعلامته ، تبتهج فيه اللغة إذ يقولون مُضْرِع للتى أشرق ضرعها ووقع فيه اللبن ، وفى المثل :

لحُسْنُ ما أضرعْتِ إن لم ترشِفى

أى تُذهبى اللبن يضرب للرجل يبدأ بالإحسان فيُخاف أن يسىء .

كما يقولون مُشْرِق ومُلْمِع من اللُّمْعة وهو السواد حول الحلمة وكل متلون بألوان مختلفة ملمّع ، وفى كل ذلك يتحرك ولدها فى بطنها ، ومن الباب الردة وهو أن تشرب الإبل الماء علَلاً فتزيد الألبان فى ضروعها ، والمُردّ والمُرْمِد إذا أضرعت .

وصفاتها فى النتاج تكون أيضاً من قبل أوقاته ، فالمُربع التى ولدها معها وهو رُبَع لأنه يُنتج فى الربيع وهو أول النتاج ، والمصيف التى تنتج فى الصيف ، فإذا كان ذلك عادة لها فهى مصياف ، والمُخرف التى تنتج فى الخريف والفصيل خِرْفى .

وخافوا على الولد أن تلقيه قبل تمامه فسموها المُعجِل والمعجِّل للتى تنتج قبل أن تستكمل الحول فيعيش ولدها ويسمى الولد مُعجَلا ، قال الشاعر :

إذا مُعجلاً غادرْنه عند منزلٍ
أتيح لجوّاب الغلاة كسوبُ

يعنى الذئب .

ونعتوها من قبل الذكورة والأنوثة فسموا التى تنتج عاماً ذكرا وعاما أنثى محوِّلا وهى إذ ذاك كالمرأة فاللفظ الموضوع لهما واحد ، فإن نُتجت عامين ذكرين وعاماً أنثى فليست بمحوّل ، كما نعتوها من قبل حياة أولادها وموتها فقالوا ناقة محى ومحيية للتى لايكاد يموت لها ولد ، وناقة مميت ومميتةً للتى يموت أولادها ، والمقلات للتى تضع واحداً ثم لاتلد بعد ذلك والمُفرِق للتى فارقها ولدها .

وأداروا عليها من المعانى مثل الذى أداروه على الإناث من البشر فى أحوالها بعد النتاج وقبله وفى رأمها ولدها وحنينها وولهها ؛ فسموها إذا وضعت العائذ وجمعها عُوذ وتكون ذلك أياما ، وهى عند سيبويه فعُل وجمع الجمع فعُلات ، يقال عوذ وعوذات وأنشد :

ترى الوحشَ عوذاتٍ به ومتاليا

وذهب أبو على الفارسى إلى أن العوذ فى الإبل وهو فى الوحش مستعار .

وقيل العائذ التى عاذ بها ولدها فاعل بمعنى مفعول ، وقد عاذت بولدها أقامت عليه وحدبت وراعته مادام صغيرا ، جاء الفعل ـ كما قال ابن سيده ـ على لفظ القلب كما جاء اسم الفاعل على ذلك كأنه عاذ بها ولدها ،

وكلا القولين سائغ لأن مآلهما إلى شىء واحد هو العوذ واللجوء ، فالولد يلوذ بالناقة من جهة البنوة وهى سلب والناقة تعوذ بولدها من جهة الأمومة وهى إيجاب .

قال أبو عبيد : فان كان ذلك أول ولد ولدته فهى بكر والجمع أبكار وأنشد :

وإن حديثاً منك لو تبذلينه
جنى النحل فى ألبان عوذٍ مطافِلِ
مطافيلَ أبكارٍ حديث نِتاجُها
تُشابُ بماءٍ مثلِ ماء المفاصِل

والمفاصل مابين الجبلين واحدها مَفْصل ، وإنما أراد صفاء الماء لانحداره من الجبال لا يمر بطين ولاتراب ، وصفاؤه من صفاء البكر من حلاوة العسل ، وحلاوة العسل من رقة المطافيل ، ورقة المطافيل من نعومة الحديث الذى ينبع من السلسبيل .

وإن كان ذلك الولد الثانى فهى ثِنّى وأنشد أبو عبيد :

ليالِىَ تحت الخِدْر ثِنىٌ مَصيفة

قال : وإنما يصف امرأة والناقة مثلها ، ونقول ولا فرق عنده بينهما فى معنى الأنوثة .

ومن كلامهم فى عطف الناقة على ولدها ماحكاه سيبويه رئمت الناقة ولدها رأما ورئمانا وهى رائم ، ومقتضى الرأم أن تدرّ اللبن عليه ، فإن لم ترأمه ولكنها تشمه

ولاتدر عليه فهى عَلوق ومُعالق وإنما تفعل ذلك بغير ولدها قال الجعدى :

وما تحَنِى كمناح العَلو
ق ماتر من غِرَّة تضربِ

ويقال مابالناقة علوق أى شىء من اللبن ، قال الشاعر :

آم كيف ينفع ماتُعطى العلوق به
رئمانُ أنف إذا ماضُنّ باللَّبن

وقد ترأم الناقة بأنفها ولايصدق حبها وتلك هى المذائر كأنها تكرهه وتنصرف عنه ، ومن عجيب ماذكروه من هذا الباب الدَّلُوه للتى لاتكاد تحن إلى ألف ولا ولد وهو نقيض المعنى الذى تقوم عليه مادة الدله إذ التدليه ذهاب العقل من الهوى كقولهم دلهه الحب أى حيره وآدهشه .

وإذا عُطِفت الناقة على ولد غيرها حتى ترأمه فهى ظئر ويقال للانسان ، والناقة اللطيفة بولدها جُراض قال الشاعر :

والمراضيع دائباتٌ تربى
للمنايا سليلَ كلِّ جراض

والرآم شعيرة من الشعائر التى ينبغى أن تؤديها الناقة ، ولهم فى ذلك حيل يتوسّلون بها حتى يحملوها على

مايريدون مما ظلّت اللغة شاهدا عليه فى مثل الجرور للتى تقفص[١] ولدُها فتوثق يداه إلى عنقه عند نتاجها فيجرّر بين يديها ويستل فصيلها فيخاف عليه ان يموت فيُلبس الخرقة حتى تعرفها أمه عليه ، فإذا مات ألبسوا تلك الخرقة فصيلا آخر ثم ظأروها عليه وشدوا مناخرها فلا تفتح حتى يرضعها ذلك الفصيل فتجد ريح **ابنها** منه فترآمه عند ذلك إذا شمته .

وإذا أرادوا أن ترآم الناقة على ولد غيرها شدوا أنفها وعينيها ثم حشوا حياءها وهو رحمها مُشاقة[٢] وخرقا وغير ذلك وشدوه وتركوه أياما فيأخذها لذلك غم مثل المخاض ، ثم يحلون ذلك الرباط عنها فيخرج ذلك عنها وهى تُرى انه ولدها ، فإذا ألقته حلّوا عينيها وقد هيئوا لها حُوارا[٣] فيدنونه اليها فتحسبه ولدها فترأمه .

ولكل شيء من هذه الأشياء اسم كأنها شخصيات ودمى فى مسرحية صامتة ، فيقال للذى يخشى به حياؤها الدُّرْجة لأنه يُدرج فيدخل فى حياء الناقة ، قال الشاعر وهو عمران بن حطّان :

---

(١) المقفص الذى شدت يداه ورجلاه ؛ والقفاص داء يصيب الدواب فتيبس قوائمها ، وتقافص الشيء اشتبك .

(٢) المشاقة المتساقط من الشهر والكتان ونحوها

(٣) الحوار ولد الناقة ولايزال حواراً حتى يفصل .

جـمــادٌ لايــراد الرِسْــلُ مــنــهــا

ولم تــجــعــل لهــا دُرج الظئــار

والجماد الناقة التى لالبن فيها وهو أصلب لجسمها كأنها تستعصى علي مثل هذه الخديعة .

ويقال للذى تشد به عيناها الغِمامة والذى يشد بـه أنفها الصقاع ، قال القطامى :

إذا رأسٌ رأيــتُ بــه طِمــاحــاً

شــددتُ له الغــمــائــم والصِّــقــاعــا

كأن الصقاع قريب من الغمّ الذى يأخذ بالنفس من شدة الحر وهو الصقَع ؛ وليس بعـد هذا إذلال وكبـح لجماح من يساور رأسه طماح .

وربما جاءوا بجلْد حـوار يُسلخ فيلبس حواراً آخـر لتشمه أم المسلوخ فترأمه ، وهو مايقال له الجلَد ، قال العجّاج :

وقــد أرانــى للغــوانــى مِــصْــيَــدا

مُــلاوةً كــأن فــوقــِي جــلَدا

أى يرأمننى ويعطفن عليّ كما ترائم الناقة الجلد ، وهو من أعجب ماقيل فى استدرار هوى الغوانى .

ومما يضارع ذلك ويجرى مجراه مايقال له البوّ وهو جلد الحوار يحشى تماما فتعطف عليه الناقــة إذا مات ولدها ، كأنهم يخشون عليها انقطاع الحنين .

ومثله الفرَع وهو أن يسلخ جلد الفصيل فيُلبسَه آخر وتعطف عليه ناقة سوى أمه فتدر عليه ، قال أوس بن حجر يذكر أزمة فى شدّه :

وشبِّه الهيدبُ العبام من الأقـ
ـوامِ سقْباً مُجلَّلا فرَعا

أراد مجللا جلد فرع ، والهيدب الجافى الخلقة الكثير الشعر من الرجال والعبام الثقيل .

ومن معانى الفرع مايشير الى انه كان من بقايا شعائر لهم فى الجاهلية إذ هو ذبح كان يذبح فى الجاهلية من أول نتاج الإبل ، وإذا أرادوا أن يذبحوا ولدها جعلوا عليه ثوبا يغطى به رأسه وظهره كله ماخلا سنامه ، فيرضعها يوما أو يومين ثم يوثق **وتنحى** عنه أمه حيث تراه ثم يؤخذ الثوب عنه فيجعل على حوار آخر فترى أنه ابنها ويُنطلق بالآخر فيذبح .

ويهوّلون لها بأن يستخفى الرجل إذا ظأرها على غير ولدها فيشبّه لها بالسبع فيكون ذلك أرأم لها عليه ، ويخيّلون بأن يضعوا لولدها خيالاً ليفزع منه الذئب فلا يقربه ، ويتذاءبون بأن يلبس الواحد منهم لها لباساً يشبّه بالذئب ليكون أرأم لها على غير ولدها .

ومن كلامهم فى تعلق الناقة بولدها نعتهم الإبل بالوله وشدة الحنين فى الألفاظ التى اقتنصوا فيها لحظات

متباينة من ذلك ، فقالوا الوله للتى يشتد وجدها على ولدها ، والوله ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد وآيته العجلة والمشى على غير هدى ، قال الأعشى :

فأقبلت والِهاً ثكلى على عجلٍ
كلٌّ دهاها وكلٌّ عندها اجتمعا

ومن العجلة كانت العجول وهى التى مات ولدها ، قال سيبويه . وقالوا للواله عَجول وعُجل كما قالوا عجوز وعُجز ولم يقولوا عجائل ، وقالوا أيضا معاجيل للتى فقدت اولادها بموت أو نحر ، ومثله المفرق إذا فارقها ولدها ، والسلوب وجمعه سلُب وسلائب كأنها قد سلب عنها ولدها ، ويقال أيضاً للتى ألقت ولدها لغير تمام ، وأسلبت اذا كانت تلك حالها ، ثم الخلوج والإخليج اذا اختلج عنها ولدها وانتزع ، وهى مختلجة كالمرأة المختلجة عن زوجها بموت أو طلاق .

وهذه المعانى بعضها قريب من بعض لأنها تؤول فى جملتها الى فراق الناقة لولدها وانتزاعها منه ، ويقابل التى تفيض بالوله والحنين ومااليهما ، وآية الفراق الفطام الذى يقع على كل حيوان يفصل عن أمه ، ويقال للناقة فاطم إذا بلغ حُوارها سنة ففطم ، كأن الرضاع كان بينهما كالحبل الذى قطع .

والذى يخص الإبل من أسماء الفطام الإجرار وهو أن

يشق لسان الفصيل لئلا يرتضع ، قال أمرؤ القيس :

فكرّ إليه بمبراته
كما خلّ ظهرَ اللسان المُجرّ

والخلال عود يجعل فى لسانه .

وقال عمرو بن معدى كرب :

فلو أن قومى انطقتنى رماحُهم
نطقْتُ ولكنَّ الرماحَ أجَّرتِ

يقول لو قاتلوا وأبلوا لذكرت ذلك وفخرت به ولكنهم قطعوا لسانى بفرارهم كأن الرماح قد مسخت فصارت كالخلال والرضاع انقطع فصار كالصمت .

* * *

والابل تذكر بنعوتها فى العربية من جهات شتى كألوانها وطوائفها وطولها وحسنها وتمام خلقها وقصرتها ودمامتها كما تذكر **بأسنمتها** وقلة لحومها وأوبارها .

أما ألوانها فدرجات وظلال يتلو بعضها بعضاً ، كأنها الطبيعة بجبالها ووديانها وصخورها ورمالها ، فالبعير يقال له احمر إذا لم يخالط حمرته شىء ، وتتفرع الحمرة بعد ذلك حسبما يخالطها كالكميت للناقة التى خالط حمرتها قنوء ، فإن خالطها صفاء فهو مدمّى كأنه من الدم لشدة حمرته ، فإن اشتدت الكمتة حتى يدخلها

سواد فتلك الرُّمكة ، وقد أرمكّ البعـير ارمكاكـا ، وإذا خالطها مثلَ صدا الحديد فهو الجُؤْوَه مثال الجعوة .

فإن خالط الحمرة صفرة كالورس قيل أحمر رادنِيٌّ وناقة رادنية ، كأنها أخذت من الردان وهو الزعفران ، وقد يكون ذلك لأن البعير قد جعد وبره على ماقال صاحب العين فى الرادنى من الابل وذكر انه كـريم يضرب الى سواد قليل .

ويقال ناقة جُرشيه للحمراء ، وهو مأخوذ من جرش موضع باليمن ، فاذا اشتد السواد عن ذلك فهو جون ، وقالوا ناقة دجواء لسبوغ وبرها فى سواد أما اذا حسبه الناظر من بعيد أسود فهو الأدكن ، ويقال لسود الإبل شومها ولبيضها حضارها ، قال أبو ذؤيب يصف خمرا :

فـــلا تُشتــرى إلا بـــربـــحٍ سـبــاؤهـــا
بنـــاتُ المخـــاضِ ســومُهـــا وحَضـــارهـــا

ويروى شيمها وشومها ، فأما شيمهـا فجمع أشيم وشيماء كأنها من الشامة وهى الخال ، ويقـولون ماله شامة ولا زهراء اى ناقة سوداء ولا بيضاء ، واما شومها فلا واحدة له او هو جمع اشيم ، ومن قال ذلك اقر الضمة بحالها ولم يبدلها كسرة كما فى بيض وهيم وآثر إخراج الفاء مضمومة على الأصل .

والحضار من الإبل الهجان واحده وجمعـه سواء ،

كأنه يقال ذلك للناقة اذا جمعت قوة ورحلة أى جـودة سير .

فاذا أشكل لون البعير بأن اختلط سواده بحمرة أو غبرة سموه الأشكل خلافاً للأشكل من سائر الأشياء اذ هو ماااختلطت حمرته ببياضه واسم اللون الشكلة ومنه الشكلة فى العين .

واللون الثـانى من الألوان الجوهـرية التى تحتمـل الظلال الأبيض ، وماكان من الابل خالص البياض يقال لها المَغص والجمع أمغاص بالغين المعجمة ويقال المَعص بالعين المهملة والمأَص بالهمزة وكل ذلك من باب الإبدال ، ولم يرد فى المعجمات مايشير الى الوجـه فى إطلاق هذه الآسماء على الإبل البيض ، وكل ماقيل فيها إنها خيار الإبل وكرامها قال الراجز :

أنـتـم وهـبـتـم مـائـة جـرجـورا
أدْمـا وحُـمْـراً مـغَـصـاً خُـبـورا

وقيل المغص التى فارقت الكرم والواحدة مغَصـة ، والمعص فى الإبل خدر فى أرساغ يديها وأرجلها ، قـال حميد بن ثور :

غـملّس غـائـر العـيـنـين عـاديـة
منـه الظنـابيـب لم يغمـز بهـا معصَـا

والظنـابيـب جمع ظنبوب وهو العظم اليابس من مقدم

الساق ، فهل سموها بذلك لأنها برئت منه وسلمت ؟ .

ومن أسمائها أيضاً الآدم وهو فى الناس الشديد السمرة إلّا ان الأدمة فى الابل البياض الشديد ، يقال بعير آدم وناقة أدماء ، كأن البياض ليس واحداً بالنسبة للابل والناس ، فهو فى الناس غيره فى الابل ، بل غيره ايضاً فى الظباء أيضاً ، فالأدم من الظباء بيض تعلوهن جدَد فيهن غبرة ، وقد صحت تسميتها بذلك لأنها كما قال الأصمعى على ألوان الجبال كأنها تنزع إليها ومثل ذلك يقال فى هذا الضرب من الإبل .

ومن بياض الإبل العيس وهو لون أبيض مشرب صفاء فى ظلمة خفية ، وهو من ألوان الظباء والشعر إذا خالط بياضه شقره ، والعيس من كرائم الابل قال الشاعر :

أقول لخارِبَىْ [1] همدان لمّا
أثارا صِرْمةً حمرا وعيسا

ويقال أيضاً للبيضاء الخالصة اللون من الابل الهجان وهى أيضاً خالصة العتق كأن بين النعتين ملازمة ، والناقة الهجان كالأرض الهجان لطيبة التراب والمرأة الهجان الكريمة .

(١) الخارب سارق الابل خاصة

وورد الابل باب واسع من أبواب معجمها فى العربية ، وردت الابــل وروداً وأوردتــهــا والورد الاسم ، وأول مايذكر فى هذا الباب الظِّمء وهو مابين الشربتين والجمع أظماء ، ويقال مابقى من فلان إلا ظمء حمــار أى قليل وذلك أن الحمار يشرب كل يوم ولايعبأ أحد بشربه ، أما ظمء الابل وريها فأمر تحفل به اللغة احتفالها بالكيــان العربى المجسد فيها وفى الماء والحوض والصباح والمساء والجبل والصحراء .

وألفاظ الظمء تجرى فى طريقين طريق الإنساء وطريق ترتيب الأظماء ، أما الإنساء فمما يقال فيه نسأت فى ظمء الابل إذا زدت فى ظمئها يــوما او يــومين ، وقــد يكون الإنساء عن المكان فى قولهم نسأتها عن الحوض اخرتها عنه .

والأظماء يتدافع فيها الرى والعطش اذ الظمء حبس الابل عن الماء الى غاية الورد ، وقد أضافوه الى الحياة فقالوا ظمء الحياة من حين الولادة الى وقت الموت من حيث كان الموت ورداً للأحياء ينتهون اليه بعد محبس الحياة .

وأول الأظماء وأقصرها الرغرغة وهو أن تــرد الابل الماء كل يوم متى شاءت وهو مثل الرِّفة يجرى مجــرى رفاغة العيش ، والناقة يقال لها رافهة وأهلها مرفهون ، واستعاره لبيد للنخل فقال :

يشـــربْن رِفْهـــاً عِـــراكـــاً غـــير صـــادرة
فـــكـــلُّهـــا كـــارعٌ فى المـــاء مـــغـــتـــمـــر

وأسماء الظمء تؤخذ من الزمان ، فإذا سقيت الابل فى اول النهار كنت قد صبحت الابل والقوم مصبحـون ، فـاذا شربت كـل يوم نصف النهـار فاسم ذلك الظمء الظاهرة وهى ابل ظواهر والقوم مظهرون ، واذا شربت قائلة كذلك وقد أقلناها وقيلناها ، فاذا شربت يوما رغبًّت يوما فذلك الغِبّ .

وتؤخذ بعد ذلك من عدد الأيام التى تحبس فيها عن الماء إلى أن ترده ، فالثِّلْث فى مواردهـا ظمء يومـين مع شربتين ، قالوا ولكن لم يستعمل إنما يخرج فى القياس الأظماء .

قال أبو عبيـد فاذا ارتفـع عن الغب فالظمء الرِّبْـع والابل روابع وصاحبها مُرْبِع ، وقيل هو أن تـرد اليوم الرابع .

يـلى ذلك الخِمْس وهو أن تـرد الماء اليـوم الخامس والجمع أخماس وقد خمست إبل وصاحبها مُخْمِس ، قال الأصمعى أخبرنى أبو عمـرو بن العلاء عن رؤبـة قال سمعت أبى يتعجّب من قول القائل :

يـــثـــير ويُـــذْرى تُـــرْبَـــهـــا ويـــهـــيـــلـــه
إثـــارة نـــبّـــاث الـــهـــواجـــر مُـــخْـــمِـــس

ثم كذلك إلى العِشْر فى الابل وأصحابها ، فاذا زادت فليس لها تسمية ورد ولكن يقال هى ترد عِشْرا وغبا ثم كذلك الى العشرين فيقال حينئذ ظمؤها عِشْران ، فاذا جازت العشرين فهى جوازىء والقوم مجزئون .

ولهم فى الرحلة الى الماء الألفاظ الموضوعة على نسق المصير ، فأول ليلة يوجهونها الى الماء ان كانت بعيدة المرعى منه ليلة الحَوْز ، والحوز الجمع ،، وكل من ضم الى نفسه شيئا فقد حازه حوزاً وحيازة ، والحوز السوق اللين ، وقد حاز الابل يحوزها ويحيزها ، والمعنيان يفضى ثانيهما إلى أولهما إذ السوق سبيل الابل الى الماء تحوزه به .

فإن خلّى وجوهها وتركها فى ذلك ليلتئذ ترعى فهى ليلة الطَلق والابل طوالق ، وأطلق القوم فهم مُطلقون .

والابل بعد الطلق قوارب وذلك فى الليلة الثانية ويقال لها ليلة القرب ، والقرب من معانيه السوق الشديد كأنه كان سوقا بعد سوق إلا أنه لايخلو من معنى الاقتراب من الماء ، وصاحب الابل يفرح بذلك ويزجيها فى قوله : وقد أقربتُها حتى قَربت تقربُ ، وبمثله يغالب القائل بُعد صاحبته :

إحدى بنى جعفرٍ كلفتُ بها
لم تُمْسِ نَوْباً منى ولا قربا

والنوب ماكان منك مسيرة يوم وليلة ، ففى النوب والقرب ريه وحياتُه ولكن هيهات فقد ابتعد القرب كما جف الرى ونضبت الحياة .

ولما كان للقرب ماله من تعيّن حيوى أفردوه بحرف خاص ، قال أبو عبيد :

اذا كان إبل القوم قوارب فى طلب الماء قيل هم قاربون ولايقال مقربون ، وهذا الحرف شاذ .

وشذوذه انما هو لخصوصيته اذ الابل وأصحابها سواء فى الفعل وأثره ، فلما تشابها فيه أسند اليهما على شاكلة واحدة واستوى السائق والمسوق .

وتوقفت اللغة عند القرب تستحثه بألفاظ مأخوذة من السير فى شدته وفتوره ، والأرض فى صلابتها وضعفها ، فكان من ذلك نعتُه بما نعتوه بها من حروف ربما لايسيغها أبناء العصر ولكنها ثابتة فى العربية ثبات الإبل فى حياة من تعاطوها ، تترقرق فى معجمها كالماء الزلال .

فقد قالوا قرب قَطْعَبىٌّ وقَسِىٌّ أى شديد ، نقله ابن السكّيت ، وأنشد أبو عمرو لأبى نخيلة :

وهنّ بعد القرب القسى
مُسْتَرْعِفاتٌ بشَمَرْذَلِىّ

والشمرذلى الحادى : والمسترعفات السابقات المتقدمات ، والقسى من القسوة يكون فى الأزمنة فيقال

عام قسى إذا كان ذا قحط ، وليلة قاسية شديدة الظلمة ويوم قسى شديد من حرب أو شر ، وقرب قسى شديد فيه مكابدة ومقاساة لايصح الا بهما .

والقطعبى مثله فى الشدة يوصف به الخِمْس كما يوصف به القرب ، وقطعبه قطعه وضربه ، وإنما ساغ ذلك لأنه لايُبلغ إلا بالسير الشديد .

ومن بابه الجُلْذى وإن كان هذا مأخوذا من الأرض وصلابتها ، فالجلذاء الحجارة وماصلب من الأرض ، والجلْذية المكان الخشن الغليظ من الخف المرتفع جدا يقطع اخفاف الابل وقلما ينقاد لاينبت شيئا ، وسموا الناقة جُلْذية من أجل ذلك كأنها مشتقة من الصخرة .

وقالوا فى شدة القرب للماء التنحيب ، قال ذو الرمّة :

ورب مفازة قذفٍ جموحٍ
تغول منحِّب القربِ اغتيالا

والقذف البّرية التى تقاذف بسالكها ، وتغول تهلك .

وهو فعل ينضح بالبكاء والخطر والموت .

وفى التنزيل العزيز (فمنهم من قضى نحبه) أى قضى نذره ، كأنه ألزم نفسه أن يموت فوفّى به ونعم الوفاء ونعم الجزاء .

وصح أن يقال سار فلان على نحب إذا سار فأجهد السير لأنه قد خاطر على شىء فجدّ ، والتنحيب الذى يقال

فى ورد الإبل سائغ أيضاً لأن سبيله الهلاك والمخاطرة ، وصفت به الليالى التى يسار فيها لأنه صار جزءاً منها يلوح فيها فى قولهم ثلاث ليال منحِّبات .

وإذا وردت الإبل الماء فالسقية الأولى النهَل والثانية العلل ، لأنهــا تسقى فى أول الورد فترد الى العــطن ثم تسقى الثانية فترد الى المرعى ، وهذا ترتيبهم فى شرب الابل بعد المخاطرة ومكابدة الشدائد التى صار معهــا النهــل يجمع بــين الأمرين إذ يقــال للرى والعــطش ، والناهل الريان والناهل العطشان ، قال النابغة :

الطاعــن الطعــنــة يــوم الوغــى
يَــنــهــلُ مــنــهــا الأسَــلُ النــاهِــل

جعل الرماح كأنها تعطش الى الدم فاذا شرعت فيه رويت ، هذا ماذكره صاحب اللسان وقد نقل ماذهب اليه اللغويون فى تفسيره فقال أبو عبيد هو ههنا الشارب وإن شئت العطشان ، أى يروى منه العطشان ، وقــال أبو الوليد ينهل يشرب منه الأسل الشارب ، قال الأزهرى وقول جرير يدل على ان العطاش تسمى نهالا وهو قوله :

وأخــوهــمــا الســفّــاح ظمّــأ خــيــلَه
حــتــى وردْن جــبــا الكــلاب نِــهــالا

قال وقال عميرة بن طارق فى مثله :

فـمــا ذقتُ طعــم النــوم حتــى رأيتُـنــى
اعــارضــهم وِرْد الـخـمــاس النــواهِــل

والذى يصحح ماقالوه أن الفعل جامع للأمرين فى آن واحد لايستقل بأحدهما دون الأخر لأنهما لحظتان تتدافعان فى سياقه القائم على طرفى الامكان بحيث لايتحقق الرى إلا بالعطش كأن هذا داخل فى ذاك وجزء مقوم من أجزائه والنابغة انما حمل الأسل إلى غايتها بعد أن هيأ لها ماترتوى به من عطش ، وجرير كذلك أتاح للسفّاح أن يظمِّىء خيله قبل أن تشرب النهل .

فالنهل فيه من العطش حرارته إلا أنه لحظة حاسمة تحمل علة وجودها ، ومن أجل ذلك سموا المنهل المشرب ثم كثر حتى سميت منازل السفار مناهل ، والناهلة المختلفة الى المنهل .

والشرب بعد النهل على مراتب تتعاور فيه اللغة العطش بالأسماء التى تكسر حدته كأنه ينبوع مر تتدفق منه وتتوالى مما أفضى الى اضطراب فى كلام اللغويين فقد قيل أعللت الابل اذا اصدرتها قبل ريّها ، قال صاحب اللسان : وفى أصحاب الاشتقاق من يقول هو بالغين المعجمة كأنه من العطش ، والأول هو المسموع أبو عبيد عن الأصمعى أعللت الابل فهى إبل عالة اذا اصدرتها

ولم تروها .

قال أبو منصـور : هذا تصحيف والصـواب أغللت الإبل بالغين وهى إبل غالّة : وروى الأزهرى عن نصير الرازى قال صدرت الابل غالّة وغوالّ وقد أغللتها ، من الغلة وهو حرارة العطش ، وأما أعللت الابل وعللتها فهما ضـدا أغللتها لأن معنى أعللتهـا وعللتها أن تسقيهـا الشربة الثانية ثم تصدرها رواء وإذا علّت فقد رويت ، ولكن العلل ظلَّ مع ذلك يحمل آثار الغلّة ، وماتقضيه من قلة فى الرى وعلة ، لأنه شفاء من سقام قال جرير :

تـعـلّل وهـى سـاغـبـة بـنـيـهـا
بـأنـفـاسٍ مـن الشَّـبِـم القَـراح

يروى أنه لما أنشد عبدالملك بن مروان هذا البيت قال له لاأروى الله عَيْمَتهـا ، وهو من شر مـَايدعى بـه على مثلها ، فالعيمة شدة العطش وشدة الشهـوة الى اللبن حتى لايُصبر عنه ، وكلاهما مما يجول فى البيت بأشباح الخوف والجوع ، ونظير قولهم للإبـل إن صدرت بعـد عطش شديد فلم تنضح ولم تنقع وصدرت بعـطشـها . صدرت وبها خصاصة وذُبابة ، كأن بها فقـرا إلى الماء وبقية عطش .

ويلح العطش أيضاً فى قولهم وردت الابل فتغمرت ولم ترو أى شربت قليلا ، من الغُمر وهـو القدَح الصغـير

والتعمر أقل الشرب دون الرى ، ويقال فيه نشحت والشراب نشوح ، قال ذو الرمّة :

فانصاعت الحقْبُ لم تقصَع صَرائرهَا
وقد نشحن فلا رِىٌّ ولا هيمُ

وماقيل من أن نشح الشارب معناه شرب حتى امتلأ على مافى المعجمات ليس بشىء إذ الشارب لايبلغ فى النشح ذلك بل غايته أن يتطلع إليه ليقاربه فى صيرورة مستمرة من العطش والرى اللذين يتعاقبان دون أن ينتهى من ثانيهما الى الامتلاء ، والشأن فى ذلك كالشأن فى صور الحياة وآمالها يظل المرء يركض وراءها وإذا بلغ منها شيئاً تشوف الى ماوراءه حتى إذا تمت كان فى تمامها موته وهذه هى محنة الانسان تهادت بأثقالها فى كلمة ذى الرمة وقد جعل الحُقْب معلقة فى النشح فلا هى رى ولا هى هيم .

وقد بقيت صبابة من هذا الألم الإبلى فى حديث أبى بكر قال لعائشة رضى الله عنها انظرى مازاد من مالى فردّيه الى الخليفة بعدى فإنى كنت نشحتها جهدى أى أقللت من الأخذ منها ، وهو من ألم أولى العزم الذين يغلبون الشهوات ولايُغلبون .

وقول ذى الرمة لم تفثأ فيه الإبل غلتها ولذلك قال لم تقصع صرائرها مفرده على ماقيل صارة وهى العطش

وجمعه على صرائر نادر .

عن ابن الأعرابى صرّ يصِرّ إذا عطش وصرّ إذا جمع ، ويقال قصع الحمار صارّته إذا شرب الماء فذهب عطشه ، قال أبو عمرو : وجمعها صرائر ، وانشد بيت ذى الرمة أيضا لم تقصع صرائرها ، وعيب ذلك على أبى عمرو وقيل إنما الصرائر جمع صريرة وأما الصارة فجمعها صوارّ ، وإذا قصعت صارّتها فقد هزمت العطش وذهب الرى كل مذهب .

وماقالوه فى أسماء الشرب من حيث العطش قالوا مثله فى أسماء أحداثها المأخوذة من علاقتها بالماء وماحوله ، عرضتُ الإبل على الماء أعرضه عرْضا سُمْتُها ، وذهب الجوهرى إلى أن هذا من المقلوب ، ومعناه عرضت البعير على الحوض ، والوجه فيه عندنا ان الحوض لما كان بمنزلة الغاية التى تنتهى اليها الإبل ساغ ان يقال ذلك بحيث تكون الإبل هى المعروضة على الحوض ، ومنه غوارض الوِرد لأوائله ، قال الشاعر :

كرامٌ يَنال الماءَ قبل شفاههم
لهم عارضاتُ الورد شمُّ المناخِرِ

أى تقع أنوفهم فى الماء قبل شفاههم فى أول ورود الورد لأن أوله لهم دون الناس ، وهو من دواعى الفخر والعزة ، ومن أمثالهم (أهون السقْى التشريع) وذلك

أن يوردها شــراع الماء فتشــرب دون أن يستقى لها ، ويقال شرعت الإبل تشرع شــروعاً مـدّت رؤوسها الى الماء ، وإبل شُرَّع وشروع ، ومثله الإقناع وهو أن يمد البعــير رأسه الى الحــوض ليشرب ، وأقنــع رأسه إذا رفعه . ومن كلامهم فى سقى الإبل سقيتُ على إبلى قَبلا إذا صبّ الماء على أفواهها ، وأقبلْتُ على الإبل إذا شربَتْ مافى الحوض فاستقيتَ على رؤوسهــا وهى تشرب ، ثم الدخال .

وللغويين فيه أقوال ساقها صاحب اللسان من صورها أن يشرب البعير ثم يرد من العطَن الى الحوض ويدخل بين بعيرين عطشانين ليشرب منه ماعساه لم يكن شرب ، وقال الأصمعى إذا وردت الإبل ارسالاً فشرب منها رسَل ثم ورد رسل آخر الحوضَ فأدخل بعير قــد شرب بــين بعيرين لم يشربا فذلك الدخال وإنما يفعــل ذلك فى قلة الماء ، وأنشد غيره بيت لبيد :

فــأوردهـــا العــراكَ ولم يــذُدْهـــا

ولم يــشــفِــقٍ عـــلى نـــغَص الدّخـــال

ونغص البعير اذا لم يتم شُرْبه .

وقال الليث الدخال فى ورد الإبل اذا سقيت قطيعــاً حتى إذا ماشربت جميعــاً حُملت على الحــوض ثانيــة لتستوفى شربها ، قال أبو منصور : والدخال ماوصفــه

الأصمعى لا ماقاله الليث ، ابن سيده الدخال ان تدخل بعيراً قد شرب بين بعيرين لم يشربا ، قال كعب بن زهير وإن كان يصف الحُمر :

ويشربْن من باردٍ قد علمْن
بأن لا دخالَ وأن لاعُطونا

وقيل هو أن تحملها على الحوض بمرّة عراكا ، وإليه يشير من بعض الوجوه بيت لبيد ، والمآل فى كل ذلك واحد وهو إدخال ماليس حقه من الإبل ان يدخل بحيث صح ماقاله ابو منصور على مايشهد به بيت كعب وكأنه ينفى الظلم بنفى الاقتحام ، ولكن من وراء ذلك التدافع الى الشرب والشهوة الى الماء لدفع العطش الذى يلوح فى الصور جميعاً ، ويقال للإبل اذا شربت دفعة واحدة حتى رويت همجت من الماء وهى إبل هوامج ، والهمج أصله البعوض الواحدة همجة ثم يقال لرذال الناس همج هامج ، قال ابن خالويه الهمج الجوع وبه سمى البعوض لأنه اذا جاع عاش واذا شبع مات والهمَج الجوع وهمج اذا جاع ، فهل سموا فعل الإبل اذا ازدحمت على الحوض تخبطه بأذرعها دفعة واحدة لتشرب همجا لأنها تكون كالعطش المجسد ، والجوع أخو العطش كلاهما قاتل ؟

ومما يدل على ذلك قولهم أيضاً فى مثله انتضفت الإبل

مافى حوضها شربتْه إذ لايخلو من لهفة وخوف ينفضها نفضة الموت فتعبّ الماء على عجل كأنها تسابق الهلاك .

فاذا رويت ثم بركت فهى عواطن ، عطنت تعطن عطونا واسم الموضع العطن ، وهو للإبل كالوطن للناس ، وأعطنها سقاها ثم أناخها وحبسها عند الماء فبركت بعد الورود لتعود فتشرب ، قال لبيد :

عافتا الماء فلم نُعطنهما
إنما يُعطن أصحاب العلَلْ

ولهم فى إعطان الإبل مايشبه الشعائر التى يراعون فيها طلوع كوكب بعينه ، فهم يعطنونها حين تطلع الثريا ويرجع الناس من النُجَع إلى المحاضر ، وإنما يعطنون النعَم يوم وِرْدها فلا يزالون كذلك الى وقت مطلع سهيل فى الخريف ثم لايعطنونها بعد ذلك ولكنها ترد الماء فتشرب شربتها وتصدر من فورها .

والعطن احتفال بالحياة فهى إذا رويت بركت حول الماء أو عند الحياض لتعاد الى الشرب مرة اخرى لتشرب علَلا بعد نَهل ، فإذا استوفت ردّت الى المراعى والأظماء .

وقد تألق ذلك فى حديث الرؤيا : رأيتُنى أنزع على قليب ، فجاء أبوبكر فاستقى وفى نزعه ضعف والله يغفر له ، فجاء عُمر فنزع فاستحالت الدلو فى يده غَرْبا فأروى الظمِئَةَ حتى ضربت بعطن ، وذلك من بلاغة النبوة

ضربه صلى الله عليه وسلم مثلا لاتساع الناس فى زمن عمر ومافتح عليهم من الأمصار .

والعطن ليس معناه الاستقرار المطلق ، فهذا مالا تعرفه الإبل وأصحابها ، بل هناك دورة تروح فيها الابل وتغدو كما هو شأنها فى سائر حياتها ، والدورة التى نعنيها فى هذا المقام هى مايقال له التندية بأن يوردوها حتى تشرب قليلا ثم يجيئون بها ترعى ساعة ثم يردونها الى الماء والتندية فى الإبل والخيل ، ومُندّاهم من معالمهم الجغرافية التى تنزل منزلة الحدود لحياتهم وحماهم ، اختصم حيان من العرب فى موضع فقال احد الحيين مركز رماحنا ومخرج نسائنا ومسرح بهمنا ومندّى خيلنا .

وندت الإبل اذا رعت فيما بين النَهل والعلل تندو ندواً فهى نادية وتندّت مثله ، والاسم الندوة والموضع مندّى ، قال علقمة بن عبْدَة :

تُرادُ على دِمْن الحياض فإن تَعفْ
فإن المندَّى رحلةٌ فرَكوبُ

والضمير فى تراد للناقة فى بيت قبله وهو :

إليك أبيت اللعنَ أعملتُ ناقتى
لكلكلها والقصْريَيْن وجيبُ

ورحلة وركوب على مافى اللسان هَضبتان .

والنـاقة لاتكف عن ذلك فهى واردة صـادرة ، وقد خصوها بفعل فيه هـذا المعنى فقالوا عفقت الإبـل عن المـرعى الى الماء رجعت إليـه ، وكل وارد صـادر عافق وكذلك كل مختلف وهو شبه الخنوس إلا أنه يرجع ؛ ومنه قول لقمان فى حديث طويل : خذى منى أخى ذا العفاق ، صفّاق أفّاق ؛ يعمل البكرة والساق ، يصفه بـالسير فى آفاق الأرض راكبّاً وماشيا على ساقه ؛ وهذا شأن الناقة بل هذه ماهيتها التى يتلاشى معها كل شىء حتى المكان لأنها تطويه فى سيّال الحركة والمصير ؛ وقد قال ابن سيده فى قول عاهان بن كعب :

تـبـكُّ الحـوض عـلّاهـا ونـهْـلى
ودون ذيـادهـا عـطنٌ مُـنـيـم

أى ينام صاحبها اذا حصلت إبله فى مكان معـين ، وأراد ونهلا فاجتزأ من ذلك بإضافة علّاها ، وأراد ودون موضع ذيادها فحذف المضاف ، قال : وإنما قلنا هذا لأن الذياد الذى هو العرض لايمنع منه العطن ، إذ العطن جوهر والجواهر لاتحول دون الأعراض فتفهّمه ، وكذلك غيره من الماشية والناس .

ونقول لا داعى للتقدير لأن مقتضاه وجود المكان ، والمكان قد اضمحل او تلاشى فى خضم التـدافع الذى يستوى فيه الجوهر والعرض لأن الذياد والعطن صارا

بمنزلة واحدة فى سياق المصير الذى تولد حول الماء بحيث تحطم الجمود إزاء الإبل وقد ازدحمت وتدافعت لا فرق بين علّاها ونهلاها وهى ترفع رءوسها وتخفضها وتنفر وتتفرق ومن أجل ذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى أعطان الابل دون مرابض الغنم فى الحديث صلوا فى مرابض الغنم ولاتصلوا فى أعطان الإبل . قال ابن الأثير لم ينه عن الصلاة فيها من جهة النجاسة فإنها موجودة فى مرابض الغنم وقد أمر بالصلاة فيها والصلاة مع النجاسة لاتجوز ، وإنما أراد ان الإبل تزدحم فى المنهل ، فاذا شربت رفعت رؤوسها ولايؤمن من نفارها وتفرقها فى ذلك الموضع فتؤذى المصلى عندها أو تلهيه عن صلاته أو تنجّسه برشاش أبوالها .

وقد أفردوا لما يكون من تفرق وازدحام على الحوض فعلا فقالوا بك فلان يبك بكة اى زحم وبك الرجل صاحبه يبكّه بكًّا زاحمه أو رحمه ، قال :

إذا الشريب أخذته أكَّهْ
فخلِّه حتى يبكَّ بكَّه

يقول إذا ضجر الذى يورد إبله مع إبلك لشدة الحر انتظارا فخلّه حتى يزاحمك ، وقال ابن دريد كأنه من الأضداد ، يذهب فى ذلك إلى التفريق والازدحام ، وكل شىء تراكب فقد تباكّ ، وتباكّ القوم تزاحموا ، وفى

الحديث : فتباكّ الناس عليه أى ازدحموا ، والوجه فى هذا الفعل عندنا على ماننذهب إليه فى مثله مما يدخل تحت ماسموه بالأضداد ، أنه يضم فى أعطافه لحظتى التفرق والازدحام فى آن واحد ، فالازدحام إذا بلغ غايته لابد معه من التفرق وإلا أفنى المزدحمون بعضهم بعضا ، كأن التفرق هو الحل الخصب الذى يبقى على الحياة إذ يدفع الموت ، ومن ثم كان فى معنى (بكك) الرحمة لأنها الغاية التى يقتضيها الوجود القاسى ، وهذا هو الدرس الذى تعلمته العرب من الإبل .

* * *

وسير الإبل آية أخرى من آياتها فى العربية استكثرت من أسمائه وملأت معجمها من أحواله فى اللين والرفق ، والسرعة والشدة ، والرياضة والذلة ، فكان من ذلك كيانها الذى لاتستقيم إلا به ، ومصيرها الذى لاتعول إلا عليه بل كان منه مايشبه الأفق الدرامى لها ولمن تحملهم ، قال بشامة بن الغدير :

كأن يديها إذا أرقَلتْ
وقد حرْن ثم اهتدين السبيلا

يدا سابح خر فى غمرة
وقد شارف الموت إلا قليلا

إذا أقبلَت قلت مشحونة
أطاعت لها الريح قِلْعا جفولا
وإن أدبرتْ قلت مذعورة
من الرُّبْد تتبع هيقاً ذمولا

والربد النعام وهذا لونها وهو بين السواد والغبرة . والهيق الظليم والذمول السريع .

وإنما كانت فى يديها الحيرة لأنها كانت تنشد الهداية فلا تجدها فى طريق لا آخر له المصير فيه معلّق كمصير الغريق الذى يرى فى الموت نجاة له من اليأس من الحياة ولكنه لايبلغه ، لأن يديه تدفعانه كما تدفع يداها إذا أرقلت الهلاك ، ومن ثم آلت الى سفينة ونعامة : سفينة تطيع الريح قلعها الجفول ، ونعامة مذعورة تقبع ذكرها الذمول ، وماذا عسى ان يكون بينهما الا الاقبال والإدبار ؟

أليس هذا علم الناقة لأنه من حقيقتها الأرضية كما قال أبو تمام :

وبدّلها السُّرى بالجهل حلماً
وقدّ **أديمها** قد الأديم
بدتْ كالبدر فى ليل بهيمٍ
وآبت مثل عرجونٍ تديم

والبدر فى طلوعه واحتجابه شاهد من شهود السماء

ودليله مـايعتريـه من امتلاء ثم انحنـاء ، قال تعـالى : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) قال الأزهرى العرجون أصفر عريض شبه الله به الهلال لما عاد دقيقاً .

ومن اجل ذلك كان ضمور الناقة من السير برهانا على فنائها فى سبيل الحياة ، قال الخطيم الخزرجى :

وقـد ضـمـرت حتـى كـأن وضيـنهـا
وشـاح عـروس جـال منهـا عـلى خصر

والوضين بطان عريض منسوج من سيور أو شعر وهو للرحل بمنزلة الحزام للسرج ، وإنما كان كوشـاح العروس لأنه لها كالوسام جزاء ماأبلت وهى تعلو وتهبط وتخوض غمرات الدجى الذى تزف اليه وعليها زينتها كما فى قول ابن دريد :

خـوص كـأشـبـاح الحنـايـا ضـمُـرٌ
يـرعفْن بـالأمشـاج من جـذب البُـرى
يـرسُبْن فى بحـر الدجى ، وفى الضـحى
يـطفـون فى الآل إذا الآل طفـا

والخوص غائرات العيون جمع خوصاء ، والأشباح الأشخاص ، والحنايا جمع حنيّة وهى القوس لأنها مجنية اى معطوفة ، ويرعفن من الرعاف وهو انبعاث الدم من الأنف ، والبرى جمع برة وهى حلقة تكون فى

أنف البعير من فضة أو غيرها .

ومما قالوه فى سيرها التهويد وهو الابطاء فى السير واللين والترفق ، والتهويد لايكون فى الجدب بل هم فى الجدب يسرعون ، وفى حديث ابن مسعود : اذا كنت فى الجدب فأسرع السير ولاتهوّد اى لاتغتر ، وكذلك التهويد فى المنطق وهو الساكن يقال غناء مهوّد وانما كان التهويد لكليهما لأنهما من باب واحد هو باب انطلاق الذات بخروجها عن الصمت المطبق فى الحالتين اذ التوقف عن السير صمت على نحو من الأنحاء ، ولعلهم نعتوا الغناء بالتهويد من أجل ذلك كما فى قول الراعى وقد أسمع ناقته القريض الذى يغنيه الحُداة :

وخودٍ من اللائى تسمّعن بالضحى
قريضَ الرُّدافَى بالغناء المهوّد

كأنها أنست بالغناء لما استوحشت من السكون .

ويقال أيضا لهذا الضرب من السير الملْخ كأنها تستل جسمها رويدا ، امتلخت الشىء إذا سللته على هذه الصفة ، ومثله التطفيل للسير الرويد ، وقد طفّلتُها وذلك اذا كان معها أطفالها فرفقوا بها حتى تلحقها ، وكذلك الدفيف للين ، دفّ يدِفّ دفًّا ودفيفا ، وهو من الدفّ والدف الجنب وكأنه من حركة النبات الزاهر قال الحطيئة :

يظن به الشيخ الذى كان فانيا

يدِفّ على عوج له نخرات

ومنه التهادى ؛ وهو مشى النساء والإبلِ الثقال فى تمايل وسكون ، قال الأعشى :

إذا ماتأتّى تريد القيام

تهادى كما قد رأيتَ البهيرا

البهير من البُهر وهو انقطاعِ النفَس من الاعياء ، فلا القعود يمسكها ولا القيام يطلقها .

ويقابل ذلك من كلامهم فى سرعة السير النجاء ، يقال ناقة ناجية ونجاة سريعة كأنها تنجو بمن ركبها ، وسمى الأعشى القوائم لأنها اداتها الى ذلك فى قوله :

تقْطَع الأمعز المكوكبَ وخداً

بنواجٍ سريعة الايغال

والأمعز الأرض الحزْنة الغليظة ذات الحجارة ولاتقوم لها إلا مثل هذه القوائم .

ومنه الهُوىّ والمهاواة وهى شدة السير ، وهاوى سار سيراً شديدا ، قال ذو الرمّة :

فلم تستطع مَىٌّ مهاواتنا السرى

ولا ليل عيسٍ فى البُرين خواضع

ويقال فيه الهوى لأن الإبلَ تهبط من علو الى سُفل لشدتها وكأنها فى سباق مع نفسها ومع الأرض التى

تتقاذفها ، ونظير ذلك أن تعوم الإبل فى سيرها وتسبح ، أو تمد أعناقها وتوسّع خطاها فى سرعة وذلك اذا كانت الأرض لينة ذات رمل تغيب فيه الأرجل ويقال لها الوعثاء ، والمواعسة للسير كأنها تأخذ من الأرض بعض صفاتها وتغلبها بسلاحها ، قال الشاعر :

كم اجتبْن من ليلٍ إليك وأوعَستْ
بنا البيدَ أعناقُ المهارى الشعاشع

وأقصى سيرها يقال له النص ويكون ذلك بتحريكها حتى تخرجه ، وبمثله تقطع الخرْق وهى الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح كما فى قول القائل :

وتقطع الخرْقَ بسيْرٍ نِصّ

وفى الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم حين دفع من عرفات سار العنَق ، فإذا وجد فجوة نصّ ، أى رفع ناقته فى السير . والعنق ضرب من سير الإبل مأخوذ من العُنق ويقال للناقة التى تتعاطاه ناقة مِعْناق ، قال الأعشى :

قد تجاوزْتُها وتحتى مروحُ
عنتريسٌ نعّابةٌ مِعْناقُ

كأنها وهى فى الرَّوح والنشاط متطلعة مُشرئبة بعنقها تسرع وتمتد ويقال اسبطرت فى سيرها وهو اول مراتب

السير على ماذكر اللغويون ، فاذا ارتفع عنه قليلا فهو (التزيّد) ، فاذا ارتفع عن ذلك فهوّ (الذميل) ؛ ذمل

يذمل ويذمِل ذمْلا ، وهى ناقة ذمول من نوق ذمُل، وفى حديث قس يسير ذميلا اى سيرا سريعا لينا وأصله فى سير الإبل ، قال الشاعر :

تخبُّ إليه اليعملاَتُ الذوامل

ونوق الذميل الرسيم ، وهو ضرب من السير سريع مؤثر فى الأرض ، وقد رسم يرسم بالكسر رسيما للبعير ويقال لمن يحمله على ذلك أرسم لاجتماعه معه فى الفعل ، قال حُميْد بن ثور :

أجدّت برجليها النّجاءَ وكلّفت
بعيرىْ غلامىَّ الرسيم فأرسما

وأرسم من هذه الجهة على حد قولهم أبل الرجل يأبُل أبالة اذا حذق مصلحتها وإن فلانا لايأتبل أى لايثبت على الإبل ولايحسن رعيتها ، وفلان من آبل الناس أى من أحذقهم برعية الإبل ، والإبالة سياسة الإبل ، ورجل إبلى بفتح الباء وكسرها ، فكل ذلك يشير الى وجود واحد يتعاطاه الانسان والناقة .

وفوق الذميل الحفد ويقال له الإحفاد وذلك إذا دارك البعير المشى مع خطو متقارب ، فاذا ارتفع عن ذلك

فضرب بقوائمه كلها قيل مرّ يرْتبع ارتبـاعاً ، والربعـة الاسم .

ومن ضروب السيرماهو مأخوذ من الأعضاء وحركتها وقد قدمنا من ذلك العنق ، واليد والرجل لهما الغلبة على ماسواهمـا من الأعضاء ، ويقـال لما كـان باليـد اللبط وبالرجل الخبط .

ومنه اللبن وهو ضرب الناقة بجمع خفها ضربا لطيفا فى تحامل ، قال الشاعر :

خبْطا بأخفافٍ ثقال اللَّبْن

والخَبْز ضرب البعـير الأرض بيديـه ومنه اشتقـاق الخُبز ، والعسيج وهو مد العنق فى المشى ؛ أنشـد ابن دريد :

عـسْـجـن بـأعـنـاق الظبـاء وأعـ
ـين الـجـآذر وارتـجّـت لهـن الروادف

ثم هى تتمتـح فى سيرهـا وتهتز فى مـوكبها وتـرمى بقوائمها كمشى النعام وتسرع الخطوة وتوسّعه كالظليم فى الوخَدان ، وتتابع على طرقة واحدة ومنه تطارق الشىء ويقرنها صاحبها بعضها الى بعض فى نسق فيقال جاءت الابل قطارا ومنه القطار الحديدى الذى سموه بذلك فى العصر الحديث .

وخافوا من شراد الابل فقالوا فيه شرد البعير والدابة

يشرد شرادا وشرودا فهو شرود إذا ذهب على وجهه ، ومنه قافية شرود سائرة فى البلاد ، كما قالوا ند البعير يند والند الشذوذ ، وقد تنفر فى الغارة فتتبـدد وتتفرق ويقال فيه هاشت هوشا ، وربما رويت فتـذهب ذهابـا شديدا فتعيى راعيها وتسمى عند ذلك الخلابيس .

ومما يدخل فى باب سيرها مانظروا فيـه الى الزمان الذى يشمله فقالوا التأويب لسير النهار كله الى الليل ، وهو نظير الإسآد الذى يقال للسير ليلا ، فإذا سار القوم من أول الليل فذلك الدلَج ، فان ساروا من آخـره فقد ادّلجوا بتشديـد الدال والاسم الدُّلجة ، وفى الحـديث عليكم بالدلجة ، قال الجوهرى هو سير الليل ، ومنهم من يجعل الإدلاج لليل كله ، قال وكأنه المراد فى هذا الحديث لأنه عقبه بقوله فان الأرض تطوى بالليل ولم يفرق بين أوله وآخره .

فاذا ساروا مع الصبح فهو التغليس من الغَلس وهو أول الصبح حتى ينتشر فى الآفاق ، فـاذا نزلوا نصف النهار هنيهة ثم رحلوا فهو التغوير ، فاذا نزلوا آخر الليل فهو التعريس ، وقيل التعريس نزول القوم فى السفر من آخـر الليل يقعـون فيه وقعـة للاستراحـة ثم ينيخون وينامون نومة خفيفـة ثم يثورون مـع انفجار الصبـح سائرين ، ومنه قول لبيد :

قـلّمــا عــرّس حــتــى هــجــتُــه
بــالــتــبــاشــيــر مــن الــصــبــح الأول

وفى الحديث كان اذا عرّس بليل توسّد لَبنـةً ، وإذا عرّس عند الصبح نصب ساعده نصبا ووضع رأسه فى كفه .

ومن تمام القول فى سير الناقة ذكر الرحال لأن الرحلة للناقة كالمصير ، والرحل مركب للبعير ، يقال رحلٌ وأرحلُ ورحال ، وحكى سيبويه عن يونس : ضع رحالَهما يعنى رَحْلى الناقتين وكأنه قد استغرب ذلك ، قال ابن سيده : إنما استغرب سيبويه ذلك لأن إخراج المثنى على لفظ الجمع إنما يكون فى المركبات ، كقوله ضربت رؤوسهما وماأحسن عزاليهما[1] ، وأما الرحل فليس بجزء من الناقة ، لكن لما كان الرحل يلزمونه الظهر ويغبطونه عليه صار كالجزء من الجملة فأخرجوا التثنية على لفظ الجمع كما فعلوا ذلك بما كان جزءا من الجملة .

قلنا وهذا هو الوجه فى اخراج المثنى على لفظ الجمع فى رحالهما ، فالرحل جزء من الناقة لاينفك عنها ولاتنفك

(١) العزالى بكسر اللام جمع عزلاء وهى مصب الماء من الرواية والقربة فى أسفلها حيث يستفرغ مافيها من الماء ، سميت عزلاء لأنها فى احد خصمى المزادة لا فى وسطها ولا هى كفهما الذى منه يستقى فيها ، وفى الحديث وأرسلت السماء عزاليها كثر مطرها على المثل ، ويقال للسحابة إذا انهمرت بالمطر الجود قد حلت عزاليها وأرسلت عزاليها .

عنه ، وفعله كالبؤرة التى تتداعى اليها اطراف المعنى من البعـير وغيره ، فيقـال رحلْتُ الرحـل أرحله رحـلاً وضـعـتـه عـلى البـعـير ، دون ذكـر البعير لأن الفعل يتضمنـه بذاتـه ، كما يقـال من جهة اخرى رحلْتُ البعير ارحله رحلا وارتحلْتُه وضعت عليه الرحل ، دون ذكره صـراحة اكتفـاء بوجـوده فى الراء والحـاء واللام ، وإبل مـرحّلة عليها رحـالها ، ورحّلت غيرى ورحلتُه أعنته على الرحل .

ومن إجل ذلك ايضا يقال أغبط الرحلَ على ظهر البعير إغباطا ادامه ولم يحطه عنه ، واستعملوا هذا الفعل فى الحمّى فقـالوا اغبطت عليـه الحمى دامَتْ وفى حـديث مرضه الذى قُبض فيه صلى الله عليه وسلم انه اغبطت عليـه الحمى اى لزمته ، وهـو من وضع الغبيـط عـلى الجمل ، قال الأصمعى اذا لم تفـارق الحمّى المحموم اياما قيل اغبطت عليه واردمت .

واستعملوه ايضا فى المطر فقالوا اغبط علينـا المطر وهوثبوته لايقلع بعضه على اثر بعض ، وأغبـطت علينا السماء دام مطرها واتصل ، وسماء غبطى دائمة المطر .

وليس عبثا ان تجتمع الحمّى والمطر الدائم والرحل فى مرآة الإغباط ، فكلها من أسباب القهر التى تلازم الذات ولاتفارقها قد تأدت اليها من طريق الحياة الصحيحـة

لكنها تجاوزت الحد فانقلبت الى الضد ، فالحمى اولها الحرارة التى يصح بها البدن وآخرها الهلاك الذى يدق العظام ، والمطر أوله الغيث الذى تهتز به الأرض وآخره السيل الذى يأتى على الزرع والضرع ، وكأن الإغباط من هذا الباب أوله تذليل البعير وتمهيد ظهره وآخره قيد له وإسار .

وكل مايذكر من أدوات الرحال ونعوتها فيه من الألم اشياء ، وقد سموا الرحل معقارا لأنه يعقر ظهر البعير ، ومثله الملحاح الذى يعضّ ، والقاتر وهو الجيد الوقوع على ظهره لأنه لايستقدم ولايستأخر ، كأنه قلق لايحز ظهره ، وهو وإن كان فيه نفى للألم فانه يتضمنه بحق هذا النفى لأنه لا نفى الا لما كان له وجود .

وقد قالوا لخشب الرحل بلا انساع ولا اداة العظم كأنه كعظم الناقة يبنى عليه الرحل كله ، والأنساع واحدها نسع وهو سير يضفر على هيئة اعنة البغال تشد به الرحال ، والقطعة منه نسعة ، وقيل النسعة التى تُنسَج عريضا للتصدير وفى الحديث يجر نسعة فى عنقه ، وقد تجعل على صدر البعير .

أقول وقد شدّوا لسانى بنسعةٍ

وجاء فى شعر حميد بن ثور النسع للواحد قال :

رأتْنى بنسعيها فردت مخافتى
الى الصدر روعاء الفؤاد فَروق

وماسوى الانساع يقال له الجلبة بضم الجيم كالحديدة تكون فى الرحل ومايُؤْسَر به ، أو جلدة تجعل على القتَب .

وقادمة الرحل يقال لها العصافير ، وفيه الظلفات وهى الخشبات الأربع اللواتى يكنّ على جنبى البعير ، ويقال لأعلاهما العضدان وأسفلهما الظلفتان ، والعرقوتان الخشبتان اللتان تضمان مابين واسط الرحل والمؤخرة ، والصفّة الأديم الذى يضمهما ، والفهد مسمار فى واسط الرحل وهو الذى يسمى الكلب والقتد خشبه ، والرفادة دعامته ، والإسار والأسر القِدّ الذى يشد به الخشب ، والوكائد السيور التى يشد بها الرحل وقد وكّدته وأكّدته ، والحمار خشبة فى مقدمة تقبض عليها المرأة ، قال الشاعر :

وقيّدنى الشعر فى بيته
كما قيّد الآسراتُ الحمارا

وهذا الموكب الإبلى قد تضم إليه أشياء أخرى فتسمى أيضاً رحالاً وتضاف الى الابل كما فى قولهم اعطاه مائة بريشها ، قال ابو عبيدة كانت الملوك اذا حَبَت حباء جعلوا فى أسنمة الابل ريشا ليُعرف انه حباء الملك .

ثم ماأكثر ماوضعوا فيها من متاع كالأكسية المحشوة والنمارق والطنافس والمفارش ولكل منها اسم يميزها عن سواها بمكانه من البعير ووظيفته ومادته التى تصنع منها .

وقد فرّقوا أيضا بين ضروب المراكب سوى الرحال بناء على الراحلين ان كانوا من الرجال او النساء او الراحلات ان كن من الحرائر او الإماء ، فقالوا لمركب الرجال وهو بين الرحل والسرج القرّ ، قال امرؤ القيس :

فإما تريْنى فى رحالة جابرٍ
على حَرَج كالقرّ تخفق أجفانى

أى هذا آخر لباسى كأن حياته قد ذهبت وإن كان حيا .

والكفل أيضا من مراكب الرجال وهو كساء يعقد طرفاه ثم يلقى مقدمه على الكاهل ومؤخره على عجز البعير ، والهودج مركب للنساء وجمعه هوادج كالظغائن ويقال هذا بعير تظعنه المرأة أى تركبه ، والنعش شبيه بالمحفّة كان يحمل عليها الملك اذا مرض وليس بنعش الميت ثم كثر فى كلامهم حتى سمى السرير الذى يحمل فيه الميت نعشا .

* * *

ولرحلة البعير مع الانسان نظيرها فى رحلته من مولده إلى موته ، فكانت أسماء الابل من قبل اسنانها اشهر اسمائها التى تدل عليها فى **مراحل** حياتها ، فأولها السليل وهو ولدها ساعة تضعه قبل ان يعلم أذكر هو أم أنثى ، والسليل يقع على الولد أيضا من بنى الانسان حين يخرج من بطن امه ، سمى سليلا لأنه خلق من السلالة وهى ماسُل من صُلْبِ الرجل وترائب المرأة ، فان كان ذكرا فهو سَقْب والأنثى سقبة ، قال الجوهرى ولايقال للأنثى سقبة ولكن حائل ، كأنهم خصوا الذكر بالسقب لقوة غنائه ، أنشد سيبويه :

وساقيين مثل زيدٍ وجُعَل
سقْبان ممشوقان مكنوزا العضَل

وزيد وجعل رجلان شبها بسقبين فى قوة الغناء .

ويسمى حوارا إلى حين يفطم والأنثى حوارة فاذا بلغ سنة ففصل فهو فصيل سمى بذلك لأنه فُصل عن أمه ، فاذا تم رضاعُه سنة ولزمه اسم الفصيل حُمل على أمه من العام فأُلحقت فهو حينئذ ابن مخاض .

فاذا نتجت أمه وذلك بعد سنتين ودخول الثالثة وصار لها لبن فهو ابن لبون ، واذا فصل اخوه وذلك لاستكمال ثلاث ودخول الرابعة فهو حِق كأنه استحق أن يركب ويحمل عليه .

فاذا أتت عليه الخامسة فهو جذَع ، وهـو بعير إذا أجذع ، فاذا ألقى ثنيته وذلك فى السنة السادسة فهو ثِنْى ويقال له بِكر فاذا ألقى رباعيته وذلك فى السابعة فهو رَباع ، ويسمى جملا إذا أربع ، فإذا ألقى السنّ التى بعد الرباعية فهو سدَس وسديس وذاك فى الثامنة .

وهذه الأسنان التى سمى بها فى تلك المراحل كلُّها قبل الناب ، فاذا خرج الناب فقد بزل وجمعه بزُل ، والبزول أصله الشق تبزّل جلد فلان إذا تشقق .

ويقال إذا بزل نابه فطر نابه ، والناقة فى أول البزول تسمى باسم الناب كأنها صارت إياه والجمع نيب . ولايقال للذكر ناب ، قال سيبويه إنما قالوا نُيَيْب لأنهم جعلوا الناب المذكر اسما لها حين طال نابها على نحو قولك للرجل انما انت بُطَين ، ومثله أنت عينُهم فصار اسماً غالباً .

فإذا أتى عليه عام البزول فهو مخْلِف ، وليس له اسم فى سنّة بعد الاخلاف ولكن يقال بازل عام وعامين ومخلف عام وعامين وكذلك مازاد إلى أن يبلغ سنّ العرود وذلك إذا طال نابه واصفرّ ، فإذا جاوزه فهو عود ، ثم لايزال يرق ويضعف وتتكسّر أسنانه وتقع وتحتكّ وتغيب إلى أن يبلغ المبلغ الذى يمج معه ريقه فلا يستطيع أن يمسكه من الكبر ويقال له الماجّ والناقة ماجّة وتنتهى

بالناب المتهدّمه وهى المسنّة الهرمة .

ومن العجيب أن يضم لفظ السن فى أعطافه المعنيين ، قال الأعور الشنّى يصف بعيراً .

قرَّبتُ مثل العلَم المبنىّ
لافِانىّ السنّ وقد أسناّ

أراد وقد أسنّ بعض الاسنان غير أن سنّه لم تفن بعد وذلك أشد ما يكون البعير إذا اجتمع وتمّ ، كأن السن رمز القوة فى الإنسان والبعير على حد سواء ، تفنى سن هذا كما تفنى سن ذاك بذهاب الأسنان .

* * *

الفرس

ما تعلق العربىّ بشىء تعلقه بهذا الحيوان وما أبهم شيئا إبهامه لحقيقته ، فالخيل جمع لا واحد له من لفظه ، وواحده الفرس ويستوى فيه المذكر والمؤنث ، وللذكر بعد ذلك الحصان وللانثى حِجْر ؛ وهى ثلاث جهات لوجوده : الأولى للوجود العام فى الجمعية التى تعلو على الفردية ، والثانية للوجود الخاص الذى يتحقق فيه ذلك دون تمييز بين الذكر والأنثى ، والثالثة للوجود الأخص الذى يقع فيه هذا التمييز .

ومن أجل ذلك لم يكن ليصح قول أبى عبيد فى الخيل إن وَاحدها خائل لأنه يختال فى مشيتة ، ففضلا عن أن ذلك غير معروف على ماقال ابن سيده فهو تخصيص لامخصّص له يرجّحه على ما عداه ، وإذا كان فى طبع الفرسِ الزهو والخيلاء والعجب فإن لفظ الخيل يترامى إلى ذلك كما يترامى إلى سواه ، والتخييل الذى يجنح إليه المعنى لاينحصر فى جهة واحدة لأنه تشبه الشىء بالشىء ، يقال تخيل له أنه كذا أى تشبه ، والشىء إذا تشبه

تعـددت صوره وتبـاينت أحـواله واختلط فيـه المعلوم بالمجهول واقترنت فيه دواعى الأمن بدواعى الخوف .

والخيل على الجمع إنما كانت من باب ما تشبه لهم لأنهم لايتبينـون أفرادهـا ، والشىء المخـوف يـوصف بالعموم والكثرة والانتشار كما يقع فى الغارات والبيات والكمين والطلائع لايدرى معها من أين تنبعث ، فهى لا تـظهر إلا مختفيـة ، ولاتجىء إلا ذاهبة ، ولا تعلو إلا هـابطة ، مـع ما يكـون فى ذلك من الفزع الذى لايـرد والخوف الذى لايحد .

ومن هذا الاشتباه والتخييل يطلق لفـظ الخيل عـلى الفرسان كما يطلق على الحيوان ، وفى التنزيل (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) وقد فسّروه بفرسانك ورجّالتك ، وسياق الآية يدل على الرعب الذى يقـذفه الله فى قلوب المشـركين ، وقوله صـلى الله عليه وسلم (يـاخيـل الله اركبى) من هذا الباب ، ولا حاجة معه إلى تقدير حذف المضاف وأنه أراد يافرسان خيل الله اركبى ، فـإطلاق اللفظ على الأفراس والفرسان معناه أنهما فى حكم اللغة لايفترقان .

والإبهام الذى فى الخيل يوجد مثله فى الفرس وإن كان من جهة أخرى هى جهة التذكير والتأنيث ، والأصل فيه على ماقال اللغويون التأنيث وتصغيره بهاء وغير هاء ،

وحكى ابن جنى فرسة ، فإن كان كذلك فإنما ذهبوا إلى التوثق من التأنيث كما قالوا عناق وجذَعة ، فمعنى إطلاقه على كليهما أنه لا من الذكر فيذكر ولا من المؤنث فيؤنث ، وإنما هو كائن آخر من الكائنات التى كانت تكتفى بذواتها فى العقائد القديمة ثم انشقت إلى شطرين لتدل بكمالها على النقص الميتافيزيقى الذى جبلت عليه المخلوقات فى حاجة بعضها إلى بعض من أجل التوالد وبقاء الأنواع .

والفرس عند العرب من الحيونات العلوية التى صورت بها الكواكب كما قدمنا ، ويظهر فى ثلاث صور : الأولى كوكبة قطعة الفرس وهى صورة رأس فرس وعنقها فيه عشرة كواكب ذكر الصوفى أربعة منها فقط اثنان منها عند فمها ، واثنان فى أعلى رأسها .

والثانية كوكبة الفرس الأعظم كواكبه عشرون ، وهى على صورة فرس له رأس ويدان وبدن إلى آخر الظهر وليس له كفل ولا رجلان ، والأول من كواكبه على السرّة وهو على رأس المرأة المسلسلة مشترك بينهما ويسمى سرّة الفرس ، وآخر على متنه يسمى متن الفرس ، وكوكب على منكبه الأيمن يسمى منكب الفرس وآخر عند

منشأ العنق يسمى عنق الفرس وآخر على جَحْفَلتـه[1] خلف الأربعة التى على قطعة الفرس يسمى فم الفرس ، والعرب تسمى الأربعة النيرة التى على المربع أحدها عند منتهى العنق : متن الفـرس وجناح الفـرس والكواكب المشتـرك الدّلو ، وتسمى الاثنين المتقـدمين عـليهـا العرْقوة[2] والاثنين اللذين فى البـدن النعائم والكـرْب أيضاً ، شبهتها العرب بمجموع العرقوتين فى الوسط ق رأس الدلو حيث يشد فيه الحبل ، وذلك الموضع من الدلو يسمى الكرْب ، وتسمى الاثنين اللذين على الرأس سعد البهـائم ، والاثنين اللذين على العنق سعـد الهمـام ، والاثنين اللذين فى الصدر سعد البارع والاثنين اللذين على الركبة اليمنى سعـد الماطر[3] وإذا كـانت الصورة الفلكية للفرس فى السماء تمتد على هذه الأشياء فلاعجب أن تتدفق صورته المثالية فى الأرض بالمطر والماء ، ومعلقة امرىء القيس التى بدأ فيها النقد وأعـاددون أن يبلغ شيئـا من حقيقتها لايتضـح معناهـا إلا بـذلك ، فهى أنشودة كونية للمطر وابتهـال للاطلال ، والفرس فيهـا قطب الرحى تتدافع فى سياقه الأنثى والوليد ، والصخرة

---

(١) الجحفلة من الفرس بمنزلة الشفة من الأنسان

(٢) العرقوة أول الدلو .

(٣) القزوينى : عجائب المخلوقات ص ٢٦ ط الحلبى

والظبى ، والنعامة والذئب ، والصباح والليل وموج البحر ، لأنها من معالم الحياة التى تريد أن تدمر الموت والبقاء الذى يغالب **الفناء** .

ولقد استله الشاعر من عالم الدمع والرسم والحنظل وهوى به فى قلب الليل المظلم ووادى الموت المقفر ، يزعج فى طريقه الطير فى الركود ويقيد الأوابد فى الفلوات ليلقى بالثريا بعد ذلك فى أحضانه كأنه يخشى عليها السقوط

كأن الثريا علقت فى مصامها
بأمراس كتان إلى صم جندل

ومما فسّره به الشراح بناء على من يرويه مؤخرا عن صفة الفرس أنه شبه تحجيل الفرس فى بياضه بنجوم علقت فى مقام الفرس وهو مصامه علقت بحبال **كتان** إلى صم جندل ، يعنى الحجارة التى شبهت بها حوافره[1] .

ولكنه بهذا **يهتك** سر مأساته لأنها مأساة الفرس الذى تختلج الهاوية فى وثبته ، ويدوى جلمود الصخر المنحدر فى عدوه ، ويلوح الفر فى كره والإدبار فى إقباله .

مكرٍّ مفرٍّ مقبل مدبر معاً
كجلمود صخر حطه السيلُ من علِ

يستدر المطر ويتطاول إليه بكلتا يديه :

---

(١) انظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى ص ٧٩ ط المعارف .

أصاح ترى برقا أريك وميضه
كلمع اليدين فى حبى مكلل
يضىء سناه أو مصابيح راهب
أمال السليط بالذبال المفتّل

والسليط الزيت والذبال الفتائل .

ثم يحوله إلى سيل مدمّر :

فأضحى يسحُّ الماءَ حول كُتَيفْةٍ
يكبّ على الأذقان دوح **الكنهبل**
ومرّ على القنان من نفيانه
فأنزل منه العصم من كل منزل
وتيماء لم يترك بها جذعَ نخلة
ولا أجما إلا مشيداً بجَنْدل

القنان موضوع والنفيان ما تطاير عن الرشاء عند الاستسقاء ، والعصم تيوس الجبال ، والأجم مثل الأطم .

وهذه هى رحلة الموت الذى يحط متاعه بعد أن يعبث بالحياة .

كأن ذرى رأس المجيمر غدوةً
من السيل والغثّاء فُلْكة مغزل
وألقى بصحراء الغبيط بعاعَه
نزول اليمانى ذى العياب المحّمل

تغرد له المكاكى كأنها سكـارى من الخمر وتصمت السباع الغريقة صمت من ضمه القبر .

كـأن مـكـاكـىّ الجـواء غُـديَّـةَ
صُـبِحـن سُـلافـاً من رحـيق مـفـلفـل
كـأن السـبـاع فيـه غـرقـى عشـيـة
بـأرجـائـه القصـوى أنـابيش عنصـل

الأنـابيش الغثاء ومـاتجمع والعنصـل بصل بـرى شديد الحموضة .

وإنما صح ذلك لأن السيل ليس بغريب على الفرس والفرس ليس بغريب على الفارس فمصيـرهما ومصيـره واحد .

والتصاق الفرس بصاحبه أمر سائغ فى الخيال سواء عند العرب أو عند سواهم ، والفارس إنما يقال له ذلك فى العربية على أرادة النسب لأنه لاينفصل عنه ، والصورة الثالثة من صور الفرس الفلكية كوكبة قنطورس مقدمه مقدم إنسان من رأسه إلى آخر ظهره ومؤخره مؤخر فرس من منشأ ظهره إلى ذنبه على جنوب كوكبة الميزان ، ووجهه إلى المشـرق ومؤخـر الفرس إلى نـاحية المغـرب وبيده شمراخان [1] وقد قبض بيده اليمني على يد السبـع ،

---

(١) الشمراخ العثكال الذى عليه البسر

وقنطورس عند اليونان مخلوق خرافى كان يأوى إلى أكم تساليا وأجمعها وكان له على مازعموا شطرا إنسان قائم على شطر حصان .

ومن هذا الباب قول المتنبى وقد ثبّت فيه فرسان بنى عمران على ظهور الخيل ثبات جلودها عليها، تعرفهم ويعرفونها لأنها من نتاجهم تناسلت عندهم وجدودهم كانوا يركبون أمهاتها .

الثابتين فُروسَةً كجلودها
في ظهرها والطعنُ في لبّاتها

العارفين بها كما عرفَتْهُمُ
والراكبين جدودُهم أمَّاتها

ولايلزم من ذلك أن يكون المتنبى قد أخذ هذا المعنى من أسطورة قنطورس اليونانية كما يوحي بذلك صنيع البستانى[1] وإن كان له فضل التنبيه عليه ، ومع ذلك فإن أكثر الأساطير التى من هذا الباب إنما تؤول إلى التراث القديم فى الشرق الأدنى .

وقد ورد نظير هذا المعنى فى صفة عمر رضى الله عنه وركوبه فقد كان يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليسرى ثم

---

(١) البيتان من قصيدة للمتنبى يمدح بها أبا أيوب احمد بن عمران وقد ساقهما البستانى فى تعريب الالياذة هامش ص ٢٢٥ بعد ان ذكر ماتقدم فى قنطورس

يجمع جراميزه [1] ويثب فكأنما خلق على الفرس خلْقا ، وكتب رضى الله : ائتزروا وارتدوا وانتعلوا وألقوا الخفاف وارموا الأغراض وألقوا الركب وانزوا نزواً على الخيل وعليكم بالمعدية أوقال العربية ، ودعوا التنعّم وزى العجم ولاتلبسوا الحرير فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه إلا هكذا ورفع أصبعيه ، وقال أيضا : لن تخور قوى ماكان صاحبها ينزع وينزو ، يعنى ينزع فى القوس وينزو على الخيل من غير استعانة بالركب [2] .

وتاريخ الفرس فى الروايات العربية هو تاريخ التوحش الذى تحول بدعوة إسماعيل عليه السلام إلى ترويض . فقد نقل الزبير بن بكار فى أول كتابه أنساب قريش من حديث داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانت الخيل وحوشاً لاتركب ، فأول من ركبها إسماعيل فلذلك سميت العِراب ، وروى أحمد بن سليمان النجاد من حديث ابن جريج عن ابن عباس قال : كانت الخيل وحشاً كسائر الوحوش ، فلما أذن الله عز وجل لابراهيم وإسماعيل عليهما السلام برفع القواعد

---

(١) قيل هى اليدان والرجلان وقيل هى جملة البدن

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/١٣٢ ، ١٣٣

من البيت قال الله عز وجل إنى معطيكما كنزا ذخـرته لكما ، ثم أوحى الله إلى اسماعيل أن اخرج فادع بذلك الكنــز ، فخرج إسمــاعيل إلى أجيــاد وكان مـوطنــا له ومايدرى ما الدعاء ولاالكنز فألهمه الله عز وجل الدعاء فلم تبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا أجابته فأمكنته من نواصيها وذللها له[1] .

وقيــاس هذه الروايــة وأمثالهــا بمقــاييس الصــدق والكذب ومطابقة الواقع وعدمه ثرثرة عقلية لاغناء فيـها ، لأن هذه الروايات إما أن تكون لـها ثمرة أو لاتكون ، فإن ان كان الثانى فقد بطلت وبطلت الدواعى إليها ، وإن كان الأول فقد صحت وصحت آثارها ، وبرهانها إنما هو فى ذاتها بالحل الخصب الذى تضمنته للحياة المهجورة فى ساحة التوحش ، ومناط الصدق فيها أنها تملأ قصد أصحابها ويورق فيها وعيهم بعد الذبول والجفاف ، كأن وجود الفرس على صورته الطيعة كان مظهراً من مظاهر الارادة الالهية لتحقيق الحياة الانسانية على الارض ولم تكن لتتم إلا بهذا المارد الذى يدور مع الفلك ويتدفق مع السيل ويهدر مع البحر ، والعروبة والخيل ورفع القواعد من البيت معالم يعرف بعضـهـا ببعض فى رحلة المصير

---

(١) نهاية الأرب للنويرى ٩/٣٤٥

التى يحدوها إسماعيل بالدعاء والنداء .

وأجياد الذى تنتهى إليه الرحلة ، وهو موضع معروف يلى الصفا ، يعج فى شتى الروايات بالخيل التى تصهل فى ظلال الكعبة ، فقد قيل إنه سمى بذلك بالخيل التى ارتبطها به **إسماعيل** ؛ وقيل فى تسميته أيضاً إن تبعا لما قدم مكة ربط خيله فيه وبذلك سمى ، وقال ابن إسحاق لما وقعت الحرب بين الحارث بن مضاض الجرهمى وبين السميدع بن حوثر «بالثاء المثلثة» خرج ابن مضاض من قعيقعان وخرج السميدع ومعه الخيل من أجياد فيقال إنه ماسمى أجياد أجيادا إلا بخروج الخيل الجياد منه مع السميدع ؛ وقال السهيلى : وأما أجياد فلم يسم بأجياد الخيل كما ذكر ابن إسحاق إذ لايقال فيها أجياد وإنما أجياد جمع جيد ، وذكر أصحاب الأخبار أن مضاضا ضرب فى ذلك الموضع أجياد مائة رجل من العمالقة فسمى ذلك الموضع بأجياد .

قال : ياقوت يصحح ذلك : وقد قدمنا أن الجوهرى حكى أن العرب تجمع الجواد من الخيل على أجياد ولاشك أن ذلك لم يبلغ السهيلى فأنكره ، ومما يؤيد أن هذا الموضع مسمى بالخيل أنه يقال فيه أجواد وجياد ، ثم اتفاق الرواة أنها سميت بجياد الخيل لاتدفعه الرواية

المحمولة من جهة السهيلى[١] .

وقد ظل أجياد يحمل فى شعر الشعراء ماكان يخفق للخيل العتاق من لواء ، فقال بشر بن أبى خازم من كلمة له تنهل فيها على الخيل دموع الرثاء :

حلفت بربّ الداميات نحورها
وماضمّ أجيادُ المصلىَّ ومذهب
لئن شبّت الحرب العوان التى أرى
وقد طال إبعادٌ بها وترهّب
لتحتملَنْ بالليل منكم ظعينة
إلى غير موثوق من العز تهرب

حيث دفع بالدم ، الذى أساله من النحور فى القسم . الترهب الذى يفضى بها إلى هوة العدم ، لأنه نفى لحقيقتها ، وإذا انتفت حقيقتها تلاشى وجودها وتلاشى معه مايرجى معها من الذب عن الحرمات وعندئذ يفر العز إلى مهرب الذل ويسقط اليقين الموثوق فى ظلمات الشك اللاموثوق .

ومن أجل ذلك بقيت فى الفرس أظفار التوحش والقتل حتى لايدمرها الجانب الانسى فيها ، فبقى فى الفرس نشوز الفرس بسكون الراء وهو القتل ، والأصل فيه دق

---

(١) ياقوت معجم البلدان مادة أجياد

العنق ثم كثر حتى جعل كل قتل فرسا ، يقال ثور فريس وبقرة فريس ، وفى حديث يأجوج ومأجوج إن الله يرسل النغف عليهم (وهو الدود الذى يكون فى أنوف الابل والغنم) فيصبحون فرسى ، أى قتلى ، الواحد فريس من فرس الذئب الشاة إذا قتلها ، ومن ثم يقال للفرس الهامة ولايقال إلا لها وللبعير ، ولايقع هذا الاسم إلا على المخوف من الأجناس ومنه الهوام وهى الحيات وكل ذى سم يقتل سمه .

وقد ساقت العربية ذلك على أنه بسبيل مايقع فى ساعات الخطر المفضى إلى الهلاك فتأدت إليه من جهة مايسلط عليها ثم يتراءى فى شبحها ، وإذا كان الخطر معرضاً للهلاك فالمعرض لايخلو قط من المعروض ، والسلب الذى فى الفرسية من شأنه أن يتحول إلى إيجاب ، ويتضح ذلك من قول الشاعر وهو من فرائد المعانى .

قد أرسلونى فى الكواعب راعياً
فقد وأبى راعى الكواعب افْرِس
أتته ذئابٌ لايبالين راعياً
وكن ذئاباً تشتهى أن تفرّسا

قال صاحب اللسان أى كانت هذه النساء مشتهيات

للتفريس فجعلهن كالسوام إلا أنهم خالفن السوام لأن السوام لاتشتهى أن تفرَّس إذ فى ذلك حتفها ، والنساء يشتهين ذلك لما فيه من لذتهنّ ، إذ فرس النساء ههنا إنما هو مواصلتهن ، وأفرس من قوله (فقد وأبى راعى الكواعب أفرس) موضوع موضع فرست كأنه قال فقد فرست ، قال سيبويه قد يضعون أفعل موضع فعلت ولايضعون فعلت فى موضع أفعل إلا فى مجازاة نحو إن فعلت فعلت . وقوله وأبى خفض بواو القسم وقوله راعى الكواعب يكون حالا من التاء المقدرة كأنه قال فرست راعيا للكواعب أى وأنا إذ ذاك كذلك ، وقد يجوز أن يكون قوله وأبى مضافا إلى راعى الكواعب وهو يريد براعى الكواعب ذاته .

(أتته ذئاب لايبالين راعيا) أى رجال سوء فجار لايبالون من رعى هؤلاء النساء فنالوا منهن إرادتهم وهواهم ونلن منهم مثل ذلك ، وإنما كنى بالذئاب عن الرجال لأن الزناة خبثاء كما أن الذئاب خبيثة ، وقال تشتهى على المبالغة ولولم يرد المبالغة لقال تريد أن تفرَّس مكان تشتهى ، على أن الشهوة أبلغ من الارادة ، والعقلاء مجمعون على أن الشهوة غير محمودة البتة ، فأما المراد فمنه محمود ومنه غير محمود .

ونقول إنه لا مبالغة فى تشتهى بل هو من صميم المعنى

الذى تحولت معه النساء من سوام إلى ذئاب ، فذئبيتهن إنما نشأت من ذئبية الرجال التى طرأت على السائمية فجنحت بها إلى المغالبة التى ماكان لها أن تتأتى إلا بهذا الفعل دون سواه ، وكما استدعت السوائم الرجال استدعت الذئابُ الرجال الذئابَ النساء .

فالفرس إنما لاحت عليها مخايل الموت لأن الفرسية إمكان يتحقق فى اللحظات التى يستوجبها ما يطرأ فى الصيرورة من ملابسات وبذلك تكون الفرس مجلبة للموت كما هى آلة للحياة . والفرس مما كان يتطير به أهل الجاهلية على ماورد فى الأثر ، فقد روى أن رجلين دخلا على عائشة رضى الله عنها فقالا إن أبا هريرة يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار فطارت شفقا ثم قالت كذب والذى أنزل الفرقان على أبى القاسم من حدث بهذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كان أهل الجاهلية يقولون إن الطيرة فى الدابة والدار والمرأة) ثم قرأت (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها[(١)]) .

وإنما صح قولها لأن التطير عقيدة من عقائد الجاهلية

---

(١) عيون الاخبار لابن قتيبة ١/١٤٧

التى أبطلها الاسلام وأبطل معها مايلزم عنها من اعتقاد الشر فى الخيل وأقام مقامها التيمن بها على ماتشهد به الآثار الواردة فى فضلها وبركتها فقد سماهـا الله تعالى الخير فى قوله عز وجل إخباراً عن سليمان عليه السلام (إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقـال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) وأقسم بها فى كتابه العزيـز فقال (والعـاديات ضبحـاً فالموريات قدحا فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا إن الانسان لربه لكنود) ، وفى الحديث الصحيح عن مالك بن أنس عن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (الخيل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة) رواه البخارى ، وفى لفظ آخر (معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة) ، ومن طريق آخر عن الشعبى عن عروة قيـل : يارسـول الله وماذلك الخير ؟ قال (الأجر والغنيمة) رواه مسلم .

وعن عروة رضى الله عنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى فرساً أشقر فى سوق المدينة مع أعرابى فلوى ناصيتها بإصبعيه وقال الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يلوى ناصية فرسه بإصبعه ويقول الخير معقودبنواصى الخيل إلى يوم

القيامة ، رواه مسلم والنسائى ، وفى لفظ النسائى يفتل ناصية فرس بين إصبعيه ، وفى حديث آخر موضع معقود معقوص وهو بمعناه أى ملوى بها ومضفور فيها والعقصة الضفيرة .

وفى حديث آخر عن نعيم بن زياد عن أبى كبشة رضى الله عنه قال قال رسول الله عليه وسلم (الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة) وفى لفظ آخر (فامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة) .

ومع هذا الاجمال تفصيل دلّت عليه الأحاديث ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الخيل لثلاثة : لرجلٍ أجر ولرجل سِتْر وعلى رجل وزر ، فأما الذى هى أجر فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مرج أو روضة ، فما أصابت فى طِيَلها [1] ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له فهى لذلك اجر ، ورجل ربطها تغنيا وتعففا ثم لم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى

---

(١) الطيل الحبل

لذلك ستر ، ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الاسلام فهى على ذلك وزر .

وعن زياد بن مسلم الغفارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول الخيل ثلاثة فمن ارتبطها فى سبيل الله وجهاد عدوه كان شبعُها وجوعها وريّها وعطشها وجريها وعرقها وأرواثها وأبوالها أجرا فى ميزانه يوم القيامة ، ومن ارتبطها للجمال فليس له إلا ذاك ، ومن ارتبطها فخرا ورياء كان مثل ماقص فى الأول وزراً فى ميزانه يوم القيامة .

وسئل سالم بن عبد الله وهو راوى هذا الجديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامعناه فقال قال النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان الفرس ضروباً فهو مشئوم ، وإذا كانت المرأة قد عرفت زوجا قبل زوجها فحنت إلى الزوج الأول فهى مشئومة ، وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لايسمع منها الأذان والاقامة فهى مشئومة ، وإذا كن بغير هذا الوصف فهن مباركات .

وذكر الحافظ الدمياطى فى الحديث الذى رواه أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (البركة فى نواصى الخير) أنه إذا كان الخير والبركة فى نواصيها فبعيد أن يكون فيها شؤم على ماجاء فى الحديث ، وقد تأول العلماء ذلك أن معناه على اعتقاد الناس فى ذلك لا

أنــه خبر من النبى صـلى الله عليـه وسلم عن إثبـات الشؤم[1] .

ومـع ذلك فغايـة مايقـال فى الشؤم أنـه نفور نفسى لصفات معينة فى الفرس وقد وردت الآثار بكراهيته صلي الله عليه وسلم لأنواع معينة من الخيل ، فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال كان النبى صلى الله عليـه وسلم يكره الشكال من الخيل .

وقد اختلف فى معنى الشكال فقال أبو دريد الشكال أن يكون الحِجْل (وهو بياض التحجيل) فى يد رجل من شق واحد ، فإذا كان مخالفا قيل شكال مخالف .

وماقيل من أن الشكال بياض الرجـل اليمنى واليد اليمنى ، أو بياض اليد اليسرى والرجل اليسرى ، أو بياض الرجلين ويد واحـدة فليس بشىء ، والصحيح ماذكره الحافظ الدمياطى من أنه البياض الذى يكون بيد ورجل من خلاف قلّ أو كثر على ماذكره أبو عبيدة وهو الذى ورد فى صحيح مسلم وسنن أبى داود .

قال وكرهته تحتمل وجهين إما لشبهه المشكول المقيد الذى لانهوض فيه ، وإما لجواز أن يكون هذا النوع قد جرب فلم توجد فيه نجابة ، وقيل إذا كان مع ذلك أغر زالت الكراهة لزوال شبهه الشكال .

---

(١) نهاية الأرب للنويرى ٩/٣٤٦ ، ٣٥٢

ومن باب الشكال الرجَل وهو البياض باحدى رجليه ويقال له أرجل ويكره أن يكون به وضح غيـره ، وقيل لايكره إلا إذا كان البياض فى رجله اليسرى خاصة .

ويقابل ماتقدم فى الشكال قوله صلى الله عليه وسلم فى الشُّقْر : يمن الخيل فى شقرها ، واليمن البركة ، ولفـظ التـرمـذى يُمْن الخيـل فى الشقـر ، وعن عبــد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قــال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخيل الشقر وإلا فأدهم أغر محجّل ثلاث ، مطلق اليمني ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق تبوك وقد قل الماء ، فبعث الخيل فى كل وجه يطلبون المــاء ، فكان أول من طلع بالماء صاحب فرس أشقر ، والثانى صاحب فرس أشقر ، وكذلك الثالث ، فقال صلى الله عليه وسلم . اللهم بارك فى الشقر .

وورد مثل ذلك فى شيات أخرى منها قـوله صلى الله عليه وسلم : خير الخيـل الأدهم الأقرح الأرثم[١] ، ثم الأقرح المحجل طلق اليمين ، فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الشية ، هكذا ساقه الترمذى ، ورواه ابن ماجة

---

(١) الأقرح ما كان فى جبهته قرحة بضم القاف وهى بياض قليل فى جه الفرس دون الغرة ، وقيل الأقرح هو ما كانت غرته مثل الدرهم أو أقل بين عينيه أو فوقهما من الهامة ، والأرثم هو الذى أنفه أبيض وشفته عليا .

ولفظه : خير الخيل الأدهم الأقرح الأرثم المحجل طلق اليد اليمنى ، فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الشية ، وروى أبو عبيدة من حديث ابن شُبْرُمة قال حدثنى الشعبى فى حديث رفعه أنه قال : التمسوا الحوائج على الفرس الكميت الأدهم المحجّل الثلاث ، المطلق اليد اليمنى ، وعن موسى بن على بن رباح عن أبيه رضى الله عنهما قال جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنى أريد أن أبتاع فرساً أو أفند فرساً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليك به كميتا أو أدهم أقرح أرثم محجل ثلاث ، طلق اليمنى .

قوله (أفند فرسا) أى أرتبطه وأتخذه حصنا ألجأ إليه وملاذا إذا دهمنى عدو ، مأخوذ من فند الجبل بكسر الفاء وسكون النون ، وهو الشمراخ العظيم منه ، أى ألجأ إله كما يلجأ إلى الفند من الجبل ، وهو أنفه الخارج منه ، وهذا مايرمى إليه معنى الحصان للذكر من الخيل كأنه من الحصن الذى يحرز صاحبه ، والحجر للأنثى معناه ايضاً من ذلك فالحجر المنع ، واستغنوا عن الهاء لأنه اسم لايشركها فيه المذكر ، والجمع أحجار وحجور ، وقيل أحجار الخيل مايتخذ منها للنسل لايفرد لها واحد ، وقيل هى المحرمة أن تركب وأن يحمل عليها إلا فحل كريم .

ولمشاهير الخيل أنساب وأسماء تخصها كأسماء الأناسى وأنسابها حفظته من الشياع كما حفظت أسماء البشر أصحابها ودلت عليهم ، وقد ذكر ابن الكلبى منها مائة وخمسين من فحول الخيل فى الجاهلية والاسلام ووزعها ابن سيده على قبائل بنى أسد وضبة هوزان وباهلة وبنى هاشم ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أفراس لكل منها لقبه الدال عليه وكان منها المرتجز سمى بذلك لحسن صهيله ، والسكب وكان كميتا أغر محجلا مطلق اليمنى ، وكانت لجعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فرس شقراء يقال لها سبْحة فاستشهد عليها يوم مؤته ، وسبحة من قولهم فرس سابح يسبح بيديه ، وكان لحمزة بن عبد المطلب فرس يقال لها الورْد ، وكان لأحد بنى ضبة فرس يقال لها ذات الرماح إذا ذُعرت تباشرت بنو ضبة بالغنم ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

إذا ذُعرت ذات الرماح جرت لنا

أيا منُ بالطير الكثير غنائمه

واختصاصها بالألقاب إنما كان لتفرد كل منها عندهم فلايفنى الواحد منها فى الكل كما يكون فى اسم الجنس الذى يشترك فيه لشياعه أفراد عدة ، ولا فى علم الجنس أيضاً كأسامة للأسد وثعالة للثعلب ، فهو وإن كان يختص كل شىء من ذلك الجنس يقع عليه ذلك الاسم

فانه يقع على كل مايخبر عنه من الأسد ومن الثعلب ، قال ابن يعيش : وإنما كان العلم ههنا للجنس ولم يكن كالأناسى وذلك لأن لكل واحد من الأناسى حالا مع غيره من معاملة أو مبايعة فاحتاج إلى اسم يخصه دون غيره ليخبر عنه بماله وعليه وكذلك مايتخذه الناس ويثبت عندهم ويألفونه من خيلهم وإبلهم .

ثم قال : وقد يجعلون لكل واحد منها لقباً يخصه دون غيره نحو أعوج ولاحق ، وذلك أنه قد يختص بزيادة حسن أو فضل عدد فاحتيج لذلك إلى التمييز بين أفراده بالألقاب الخاصة ليخبر عن كل واحد بما فيه من المعنى أو يؤمر له بزيادة نظر ، وأما هذه السباع التى لاتثبت

عندهم فلا تحتاج إلى الفصل بين أفرادها ، فإذا لحقها لقب كان ذلك لكل واحد من أشخاص ذلك الجنس أجمع(١) .

وأول فرس منها يقال له زاد الراكب طوحت به الروايات واستنزلته من خيل سليمان فقد جاء به قوم من الأزد من أهل عمان ، قيل إنهم قدموا على سليمان بعد تزوجه بلقيس ملكة سبإ ، فسألوه مما يحتاجون إليه من

---

(١) ابن يعيش : شرح المفصل ١/ ٣٥

أمر دينهم ودنياهم حتى قضوا من ذلك ما أرادوا وهمّوا بالانصراف فقالوا يانبى الله إن بلدنا شاسع وقد أنفضنا من الزاد ، مر لنا بزاد يبلغنا إلى بلادنا ، فدفع إليهم سليمان فرساً من خيله من خيل داود ، قال هذا زادكم ، فإذا نزلتم فاحملوا عليه رجلا وأعطوه مِطْردا (وهو رمح قصير يطعن به حمر الوحش) وأوروا ناركم فإنكم لن تجمعوا حطبكم وتوروا ناركم حتى يأتيكم بالصيد . فجعل القوم لاينزلون منزلا إلا حملوا على فرسهم رجلا بيده مطرد واحتطبوا وأوروا نارهم فلا يلبث أن يأتيهم بصيد من الظباء والحمر ، فيكون معهم منه مايكفيهم ويشبعهم ويفضل إلى المنزل الآخر ، فقال الأزديون : مالفرسنا هذا اسم إلا زاد الراكب .

فكان زاد الراكب تفسيراً للحياة العربية فى أوليتها إذ تؤول إلى الصيد والصيد عدته الفرس الذى يقهر الحيوان ويقهر المكان .

وقد دارت الخيل فى الروايات دوارنها فى الأنساب ، قال الكلبى : فلما سمعت بنو تغلب أتوا الأزد فاستطرقوهم فنتج لهم من زاد الراكب الهجيس فكان أجود من زاد الراكب ، فلما سمعت بكر بن وائل أتوهم فأستطرقوهم فنتج لهم من زاد الراكب ، فلما سمعت بكر بن وائل أتوهم فاستطرقوهم فنتجوا من الهجيس

الديناری فكان أجود من الهجيس ، وسمعت بنو عامر فأتـوا بكر بن وائـل فاستطرقوهم على سبَـل وكانت أجود ما أدرك وأمهـا سوادة وأبوها فياض وأم سوادة قسامة ، وكان فياض وقسامة لبنى جعدة ، يقال إن فياضاً من حوشية وبار بن أميم بن لود أو لاوذ بن سام ابن نوح وأنه لما هلكت وبار صارت خيلهم وحشية لاترام.

ومن هذه السلسلة التى بنيت على الاستـطراق كان أعوج الذى تنسب إليه عامة الجياد ، يضىء لقبه بظلام الآفة التى لحقته من شدة الحدب عليه ، والموت الذى أحدق بحياته قبل أن يولد ، فقد قالوا إن أمه نتجته وهى متبرزة من البيوت كأن ذلك لايليق وماينبغى أن تكون عليه من تعفف ، ثم نظر شيـخ لهم إلى جنب سبَل قـد حاذت جحفلته بحجبتهـا فقال أدركـوا الفرس لايبتسر فرسكم ، فخرجوا يسعون إذا هى نتجت ، ووافق ذلك اليوم نجعة ، فساروا من بعد يومهم أو ليلتهم وأصبح أعوج مع أمه لم تفته ، فلما كان فى الليلة الثالثة حملوه بين جُو القين وشدوه بحبل فارتكض فأصبح فى صلبـه بعض العوج فسمى لذلك أعوج .

وسمعت ذلك بنو ثعلبة بن يربوع فاستطرقـوا بنى هلال فنتجوا عنه ذا العقال وكان لبنى رياح بن يربوع .

ومن هذه الخيل التى يقال لها المجيدة لأنها تلد الجياد من الخيل تناسلت الخيول وانتشرت وشهر منها ماكان منسوب الآباء والأجداد مما لم يكن يجهله أحد من ذوى المعرفة ولايغمط حقه أو حق صاحبه فى العطاء ، وكان الحجاج بن يوسف من هؤلاء ، فقد ذكر أنه مر به وهو يعرض الناس يتصفح خيولهم ولباسهم رجل رث الكسوة أعجف الفرس ، فعذله ولامه ولم يجز له لذلك ، فمر به شهْر بن حوشَب عليه فروله غليظ يقود فرساً له فقال له الحجاج : كم عطاؤك ياشهر ؟ قال ألفان ، قال فإنا لانجيز لك فرسك ولاكسوتك ، قال له شهر : أما الكسوة أصلحك الله فإنى آثرت بالخزّ والعصب والوشى الشبابَ من ولدى وذوى قرابتى ونسائى ، وهذا الفرو يدفئنى وهو خفيف ولابأس به ، وأما الفرس فوالله إنها لمن خيل بنى تغلب ، ولقد ابتعتها برسَنها بثمانمائة درهم على عرقها ونسبها ، وإنها لمن بنات الديناري فرس بكر بن وائل بن الهجيس فرس بنى تغلب ابن زاد الراكب فرس الأزد الذى دفعه سليمان إليهم ، فضحْك الحجاج فقال هذا نسب نعرفه ، فدعا بكسوة فألقاها عليه [١] .

والفرق بين الرجلين هو الفرق بين من يحسن إلى نفسه بإحسانه إلى فرسه وبين من يسىء إليها بإساءته

---

(١) انظر كتاب انساب الخيل لابن الكلبى تحقيق احمد زكى باشا ص ١٢ ومايليها

إليه ، فكانت الرثاثة وإهمال الفرس من علامات سقوط الهمة كما كانت رفعة الفارس من رفعة الفرس وعتقه من عتقه .

وقد نعتوا الخيل من قبل عتقها وهجنها بما نعتوا به الانسان فقالوا فرس عتيق كما قالوا رجل عتيق وامرأة عتيقة للكريم من كليهمـا ، وانحصر عتقهما فى الكـريم لأنهما لايبلغان مع الموت والحداثة حد القدم الذى يكون للخمرة فى قولهم خمرة عتيق ، وهذا أعتق من هذا أى أقدم .

والطرف العتيق الكـريم من خيـل طُروف للذكـور خاصة ، وقولهم فرس طرفه للانثى إنما هو من قبل لحاق العلامة لا من قبل المعنى وإن كان قد روى عن الكسائى ذلك ، وجمع الطرف أطراف ، ويقال للرجل أيضاً طريف النسب والطرافة فيه بينة وذلك إذا كان كثير الآباء إلى الجد الأكبر .

ومثله الغِطريف والغُطارف وهـو الانسـان السيـد الشريف السخىّ الكثير الخير

والصـريح المحض الخـالص النسب ، وفرقـوا بين الرجل والفرس فى الجمع فجمعوا الرجال على الصرحاء والخيل على صرائح ، ومنه الصريح فحل من خيل العرب غلبت صفته غلبة الأسماء ، قال طفيل .

عنـاجيـج فيهـن الصـريـحُ ولاحـقٌ
مـغـاويـر فـيـهـا للاريـب مـعـقَّـبٌ

ويروى من آل الصريح وأعوج ، والعنـاجيج جمـع عنجوج وهو الراتع من الخيل أو الجواد .

ويقال للفرس الكريم العتيق الحت وهو نعت ينعت به كل جواد سريع كثير العدو أو سريع العرق ، كأن السرعة وكثرة العدو من علامات العتق .

والسُّرحوب من الخيل العتيق الخفيف ، وهو وإن كان نعتـا للابل أيضـاً على معنى السـريعة الطويلة فـأكثر ماينعت به الخيل ، وخص بعضهم به الأنثى ، والوجه فيه أنه سرح اليدين بالعدو ، وأن الفـرس السرحـوب طويلة على وجه الأرض .

ومثله الشرحب نعت الفرس الجواد والكريم وهو من نعوت الانسان لكنه يقال للطويل من الرجال ، وفى حديث خالد رضى الله عنه فعارضنا رجل شرحب ، وبيانه أنه الطويل القوائم العارى أعالى العظام .

وعربية الفرس وهى عتقه وسلامته من الهجنة ترامت إلى صور شتى كل منها تفضى إلى أخرى ، والأصل قولهم أعـرب أى صهل فعـرف عتقه بصهيله ، ثم الاعـراب معرفتك بالفرس العربى من الهجين إذا صهل ، والخيل

العراب المعربة وإبل عراب كذلك ، وفى حديث سطيح تقود خيلا عراباً أى عربية منسوبة إلى العرب ، وفرقوا بين الخيل والناس فقالوا فى الناس عرب وفى الخيل عراب ، وأعرب الرجل ملك خيلاً وعراباً أو إبلاً عرابا أو اكتسبها فهو مُعرب ، قاله الجعدى :

ويصهل فى مثل جوف الطوى
صهيلا تبيّن للمعرب

يقول إذا سمع صهيله من له خيل عراب عرف أنه عربى .

والتعريب أن يتخذ فرساً عربياً ، ورجل معرب معه فرس عربى ، وفرس معرب خلصت عربيته .

وأخيراً عرّب الفرس بزغه وذلك أن تنسف أسفل حافره ، ومعناه أنه قد بان بذلك ماكان خفيا من أمره لظهروه إلى مرآة العين بعدما كان مستوراً ، وبذلك تعرف حاله أصلب هو من رخو وأصحيح هو أم سقيم ، قال الأزهرى : وتعريب الفرس أن يكون على أشاعر حافره فى مواضع ثم يبزغ بمبزغ بزغا رفيقا لايؤثر فى عصبه ليشتد أشعره ، وعرّب الدابة بزغها على أشاعرها ثم كواها .

ومن هذا الباب السبر وهو ما استدللت به على عتق الدابة أوهجنتها ، والهجنة تكون من قبل الحِجر واللؤم

من قبل الفحل ، ويقال للفرس هجين .

والعلامات الجامعة لنجابة الفرس الدالة على جودته ماذكره يعقوب بن القرية وقد سأله الحجاج عن صفة الجواد من الخيل فقال : القصير الثلاث الطويل الثلاث الرحب الثلاث الصافى الثلاث ، فقال صفهن فقال : أما الثلاث الطوال فالأذن والعنق والذراع وأما الثلاث القصار فالظهر والساق والعسيب ، وأما الثلاث الرحبة فالجبهة والمنخر والجوف ، وأما الثلاث الصافية فالأديم والعينان والحافر .

وقاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه لعمرو بن معد يكرب : كيف معرفتك بعراب الخيل ؟ قال معرفة الانسان بنفسه وأهله وولده ، فأمر بأفراس فعرضت عليه فقال قدّموا إليها الماء فى التراس[1] ، فمن شرب ولم يكتف فهو من العراب وماثنى سنبكه فليس منها .

وكانوا يقولون إذا اشتد نفسه ورحُب متنفسه وطال عنقه واشتد حقوه وانهرت شدقُه وعظمت فخذاه وانشنجت[2] أنساؤه وعظمت فصوصه وصلُبت حوافره

---

(١) التراس جمع ترس وهو صفحة مستديرة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه ، وكتفت الخيل ارتتفعت فروع أكتافها

(٢) الشنج تقلص الجلد والأصابع وغيرها ، يقال فرس شنج المنسا متقبضه ، والنسا بالفتح عرق من الورك الى الكعب

ووقحت لحق بجياد الخيل .

وقد اجتمعت فيه عشرون اسماً من الطير أفزعها جرير فى قوله :

وأقبّ كالسِّرحان تمّ له ... مابين هامته إلى النّسر[١]

رحُبت نعامتهُ ووفِّر فرخُه ... وتمكّن الصُّردان فى النحر[٢]

وأناف بالعصفور فى سعَف ... هامٍ أشمَ موثق الجِذْر[٣]

وازدان بالديكين صلصلُه ... ونبت دجاجته عن الصدر[٤]

والناهضان أمِرَّ جلرهما ... فكأنما عثما على كسر[٥]

---

(١) الهامة أعلى الرأس ، والنسر ماارتفع من بطن الحافر من أعلاه

(٢) النعامة جلدة الرأس التى تغطى الدماغ ، والفرخ الدماغ والصردان عرقان فى أصل اللسان ، ويقال إنهما عرقان يكتنفان باطن اللسان ، وفى الظهر أيضا صرد يكون فى موضع السرج من أثر الدبر

(٣) العصفور أصل منبت شعر الناصية ، وعظم ناتىء فى كل جبين وهو أيضا من الغرر ، والسعف يقال فرس اسعف إذا سالت ناصيته وهام أى سائل، والشمم ارتفاع قصبة الأنف ، وموثق الجذر أى شديد .

(٤) الديكان واحدهما ديك وهو العظم الناتىء خلف الأذن ، والصلصل بياض فى طرف الناصية ، والدجاجة اللحم الذى على زوره بين يديه .

(٥) الناهضان واحدهما ناهض وهو لحم المنكبين أو هو الذى يلى العضدين من أعلاهما ، والناهض فرخ العقاب ، وقوله أمر جلزهما أى فتل وأحكم ، يقال أمررت الحبل أى فتلته ، والجاز الشد ، وقوله فكأنما عثما على كسر أى كأنهما كسرا ثم جبرا والعثم الجبر على عقدة وعوج .

مسحنفر الجنبين ملتئم
ما بين شيمته إلى الغرّ[١]

وصفت سماناه وحافره
وأديمه ومنابت الشعر[٢]

وسما الغراب لموقعيه معاً
فأبين بينهما على قدْر[٣]

واكتن دون قبيحة خطافهُ
ونأت سمامته على الصقر[٤]

وتقدمت عنه القطاة له
فنأت بموقعها من الحُرّ[٥]

---

(١) مسحنفر الجنبين أى منتفخها ملتئم أى معتدل ، والشيمة من قولهم فرس أشيم بين الشامة ، والغر فى الطير الأغلب الذى يسمى الرخمة وهى من الفرس عضلة الساق .

(٢) السمانى طائر وهو موضع من الفرس ربما اراد به السمامة وهى دائرة تكون فى سالفه الفرس ، والسمامة ايضا من الطير ، وأديمه جلده .

(٣) الغراب رأس الورك ، ويقال للصلوين الغرابان وهما يكتنفان عجم الذنب ، أو هما ملتقى أعلى الوركين ، والموقعين ما فى أعلى الخاصرتين ، وقوله « فابين بينهما على قدر » أى فرق بينهما على استواء واعتدال

(٤) اكتن استتر ، والقبيح ملتقى الساقين ، ويقال إنه مركب الذراعين فى العضدين ، والخطاف هو حيث ادركت عقب الفارس إذا حرك رجليه ، ويقال لهذين الموضعين من الفرس المركلان ، والسمامة دائرة تكون فى عنق الفرس وقد تقدم ، والصقر دائرة فى الرأس .

(٥) القطاة مقعد الردف ، والحر سواد فى ظاهر اذنى الفرس وهما من الطير .

وسما على حقويه دون حداته
خرّبان بينهما مدى الشبر[1]
يدع الرضيمَ إذا جرى فِلقاً
بتوائم كمواسمٍ سمْر[2]
ركّبن فى محض الشوى سبطٍ
كفْت الوثوب مشدد الأسر[3]

وكان هذا الشعر مما احتفل به هارون الرشيد احتفاله بسبق فرسه يوم ركب فى سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة ، قال الأصمعى : فدخلت الميدان لشهدها ، فجاء فرس أدهم لهارون الرشيد سابقاً يقال له الربد ، فسر به الرشيد وابتهج وقال : على بالأصمعى ، فنوديت من كل جانب ، فأقبلت سريعا حتى مثلت بين يديه ؛ فقال يا أصمعى خذ بناصية الربد ثم صفه من قونسه إلى سنبكة ، فإنه يقال إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير ، فقلت نعم يا أمير

---

(١) النقوان واحدهما نقو والجمع انقاء وهو عظم ذومخ ، وعنى عظام الوركين لأن الخرب هو الذى تراه مثل المدهن فى ورك الفرس ، وهو من الطير ذكر الحبارى ، والحدأة سالفة الفرس وهى من الطير .

(٢) الرضيم الحجارة ، يفلقها بتوائم أى بحوافره ، والمواسم جمع ميسم الحديد أى أنها كمواسم الحديد فى صلابتها

(٣) الشوى القوائم ، يقال فرس محض الشوى إذا كانت قوائمه معصوبة ، سبط سهل ، كفت الوثوب أى مجتمع

المؤمنين ، وأنشدك شعراً جامعاً لها من قول أبى حرزة (وهى كنية جرير) قال فأنشدْنـا لله أبوك ، فـأنشدتـه الشعر [1]

والطير رمز ترامى إليه الفرس منذ عهد داود عليه السـلام كما يـؤخذ من الروايـات القديمـة التى ساق بعضها ابن الكلبى قال : وكان داود نبىْ الله يحب الخيل حباً شديدا ، فلم يكن يسمع بفرس يذكر بعرق أو عتق أو حسن أو جرى إلا بعث إليه حتى جمع ألف فرس لم يكن فى الأرض يـومئذ غيـرها ، فلمـا قبض الله داود ورث سليمـان ملكه وميـراثه وجلس فى مقعـد أبيـه ، فقـال ماورثنى داود مالا أحب إلى من هذه الخيل ، وضمرها وصنعها [2] .

وقال بعض أهل العلم أن الله أخرج له مائة فرس من البحر لها أجنحـة وكان يقـال لتلك الخيل الخـير فكان يراهن بينها ويجريها ، ولم يكن شىء أحب إليه منها .

ومما قيل فى خبر الحرون وهو فرس مسلم بن عمرو الباهلى أبى قتيبة بن مسلم ولم يكن فى الأرض جواد من لدن يزيد بن معاوية ينسب إلا إليـه ، أن مسلما رأى

---

(١) نهاية الأرب للنويرى ١٠/ ٢٥ وما يليها

(٢) نهاية الأرب للنويرى ١٠ : ٢٥ وما يليها

فيما يرى النائم أنه يخرج منه طائر ، فأرسل إلى محمد بن سيرين فاستعبره فقال إن صدقت رؤياك لتنتجن خيلا جيادا لايتعلق بها ، فنتج البطين والبطان بن البطين لم ير مثلهما قط والقتادى ، وكانت ترسل الخيل فيجىء السابق لمسلم بن عمرو والمصلى الثانى له ، ثم توالى له عشرون فرساً ليس لأحد فيها شىء ، فقال بعض الشعراء لما رأى غلبة مسلم بن عمرو على السبق :

إذا ما قريش خوى مُلكها
فإن الخلافة فى باهلة

لرب الحرون أبى صالح
وما تلك بالسنّة العادله

وإنما قال ذلك لأن الفرس كان عندهم بمنزلة شارة الملك .

ومن العجيب أن يكون لاسم كل فرس من هذه الأفراس تاريخه الدرامى الذى يبدأ بالآفة وينتهى بالتفوق وقد قدمنا ماقيل فى معنى الأعوج ، والحرون وهو من أحفاده زعموا أنه كان يسبق الخيل ثم يحرن ثم تلحقه فإذا لحقته سبقها ؛ وكان مسلم تزايد هو والمهلب بن أبى صفرة على الحرون حتى بلغا به ألف دينار . وكان مسلم أبصر الناس بفرس وصنعة له ، وكان يلقب السائس من بصره بالخيل وصنعته لها ، فلما بلغ ألف

دينار وكان الفرس قد أصابه مغلة فى بطنه (وهى أن تأكل الدابة التراب مع البقل فيأخذها وجع فى بطنها) فلصق صقلاه وهما خاصراته وكان صاحبه يبرأ من حرانه فضّن عنه المهلب وقال فرس حرون مُخطف بألف دينار ، قيل إنه ابن أعوج قال : لو كان أعوج نفسه على هذه الحالة ماساوى هذا الثمن ، فاشتراه مسلم ثم أمر به فعُطِّش عطشاً شديداً وأمر بالماء العذب فبرد ، حتى إذا جهده العطش قرب إليه الماء البارد العذب فشرب الفرس حتى حبّب وامتلأ ثم أمر رجلا فركبه ثم ركضه حتى ملأه ربوا فرجعت خاصرتاه ، ثم أمر به فصنع فسبق الناس دهراً لايتعلق به فرس [١] .

ومن ولده فرس كان يقال له ذو الموتة كأنه يموت ويحيا ، والموتة جنس من الجنون والصرع يعترى الانسان فإذا أفاق عاد إليه عقله كالنائم والسكران ، فقد كان هذا الفرس إذا جاء سابقاً أخذته رعدة ، فيرمى بنفسه طويلا ثم يقوم فينتفض ويحمحم ، وكان سابق الناس .

ولايبلغ فرس من معنى هذا التاريخ الدرامى مابلغه داحس ، فهو البطل الحقيقي للحرب التى هاجت بين

---

(١) أنساب الخيل ١١٧

عبس وذيبان أربعين عاماً ، وكان له من اسمه نصيب من الشر بشر به قبل أن يولد ، فدحس بين القوم دحساً أفسد بينهم ، وفى اللسان قال الأزهرى وأنشد أبو بكر الايادى لأبى الحضرمى انشده للنبى صلى الله عليه وسلم :

وإن دحسوا بالشر فاعف تكرّما
وإن خنسوا عنك الحديث فلاتسل

قال ابن الأثير يروى بالحاء والخاء يريدون إن فعلوا الشر من حيث لاتعلمه .

والدحس التدسيس للأمور تستبطنها وتطلبها أخفى ماتقدر عليه ولذلك سميت دودة تحت الأرض دحاسة .

وقد سمى داحساً لأن بنى يربوع احتملوا ذات يوم سائرين فى نجعة وكان ذو العقّال وهو أبوه مع ابنتى حوط بن أبى جابر بن أوس تحنبانه ، فمرتابه على جلوى وهى أمه فرس قرواش ، فلما رآها الفرس ودى [1] وصهل ، فضحك شبان من الحى لما رأوه ، فاستحيت الفتاتان فأرسلتاه فنزا على جلوى فوافق قبولها فأقصّت[2] ، ثم أخذه لهما بعض الحى ، فلحق بهما حوط وكان رجلا شريرا سىء الخلق .

---

(١) ودى أدلى
(٢) أقصت حملت

فلما نظر إلى عين الفرس قال : والله لقد نـزا فرسى فأخبرانى ماشأنه ، فأخبرتاه الخبر ، فقال يا آل رياح لا والله لا أرضى أبداً حتى أخرج ماء فرسى ، فقال له بنو ثعلبة : والله ما استكر هنا فرسك إنما كان منفلتا ، فلم يزل الشر بينهما حتى عظم ، فلما رأى ذلك بنـو ثعلبة قالوا : دونكم ماء فرسكم ، فسطا عليها وأدخل يده فى ماء وتراب ثم أدخلها فى رحمها حتى ظن أنه قد اخرج الماء واشتملت الرحم على ماكان فيها ، فنتجها قرواش مهراً فسماه داحساً لذلك وخرج كأنه أبوه ذو العقّال .

فلما تحرك المهر سام مع أمه وهو فلْو يتبعها وبنـو **ثعلبـة سـائـرون فـرآه حـوط فـأخـذه ، فقـال بنـو** ثعلبة : يابنى رياح ألم تفعلوا فيه أول مرة مافعلتم ثم هذا الآن ؟ فقالوا هو فرسنا ولن نترككم أو نقاتلكم عنه أو تدفعوه إلينا ، فلما رأى ذلك بنو ثعلبة قالوا إذن لانقاتلكم عنه أنتم اعز علينا منه ، هو فداؤكم : ودفعوه إليهم . فلما رأى ذلك بنو رياح قالوا والله لقد ظلمنا إخوتنا مرتين ولقد حلموا وكرموا فأرسلوا به إليهم مع لقوحين ، فمكث عند قرواش ماشاء الله أن يمكث وخـرج أجود خيـول العرب(١)

---

(١) الأغانى ١٨/ ٦٤٧٩

ثم ركض ركضة الموت لما تراهن قيس بن زهير بن جذيمة العبسى وحذيفة بن بدر الذبيانى ثم على خطر عشرين بعيراً وجعلوا الغاية مائة غلوة (١) والمضمار أربعين ليلة والمجرى من ذات الاصاد ، فاجرى قيس داحساً والغبراء وأجرى حذيفة الخطار والحنفاء ، فوضعت بنو فزارة رهط حذيفة كمينا على الطريق فردوا الغبراء ولطموها وكانت سابقة فهاجت الحرب بين عبس وذيبان .

ومثل داحس خُمَيرة فرس شيطان بن مُدلج الجشمى أحد بنى تغلب وقد ضرب العرب المثل بشؤمها وقالوا أشأم من خُمَيرة ولها يقول :

أتتنى بما تزبى خميرةَ موهناً
كمسرى الدُّهيم أو خميرة أشأمُ (٢)
وبينا أرجى أن تؤوب بمغنم
أتتنى بألفى فارس متلثم

---

(١) الخطر السبق يتراهن عليه والغلوة أمد جرى الفرس وشوطه

(٢) تزبى أى تحمل ؛ والدهيم اسم ناقة عمرو بن المريان بن مجالد الذهلى ، قتل هو واخوه وكانوا خرجوا فى طلب إبل لهم ، فلقيهم كثيف بن زهير فضرب أعناقهم وحملت رؤوسهم فى جوالق وعلقت عليها فى عنقها ثم خليت الابل فراحت على الريان ، فقال لما رأى الجوالق : أظن بنى صادوا بيض نعام ، ثم أهوى بيده فأدخلها فى الجوالق فاذا رأس ، فلما رآه قال : آخر البز على القلوص ، فذهبت مثلا فقيل اثقل من حمل الدهيم وأشأم من الدهيم .

وذلك أن خميرة كانت وديقا ، ومر جيش لبنى أسد فاستروحت ريح الحصُن فأقبلت نحوها فطردها الجيش فأقبلت إلى أهلها فأوقعوا بها .

وتصدقوا على الأعزاب بفرس سموها هراوة الأعزاب من خيل هوازن وكانوا يعطونها العزب منهم فيغزو عليها حتى إذا تأهل نزعوها وأعطوها عزبا آخر وكانت لاتدرك فضربت مثلا وفيها يقول عمرو المحاربىّ من عبد القيس :

سقى جدَث الريان كلَّ عشيةٍ
من المزن وكّاف العشى دلوحُ
أقام لفتيان العشيرة سهوة
لهم مَنكَح من جريها وصَبوح
فيامن رأى مثل الهراوة منكحاً
إذا بل أعطاف الجياد جروح
وذى إبل لولا الهراوة لم يُثب
له المال ما انشق الصباح يلوح

والهراوة تذكر بالعصا فرس جذيمة الأبرش التى جاءت فيها الأمثال وهى بنت العصية فرس لإياد لاتجارى ، فقيل إن العصا من العصية فذهب مثلا وعليها نجا قصير ، ولها يقول عدى بن زيد :

فخبرت العصا الأنباء عنه
ولم أر مثلَ فارسها هجينا [1]

وهل سموه العصا إلا لأنه مثلها يترامى إلى معان شتى ، فالعصا العود أنثى وفى التنزيل العزيز (هى عصاى أتوكأ عليها) ، وقد انقلبت العصاحية ، ويشتد إليها الانسان فيقال صلب العصا ومنه قول عمر بن لجأ :

صلب العصا جافٍ عن التغزل

وقالوا عصى فى السيف تشبيها بالعصا ، أنشد ابن برّى لعبد بن علقمة :

ولكننا نأتى الظلام ونعتصى
بكل رقيق الشفرتين مصمم

وألقى المسافر عصاه إذا بلغ موضعه وأقام لأنه إذا بلغ ذلك ألقى عصاه فخيّم أو أقام وترك السفر ، ومنه قول القائل :

---

(١) ابن الكلبى انساب الخيل ٩١، ٩٤

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر

والعصا ايضا قد تكون عصا البين .

وقال أبو عبيد فى قولهم إن العصا من العصية : وأنا أحسبه العصية من العصا الا أن يراد به أن الشىء الجليل إنما يكون فى بدئه صغيراً .

وتضرب أيضاً مثلا للاجتماع ويضرب انشقاقها مثلا للافتراق الذى لايكون بعده اجتماع وذلك لأنها لاتدعى عصا إذا انشقت ، قال :

فلَّله شعبا طِيةٍ صدعا العصا
هى اليوم شتى وهى أمس جميع

قوله فلله له معنيان أحدهما أنها لام تعجب ، تعجب مما كانا فيه من الأنس واجتماع الشمل ، والثانى أن ذلك مصيبة موجعة فقال لله ذلك يفعل مايشاء ولا حيلة فيه للعباد إلا التسليم كالاسترجاع .

هذا إلى معان أخرى ذكرها صاحب اللسان .

وفى اسمائها التى قدمنا بعضها مايشهد بذلك ، ولقد انطفوا فرس بُكيرْ بن عبد الله الشدّاخ الليثى التى يقال لها أطلال وكان وُجّه مع سعد بن أبى وقّاص وشهد القادسية إذ يزعم الناس أنها تكلمت لما هربت فارس يوم

القادسية ، وذلك أن المسلمين تبعوهم فانتهوا الى نهر قد قطع جسره فقال فارسها ثبى أطلال فقالت وثبت وسورة البقرة ، وإذا هى من وراء النهر[1] .

ثم ألم يكونوا يكلمون الأطلال التى نقلوها فى هذا المقام للعلمية ؟!

وللخيل لغة فسرها المتنبى حيث مد بين آذانها القنا وأوطأها الصخر من غير نعال لتنقش حوافرها فيه أثراً مثل صدور البزاة ، وأراها فى ظلمة الليل الشخص البعيد عنها كهيئته إذا كان قريبا منها ، وأسمعها الصوت الخفى تنصب له آذانها حتى يكون ماييناجى به الضمير عندها كالمناداة :

وجُرْداً مددنا بين أذانها القنا
فبتن خفافاً يتبعن العواليا
تماشى بأيد كلما وافت الصفا
نقشن به صدر البزاة حوافيا
وينظرن من سود صوادق فى الدجى
يرين بعيدات الشخوص كما هيا
وتنصب للجَرس الخفى سوامعاً
يخلْن مناجاة الضمير تناديا

---

(١) أنظر أنسان الخيل لابن الكلبى وهامش ص ١١٢ لمحققه وما أثبته فى خبر اطلال عن الأغرابى والغندجانى وصاحب اللسان .

تــجــاذب فــرســان الصــبــاح أعــنَّــةً
كــأن عــلى الأعــنــاق منــهــا أفــاعيــا

وكأنما جمعت العربية فى خلق الفـرس الكون كله ، فدماغه سليل والجلدة التى تغطى الدماغ نعامة وطرائق عظم الرأس فرائش ، وشعر أعلى الناصية ذؤابة ومقدم رأسه قونس مأخوذ من قـونس البيضة وهـو مقدمهـا وأعلاها ، وماتحت الناصية إلى العينين عصفـور ، وما حدّ من طرف أذنه ذباب ، والعرقان اللذان فى منخريـه سمان وهو طائر ، والعظام الناتئة فى الخـدود نواهق ، ومقطع الرأس مذبحة .

وموضـع العرف معرفـة ، ومركب العنق فى الكـاهل دسيع ، قال سلامة بن جندل :

يـرقــى الدســيــعُ إلى هــادٍ له بَــتــعٍ
فى جـؤجـؤ كمــداك الطيب مخضـوب[١]

وما جرى عليه اللبب لبان .

والعنق توصف بستة أشيـاء الطول والقصر والغلظ والرقة وأن تكون مجدولة الأعلى ومطمئنة ، فيقال عنق قوداء للطويلة ، وسطعـاء للطويلة المنتصبة الغليـظة ،

---

(١) والبتع بالتحريك شدة العنق وإشرافها والوصف منه ابتع ، والجؤجؤ الصدر والمداك يسحق عليه الطيب

وتلعـاء للمنتصبة إذا كـانت غليـظة الأصـل مجـدولة الأعلى ، ودنآء إذا كانت مطمئنـة من أصلها ، وهنعـاء مـطمئنة من وسـطها ، وقصـاء للقصيـرة ، ومـرهفـة للرقيقة .

وتسمى أجزاء الظهر بما يكتنفها من لحم ومايظهر فيها من عظم وفقار ، ثم بمكان جلوس الراكب وموضع السرج واللون ، فالمتنان لحمان يكتنفان الظهر من مركب العنق إلى علوة ظهر الذنب ، والحارك عظم مشرف من بين فرعى الكتفـين ، والفُردودة حـد الفقار ، والفقـار المنتظمة فى الصلب ، والصهوة مقعد الفارس ، والقطاة مقعد الردف خلفه ، والمعدّان موضع السرج من جنبيه ، وإذا زال السـرج عن هذا المـوضع كـان ذلك إيذانـاً بالسقوط والكوارث ، قال عمرو بن احمر الباهلى يخاطب امرأته :

فـإمـا زال سـرجـى عـن مـعـدً
وأجْـدِرْ بـالحـوادث أن تـكـونـا

والصرد بياض على الظهر ، والغرابان ملتقى أعالى الوركـين فى ناحيـة الصلب ، والصلوان ما أسهـل من جانبى الوركين ، والعجب ما ارتفع من أصـل الذنب ، والعُلوة أصلة ، والعـسيـب عـظم الذنب ، والأعـوج

العسيبِ أعزل .

والصدر تسمى جهاته بقربها من الأرض ومايشد عليه الحزام ، فالكلكل مامس الأرض من فهدتيه ، والفهدتان اللحمتان الناتئتان فى الصدر ، والمحزِم ماشد عليه الحزام ، والناحران عرقان يودج بينهما .

وفى الورك ثلاثة أسماء فحرفاه المشرفان على الفخذين الجاعرتان وقيل الجاعرتان ما اطمأن من الفخذ والورك فى موضع المفصل ، والغرابان حرفاها اللذان فوق الذنب حيث التقى رأس الورك اليمني واليسرى ، والحجبتان حرفاهما اللذان يشرفان على الخاصرتين .

وحاذ الفرس ما حاذاك من لحم فخذيه إذا استدبرته ، والملك قوائمه ، وهاديه ماقدام الفارس من الفرس والأرض ، والساق مابين العرقوب إلى الفخذ ، والذرع مابين الركبة الى المرفق .

وصفات الحافر مأخوذة من اثر الحجارة والأرض فيه ؛ فحافر أحك بين الحكك وهو أن تأكله الأرض ، وفيه الحفا والوجى والوقع ، فالحفا أن ينهك وتأكله الأرض ، والوجى أن يجد فى حافره وجعا ويشتكيه من غير أن يهى منه شيء بخرق أو غيره ، والوقع أن يشتكىْ حافره من الحجارة ، والرهص أن يصيب الحجر حافراً فيدوى باطنه .

ويقال فرس واق وقد وقى ذلك إذا كان يهاب المشى من وجع يجده فيه ، وفرس مُنعل إذا كان صلب الحافر كأنه انعل كما قيل لحمار الوحش إذا وصف بصلابة الحافر .

وسموا ماحول الحافر من الشعر أشاعر الفرس ، وما اضطمر من باطنه نسوره ، وأطلقوا على جانبيه الحاميان ، وعلى مقدمة السنبك وهو فارسى تكلمت به العرب قديما ، وقالوا حافر أرح إذا كان منبطح السنابك وأوب للمقعّب ومصرور للمضموم الصغير ومُكْنَبَ للكثيف .

وألوانها على ما ذكر أبو عبيدة : أدهم وأخضر وأحوى وكميت وأشقر وأصفر وأشهب وأبرش وملمّع ومولَع وأشيم ، ولكنها ليست بالثابتة لأنها كالأنغام فى سيمفونية من الألوان فلم يستقر منها الا البهيم المصمت ويقال لكل ذى لون واحد لاشية فيه إلا الأشهب فإنه لايقال له بهيم ، والذكر مصمت والأنثى مصمتة والجمع مصامت ، وكذلك يقال فى قوائم الفرس إذا لم يكن بهن تحجيل ، وأنشد ابو حاتم :

مبهمة مُصْمَتَة القوائم

والدهمة عند العرب السواد ولكنه يتعالى على أن يدرج فيه ، والدُّهم ستة : أدهم غيهب وهو أشدها سواداً

والأنثى غيهبة ، والغيهب الظلمة والجمع غياهب وكذلك الغربيب والحالك ، وأدهم دجوجى صافى السواد ، أوهو مأخوذ من الدجة وهى شدة السـواد والظلمه ، وأدهم يحموم وأدهم أحم وهو الذى أشربت سراته وحُجزته حمرة ، قال أبو تمام :

أو أدهـم فيـه كمتُـه أمـم
كـأنـه قطعـة مـن الغلَس

ثم أدهم أكهب وهو إلى الكدرة .

والعـرب تقول ملوك الخيـل دهمها ، والدهمـة عند العـرب من ألوان الأمل والخـير ، ادهامّ الزرع علاه السواد ريا ، وحديقة دهماء مدهامة خضراء تضرب إلى السـواد من نعمتهـا وريهـا ، وفى التنـزيـل العـزيـز (مدهامتان) أى سودا وان من شدة الخضرة من الرى ، وكـل نبت أخضر فتمام خصبـه وريـه أن يضـرب إلى السواد ، والعرب تقول لكل أخضر أسود ، وسميت قرى العراق سواداً لكثرة خضراتها .

والحوة أيضاً يقال فيها مايقال فى الدهمة فهى تتعالى على السواد وتكـون إلى الخضرة أو حمـرة تضرب إلى السواد ، قال الجوهرى الحوة لون يخالطه الكمتة مثل صـدا الحديـد ، والحمرة فى الشفـاة شبيـه باللعَس

واللمى ، قال ذو الرمة :

لمـــاء فى شـــفـــتـــيـــهـــا حـــوّةٌ لعسٌ
وفى اللثـــات وفى أنـــيـــابـــهـــا شـــنَـــب

وجميم أحوى يضرب إلى السواد من شدة خضرته وهو أنعم مايكون من البنات .

وعن النضر الأحوى من الخيل هو الاحمر السراة ، وفى الحديث خير الخيل الحو جمع أحوى وهو الكميت الذى يعلوه سواد ، وعند أبى عبيدة الأحوى أصفى من الأحم وهما يتدانيان حتى يكون الأحوى مُحلِفا يحلف عليه أنه أحم .

وعــلى ذلك فالاحــوى أربعة ألوان أحــوى أحم وهو المشاكل للدهمة والخضرة ، وأحوى أصبح وهــو الذى تقل حمرة مناخره فتصير إلى السواد ويكون البياض فيه غالباً على أطراف المنخرين ، وأحوى أطحل وهــو الذى تعتــريه صفــرة وخضرة مخــالطتان لكــدرة ، وأحــوى أكهب ، والكهب قلة ماء اللون وكدرته فى موضع المنخرين فى حمرتهما وفى سواد السراة فى بياض الأقراب .

والخضر أربعة : أخضر أحم وهو أدناه إلى الدهمة ، قال الشاعر :

خضراء حمّاء كلون العَوْهَق

وهو اللازورد .

وأخضر أدغم وهو أن يكون وجهه وجحافله أشد سواداً من سائر جسده وهو الديزج ويقال فرس أدغم وفرس دغماء ، قال الحجاج لصاحب دوابه :

أسرج الأدغم ، فخرج لايدرى ماقال له ، فسأل يزيد بن الحكم فقال له : أفى دوابه ديزج ؟ قال نعم قال : أسرجه له .

ثم أخضر أطحل وهو الذى تعلو خضرته صفرة ، وأخضر أورق وهو الذى كلون الرماد .

والكمُتة لون يعرف بالسلب قبل أن يعرف بالايجاب ، اقتنصوه بين الأشقر والأدهم ومن ثم كان الكميت فريداً فى عالم الألوان تفرده فى الحيوان فكان مصغراً وهو مكبر ، واستوى فيه المؤنث والمذكر ، قال الكلحبة :

كميت غير مُخْلَفة ولكن
كلون الصَّرف عُلَّ به الأديم

الصرف بالكسر صبغ أحمر يصبغ به شرَك النعال ، وما قاله الشراح من أنه يعنى أنها خالصة اللون لايحلف عليها أنها ليست كذلك لايستنفد المعنى لأن الكمتة تترقرق فى البيت متدافعة بين السواد والحمرة ، وخفاء حقيقتها ظاهرة فى كونها لاتحوج إلى الحلف عليها لان فى

ذلك إقراراً ضمنيا بالاختلاف فيها ، ولذلك جاء كلامهم فى حد الكميت على وجه التقريب ، فقالوا إنه لون بين السواد والحمرة او حمرة يدخلها قنوء ، قال أبو عبيدة فرق مابين الكميت والأشقر فى الخيل بالعرف والذنب ، فإن كانا أحمرين فهو أشقر ، وإن كانا اسودين فهو كميت ، والورد بينهما ، وقال ثعلب فى معنى البيت إن هذه الفرس بيّن أنها إلى الحمرة لا إلى السواد .

فهل أحبوها لأنها ندّت عنهم حقيقتها فكان تعلقهم بها ضرباً من النشوة التى تتجلى فيما خفى عليهم فعظم لخفائه كنشوتهم بالخمر ، والكميت كما قال أبو حنيفة اسم لها كالعلم ، غلب عليها غلبة الاسم العلم وإن كان فى أصله صفة ويدل على ذلك مجيئه مصغراً ، قال سيبويه فى باب ماجرى من الكلام مصغراً وترك تكبيره لأنه عندهم مستصغر فاستغنى بتصغيره عن تكبيره : سألت الخليل رحمه الله عن كميت فقال هو بمنزلة جميل يعنى البلبل أى لم يجر إلا مصغراً ، وقال إنما هى حمرة يخالطها سواد ولم تخلص فإنما حقّروها لأنها بين السواد والحمرة ، ولم يخلص أن يقال له أسودولا أحمر وهو منهما قريب فإنما هذا كقولك هو دوين ذاك .

وقياس الكميت على جميل سديد من جهة الصناعة النحوية ولكن حمل التصغير على التحقير ليس بسديد من

جهة المعنى وهم قد قـالوا إن الكمتة أحب الألوان إلى العرب ، فالأولى أن يقال إن التصغير للتمليح أو التعظيم الذى اختفى لفظه وبقى معناه فى الجمع وهو كُمت ، قال أبو علي الفارسى توهمـوا أكمت لأن أكثر الألوان إنمـا يجيء على أفعل ، كأنه لون يتعالى على ماعرف من الألوان فيتم بذلك تمامه ، كما يكون فى الكميت وهو الطويل التام من الشـهـور والأعوام ولكنـه تمام تنقص معـه الحياة وتفنى كما يفنى البصر كلما تملىّ من جمال الأفراس .

وكأنما راعتهم فى الكمتة أنغام ألحت عليهم فقـالوا كميت أحم الذى يشـاكل الأحـوى ، والحـوة خضـرة تضرب إلى ا السواد ، غير أنه تفصل بينهما حمرة أقرابه ومراقه ومرُيطائه وهى الجلدة التى بين العانة والسرة ، والاقراب من الشاكلة التى هى الخاصرة إلى مراقّ البطن واحدها قُرْب وقرُب ، قال الأصمعى : أشد الخيل جلوداً وحوافر الحَمّ ؛ وكميت أصحم للأسود الذى يضرب إلى الصفـرة وكميت أطخم لما كـان فى مقدم أنفـه سواد ، وكميت مدمى لما كان شديد الحمرة وكلما انحدر إلى مراق البطن يزداد صفاء ، وكميت احمر أشد حمرة من المدمّى وهو أحسن الكمت ، وكمت مُذْهَب تعلو حمرته صفرة ، وكميت مُحلف وهو أدنى الكمت إلى الشقرة وظاهر شعر ذنبه وعرفه كلون جسده وباطنه أسود والأنثى محلفة ،

ولم يكن محلفا إلا لأن الشك فى كمتته يغلب اليقين بحيث أحوج إلى الحلف عليه ، وكميت أكلف ، وهـو الذى لم تصف حمرته ويرى فى اطراف شعره سـواد ، وكميت أصدأ وهو الذى فيه صدأة أى كدرة بصفرة قليلة شبهت بلون صدإ الحديد .

وبلون الورد قيل للأسد ورد للفـرس ورد وهو بـين الكميت والأشقر كأنه أحمر يضرب إلى صفرة ، والجمع ورد ووراد والأنثى وردة ، قال أبو عبيدة فى قوله تعالى : (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) قيل إنـه أراد والله أعلم فرساً وردة ، وتكون فى الربيع وردة إلى الصفرة ، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبـرة ، فشبه تلون السمـاء بتلون الوردة من الخيـل ، وشبـه الوردة فى اختـلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ، قال المرّار العدوى :

فـهـو ورد اللون فى ازبئـراره
وكـمـيـت اللون مـالم يـزبئـرَّ

الازبرار الانتفاش ، فكـأن له لونين الورد والكميت يظهر أحدهما باختفاء الثانى كما خضبه الرعب وهو فى قول أبى دواد الايادي :

له سـاقـا ظليـم خـا
ضـب فـوجـىء بـالرعْـبِ

حــديــد الطّرف والمــنــكــب والعــرقــوب والقــلْب

وفى قول امرىء القيس :

لهــا ثُــنَــنٌ كـــخــوافى العــقــاب ســودٌ يــفئــن إذا تــزبئــر

تستبــين كمنتــه إذا سكنت شعــراتــه وهى الثنن ، ويستبين أصول الشعر إذا ازبأر ، وأصول الشعر أقل حمرة من أطرافه ، ومثله قول ساعدة بن جؤية وذكر وعلا يقشعر فيخرج باطن شعرته فيبدو لون غير لونه ثم يسكن فيعود لونه الأول :

تــحــوّل لونــاً بــعــد لون كـــأنــه بــشفّـــان يـــومٍ مُـقلع الريـــح يــصــرُدُ

والشفان الريح الباردة ، ونظيره :

تــحــول قـــشــعـــريــراتُـــه دون لونــه فــرائصــــه من خــيفـــة المــوت تـــرعـــد

وقيل فى قوله تعالى : (فإذا انشقت السمــاء فكانت وردة كالدهان) صارت كلون الورد ، وذلك يوم القيامة تتلون من الفزع الأكبر تلّون الدهان المختلفة ، يدل عليه

قوله تعالي : (يوم تكون السماء كالمهل) .

كأن الفزع فى كل ذلك يصرخ به التلون والدهان .

الشقرة حمرة صافية يشدو بها شعر العرف والذنب والناصية ، والشقرة فى الدم وهو الذى صار علقا لم يعله غبار ، وفى شقائق النعمان وتسمى الشقر بكسر القاف ، ويقال نبت أحمر واحدتها شقرة ، وبها سمى الرجل شقِرة ، قال طرفه :

وتساقى القوم كأساً مرة
وعلى الخيل دماءٌ كالشُّقِر

- وكأن الموت يهدر فى هذا اللون .

والشقر منها أدبس كأنهم صبغوه بما يسيل من الرطب ، وخلوقى ضمخوه بالطيب ، وأصبح ألقوا عليه حلة الصباح ، ومدمّى مصبوغ بالدم ، ومقرف مدبوغ بالقرفة وهى قشر الرمان ، وسلغد خلصت شقرته ، وأقهب مغبر إلى سواد ، وأمغر تعلو شقرته مغرة وهى الكدرة ، وأفضح يفضحه البياض .

ومن الخيل الصُّفر يقال فرس أصفر وصفراء ، وآيته أن يصفر ذنبه وعُرفه فإذا لم يصفرا جرّد من الصفرة ، والصفُّر أربعة : فاقع وأعفر وناصع وذهبى يقال له سوسنى .

والشهبة والشهّب غاية ماقيل فيه إنه بياض يصدعه سواد فى خلاله ، شهب شهبة واشهب وهو أشهب ، أما حقيقته فقد شك فيها ابن الأعرابى وأنكر أن يكون فى الخيل ، وربما كانت حجته هى حجة أبى عبيدة من أن الشهبة كالشىء الكامن الذى يستدل عليه بغيره ، فالشهبة كما قال ان تشق معظم لونه شعرة أو شعرات بيض كميتا كان أو أشقر أو أدهم ، وإذا صح هذا فقد صح عدم وجود الأشهب اكتفاء بالكميت والأشقر والأدهم .

ومع ذلك فالأشهب ثابت باللغة وماثبت باللغة لاينفيه التصور العقلى للألوان ، وماكانت ألوان الخيل ولا ألوان غيرها قائمة على هذا التصور ، وإلا فأين الألوان التى يقال لها رئيسية فى كل ماتقدم ولا أسود فيها ولا أحمر إلا جاء مخلوطا بشىء آخر دلت عليه اللغة قبل أن يدل عليه علم الألوان .

والشهبة من هذا الباب فلا هى بياض ولا هى سواد وإنما هى بياض غلب على السواد ، إذا صح ذلك فما الوجه فى قولهم أشهب الرجل إذا كان نسل خيله شهبا ولم انفرد هذا الحرف دون غيره بذلك ؟ قد يقال إن هذا ينزل منزلة أورق الشجر صار ذا ورقوطفلت المرأة صارت ذات طفل ، ولكن بقى أن الفعل اللونى لم يؤخذ إلا من

الشهبة . وإذا تركنا ذلك الى وجوه الاستعمال التى تقع فيها وجدناها تقال فى الكتيبة كتيبة شهباء لما فيها من بياض السلاح والحديد فى حال السواد ، وسنة شهباء إذا كانت مجدبة بيضاء من الجدب لايرى فيها خضرة ، وقيل الشهباء التى ليس فيها مطر ، ثم البيضاء ثم الحمراء ، قال زهير :

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت
ونال كرامَ المال فى الحجرة الأكلُ

قال ابن برى الشهباء البيضاء أى بيضاء لكثرة الثلج وعدم النبات ، وأجحفت أضرت بهم وأهلكت أموالهم ، وقوله ونال كرام .... يريد كرائم الابل ، يعنى أنها تنحر وتؤكل لأنهم لايجدون لبنا يغنيهم عن أكلها والحجرة السنة الشديدة التى تحجر الناس فى البيوت .

فاللون لاتنتهى إليه حقيقة الشهبة ولعله لايخرج عن أن يكون عرضاً من أعراضها وعلامة من علاماتها فى سياق الأمن والخوف ، والجدب والمطر ، والموت والحياء ، يقال يوم أشهب وسنة شهباء وجيش أشهب أى قوى شديد ، وأكثر مايستعمل فى الشدة والكراهة ، وفى حديث العباس قال يوم الفتح : يا أهل مكة أسلموا

تسلموا فقد استبطنتم بأشهب بازل ، أى رميتم بأمر صعب لا طاقة لكم به ، وجعله بازلا لأن بزول البعير نهايته فى القوة ، وفى حديث حليمة خرجت فى سنة شهباء أى ذات قحط وجدب ، والشهباء الأرض البيضاء التى لاخضرة فيها لقلة المطر من الشهبة وهى البياض ، فسميت سنة الجدب بها .

فالشهبة تداخل بين أمرين يطغى احدهما على الآخر من طريق المفاجأة بالارض والشدة والقحط وغيرها من معانى السلب ، والبياض والسواد كالقطبين اللذين تؤول إليهما هذه المعانى ويتدافعان إذا زاد هذا قل ذاك ، يدل عليه قولهم نصل أشهب برد بردا خفيفا فلم يذهب سواده كله ، وشهّب البرد الشجر إذا غير ألوانها ، واشهاب الزرع قارب الهيج فابيضّ وفى خلاله خضرة قليلة ، والشهاب اللبن الذى ثلثاه ماء وثلثه لبن وذلك لتغير لونه ، واللون فى هذه الأحوال يكون كالتلاشى لاتظهر معالمه ومن أجل ذلك كان إنكار من أنكر أن يكون فى الخيل أشهب .

والزخرفة أطلقوها على مالايقال له بهيم ولاشية فيه ، ومبناها على النُكت والبقع واللمع التى تخالف سائر لونه ، وكان منها الأبرش الذى زينه البرش يلمع مخالفة ، والأنمر داخلته بقعة بيضاء وأخرى من أى لون

كان ، والأشيم تناثرت فى جسده شامات ، ثم المدّنر والأبقع .

وقد راعتهم المخالفة إذا زادت فسموها الشية وهى كل لون خالف سائر لون جميع الجسد فى الدواب ، وأول مايطالعنا من ذلك بياض الجبهة صغّروه إلى قرحة وكبروه إلى غرة ، ولما اعتدلت فى قصبة الأنف أسالوها فى المعنى كما أسالوها فى المبنى فقالوا سائلة ، ولما استدارت جعلوها وتيرة كوتيرة القوس ، ثم دقت وسالت وجللت الخيشوم ولم تبلغ الجحفلة وهى الشفة فكان منها شمراخ كالشمراخ الذى عليه البسر وكشمراخ الجبل الذى يطول ويدق فى أعلاه ، والفرس كله كأنما يتجسد فى ذلك ومن أجله يقال له شمراخ وشمروخ .

فإن سالت غرته ودقت فلم تجاوز العينين فهى العصفور ، فإن أخذت جميع وجهه غير أنه ينظر فى سوادٍ فهى المُبرْقِعة ، فإذا استطالت فى وجهه حتى تساوى أعلى الأنف فهى اليعسوب ، واليعسوب طائر أطول من الجرادة لايضم جناحه إذا وقع ، وقد تشبه به الخيل قال بشر :

أبو صبية شُعْثٍ تطيف بشخصه
كوالح أمثال اليعاسيب ضمَّر

وتكون أيضا يعسوباً إذا ارتفعت على قصبة الأنف وعرضت واعتدلت حتى تبلغ أسفل الخليقاء قلت أو كثرت مالم تبلغ العينين ، واليعسوب كما يكون فى أعلى الفرس يكون فى أسفله ومن ثم سموا الدائرة التى فى مركضه يعسوباً .

وكما أحاطوه بهذا الطائر خطموه بالبياض فقالوا فرس مخطَّم إذا أخذ البياض من خطمه إلى حنكه الأسفل ، فإذا انتشرت الغرة فهى شادخة ، وقد تنتشر وتسيل سفلا فتملأ الجبهة ولاتبلغ العينين ، أو تغشى الوجه من أصل الناصية إلى الأنف ، فإذا أبيضَ موضع اللطمة فهو لطيم ، ولهم فيه أقوال شتى أدناها أن يأخذ خديه بياض ، قال أبو عبيدة إذا رجعت غرة الفرس من احد شقى وجهه إلى أحد الخدين فهو لطيم ، وأقصاها أن تكون غرته أعظم الغرر وأفشاها حتى تصيب عينيه أو إحداهما أو تصيب خديه أو أحدهما .

وكأن ذلك أمر خفى لا فاعل له بل لافعل له ولذلك قالوا إنه من باب مدرهم وجاء على مالم يسم فاعله ، ويشدد مع ذلك للكثرة فيقال خد ملطَّم ، ويشبه أن يكون عندهم اثراً تخلف عن عقوبة كونية جميلة تركت فيه هذا البياض كما قال ابن نباته السعدي :

وكـــأنـــمــا لطم الصـــبــاحُ جـــبــيـــنَــه

فــاقــتـصّ منـــه فخـــاض فى أحشـــائِـــه

وقال المتنبى :

وعـــيـــنـــي عـــلى أذْنـــى أغــر كـــأنـــه

مـن الليــل بــاق بـــين عيـنيـــه كـــوكـب

كيف لا وقـد أفضوا بـالحيـوان إلى طريق النجـوم والكواكب وجعلوْا مصيره من مصيرها ، وسمّوا الفصيل من الابل الذى يفصل عند طلوع سهيل لطيما ، وذلك أن صاحبه يأخذ بأذنه ثم يلطمه عند طلوع سهيل بعد أن يقول له : ألا ترى سهيلا والله لاتذوق عندى قطرة .

واللطيم من جهة أخرى ابن القصاص الأرضى الذى ينزل به فى الحلبة ، فهو التاسع من سوابق الخيل يلطم وجهه فلا يدخل السرادق ، وقد ظلم داحس فى الحرب التى عرفت باسمه حين لطم وكان ظلما انتهى إلى الشر ، وكان الذى لطمه عمير بن نضلة فجسأت يده أى صلبت وجفت جزاء ظلمه وبقى اسمه جاسىء شاهدا على ذلك ، فقد جعل بنو فزارة كمينا بالثنية وهى فى طريق الغايـة فاستقبلوا داحسا فعرفوه فـأمسكوه وهـو السابق ولم يعرفوا الغبـراء وهى خلفة مصلّيـة حتى مضت الخيل واستهلت من الثنية ، ثم أرسلوه فتمطر فى آثارها فجعل يبدرها فرساً فرساً حتى سبقها إلى الغاية مصليا وقـد

طرح الخيل غير الغبراء ، ولو تباعدت الغاية لسبقها ، فاستقبلها بنو فزارة فلطموها ثم حلئوها عن البركة ثم لطموا داحساً وقد جاءا متواليين .

وقد كانوا يتشاءمون من الغرة إذا طالت حتى تسيل تحت أذنى الفرس وينبزونه بالنطيح كأنه تجاوز حد الجمال .

ومن الشيات التحجيل قيدوا معه القوائم بقيود من البياض وخلاخيل يرتفع ويجاوز الأرساغ ولايجاوز الركبتين وهى مواضع الأحجال ، قال الأزهرى وأخذ تحجيل الخيل من الحجل وهو حلقة القيد جعل ذلك البياض فى قوائمها بمنزلة القيود ، ويسمى بعد القوائم التى يكسوها ، إذا أصاب القوائم كلها فالفرس محجل أربع ، وإن كان فى ثلاث فهو محجل ثلاث مطلق يد أو رجل يمنى أو يسرى ، وكل قائمة بها بياض فهى ممسَكة ، وكل قائمة ليس بها وضح فهى مطلقة ، فإن كان البياض فى الرجلين جميعا فهو محجَّل الرجلين ، وإن كان فى إحداهما فهو الأرجل .

ثم تأتى لهم من التحجيل حسن التقسيم إذ يكون واقعا بيد ما لم يكن معها رجل أو رجلان ولا بيدين مالم يكن معها رجل أو رجلان أو وضح بالوجه ، فإن كان التحجيل فى يد ورجل من شق واحد فهو ممَسَك الأيامن

مطلق الأياسر أو ممسك الأياسر مطلق الأيامن ، ويقال الأيمنين والأيسرين وإن كان من خلافٍ كل أو كثر فهو مشكول وهو مكروه فى الحديث كما تقدم .

وكما جعلوا من البياض الذى فى القوائم قيودا وخلاخيل جعلوا البياض الذى فى إحدى اليدين سواراً وسموا الفرس أعصم اليمنى أو اليسرى ، مأخوذ من المعصم وهو موضع السوار من الساعد ، قال :

فاليوم عندك دلها وحديثها
وغداً لغيرك كفها والمعصمُ

وإذا كان البياض فى يده اليسرى قيل منكوس وهو مكروه ، وإن كان البياض بيديه جميعا فهو أعصم اليدين إلا إن يكون بوجهه وضح فهو محجّل ذهب عنه العصَم .

والوضح الضوء والبياض يحلى القوائم بالخاتم والإنعال والتخديم والصبغ والتجبيب والمسرول والأخرج والتسريح ، فأقل وضح القوائم الخاتم وهو شعرات بيض ، فإذا جاوز ذلك حتى يكون البياض واضحاً فهو إنعال مادام فى مؤخر رسغه مما يلى الحافر ، فإذا جاوز الأرساغ فهو تخديم ، من الخدَمة وهى سير يشد فى رسغ البعير تشد إليه سريحة النعل وبه سمى الخلخال خدمة لأنه ربما كان من سيور يركب فيه الذهب

والفضة .
وإذا أبيضتّ الثنّه كلها (وهى الشعرات التى فى مؤخر الرسغ ولم يتصل بياضها ببياض التحجيل فهو أصبغ ، وإذا ارتفع البياض فى القوائم إلى الجبب (جمع جبة وهى مغرز الوظيف فى الحافر) فما فوق ذلك مالم يبلغ الركبتين والعرقوبين فهو التجبيب ، فإذا بلغ التجبيب الركبتين والعرقوبين فهو مسُرَوْل حتى يخرج من الذراعين والساقين ، فإذا خرج من الذراعين والساقين فهو أخرج ، وكل بياض فى التحجيل مستطيل فهو تسريج .
وتحيط عندهم بالفرس دوائر تسمى بأسماء أجزائه أو بأسماء الطير أو النجوم منها دائرة المحيا وهى اللاصقة بأسفل الناصية ، ودائرة اللَّطاة فى وسط الجبهة سميت الدائرة باسمها ، وليست تكره إذا كانت واحدة فإن كان هناك دائرتان قالوا فرس نطيح وهى مكروهة ، ودائرة المعّوذ وهى فى موضع القلادة ، ودائرة السّمامة فى وسط العنق ، والسمامة من الطير ، ودائرة الناحِر فى الجِران ، والناحران عرقان فى صدر الفرس ، والجران باطن العنق ، ودائرتان فى نحره ويقال لهما البنيقتان الواحدة بنيقة وهى اللبنة وكل رقعة تزاد فى الثوب ، والدائرة التى تحت اللِّبْد هى القالع والجمع

القــوالع ، والدائرة التى فى غـرض زوره هى الهقعْة ، والهقعة ثلاثة أنجم نيرة قريب بعضها من بعض وهى رأس الجوازء ينزلها القمر ، وهذه الدائرة تكره ويقال إن المهقوع لا يسبق أبداً ، والدائرتان اللتان بين الحجبتين والقصرين يقال لهما الصقران ، والحجبة رأس الورك والقصرى الضلع التى تلى الشاكلة ، ودائرة الخـرب تكون تحت الصقرين والخرب ذكر الحبارى ، والدائرة التى على الجاعرتين وهما حرفا الوركين المشرفان على الفخدين يقال لها الناخس ، والناخس فى البعير جـرب يكون عند ذنبه ، والفرس منحوس وهم يتشاءمون به .

ولم يذكر اللغويون من أمر الدوائر إلا ما قدمناه من كراهية العـرب لبعضها دون بعض ، فكـانت تستحب الدائرة التى فى موضع القلادة ودائرة السمامة والهقعة وتكره النطيح واللاهز والقالع والناخس ، ويظهر من ذلك أن سبيلها هى سبيل ما يماثلها من الداوئر التى تتجاوز المعالم الحسية إلى ماوراءها وتضم فى أعطافها كل شيء من الدهر إلى قطعـة الرمل المستـديرة ، والدهـر دوار بالإنسان ودوّارى أى دائر به عـلى إضافـة الشيء إلى نفسه ، قال أبو على الفارسى هو على لفظ النسب وليس بنسب ، وصلة الإنسان بالدهر هى على هذا الوجه داخلة فيه وخارجه عنه ، فالدوّارى الدهر بالإنسان أحوالا قال

العجاج :

والدهـــر بـــالإنـــســـان دوّارى

أفـــنـــى القـــرون وهـــو قـــعـــســـرىٌّ

والدارة دائرة القمر التى حوله وهى الهالة ، ودارة الوجه ما يحيط من جوانبه ، وفى الحديث : أهـل النار يحترقون إلا دارت وجوههم ، أراد أنها لا تأكلها النار لأنها محل السجود ، والدائرة الشعر المستدير على قرن الإنسان قال ابن الأعرابى هو موضع الذؤابة .

ومماثلة الدوائر التى فى الفرس لهذه الدوائر شهادة على انتماء ما تحيط به إلى عالم واحد يأخذ الفرس منه كما يعطيـه ، وماقـدمناه فى الألوان يصـدق مانقـول ، فألوان الخيل ألوان للوجود الذى تجليه الخيل ، فشهبة الخيـل من شهبـة السمـاء وكمتتـه من كمتـة الأرض وسمامته من طائر يحلق ، ومن ثم كانت دوائر كدوائـر الفلك التى تدور بالإنسان .

والدائرة شكل هندسى كامل بذاته ، يحمل فى طياته الدليل على الكون الذى يصارع الفساد ، وفى الحديث إن الزمـان قـد استـدار كهيئـه يـوم خلق الله السمـوات والأرض ، ومعناه أن العرب كانوا يؤخرون المحرم إلى صفر وهو النسىء ليقاتلوا فيه ويفعلون ذلك سنة بعد سنة فينتقل المحرم من شهر إلى شهر حتى يجعلوه فى جميع

شهور السنة ، فلما كانت تلك السنة كان قد عاد إلى زمنه المخصوص به قبل النقل ودارت السنة كهيئتها الأولى .

ولا يمنع ذلك من أن يكون معنى الدائرة على الضد من ذلك ، كالهزيمة والسوء فى قوله تعالى : (عليهم دائرة السوء) وقوله عز وجل : (ويتربص بكم الدوائر) على معنى الموت أو القتل لأن الهزيمة هى الوجه المظلم للنصر والقتل هو الوجه المظلم للحياة .

ومن دوائر الفرس التى تناقلت العرب ما ذكرته الهند فيها من البركة والشؤم أنه إذا كان فى موضع حكَمته دائره أو على جحفلته العليا دائرة كان مما يرتبط ، وما كان منها ليس فى وجهه ولا فى صدره دارة[1] فمكروه ارتباطه ، وما كان فى صدره دارة إلى التربيع أو كان فى رأسه دارتان أو على خاصرته أو على مذبحه دارة ، أو فى عنقه أو على خطْمه أو على أذنه شعر نابت كزهرة النبات كان ذلك مما يرتبط وتقضى عليه الحوائج ويكون صاحبه مظفراً فى الحروب ولا يرى فى أموره إلا خيراً .

وإنما يكره ارتباطه فى هذه الأحوال لأنها منافية لما ينبغى عليه من اتساق والاتساق صنو البركة وحليف الخير ، والشعر النابت كزهرة النبات يمن وظفروالتربيع

(١) الدارة الدائرة .

كمال كالتدوير لأنه شكل إنسان وهو أشرف المخلوقات ، ولو قيس إنسان من أخمص قدمه إلى شعر رأسه ثم قيس ما بين ذراعيه وقد مدهما لكان طوله مساويا لعرضه كما يكون فى المربع الكامل .

ومما نَغّصهم فى الفرس أيضا وكرهوا معه أن يرتبط أن يكون فى مقدم يده دارة أو أسفل من عينيه أو فى أصل أذنيه من الحاجبين دارتان أو على مأبضه[1] أو على محجره دارة ، أو فى خده أو جحفلته السفلى أو على ملتقى لحييه دارة ، أو فى بطنه شعر منتشر أو على سرته دارة ، أو كانت أسنانه طالعة على جحفلته ، أو له سنّان ناتئان بمنزلة أنياب الخنزير ، أو فى لسانه خُطط سود لا خضر .

وهم إنما استحبوا فى الخيل أشياء وأنكروا منها أشياء ، لأن الفرس ينزل عندهم منزلة الحيوان المثالى بعد الإنسان فى تركيبه وتناسق أعضائه وتناسب إيقاعه فى الحركة والسكون ، إذا اختل شىء منها كان فى ذلك اختلال الروح ، والجسد شقيق له ومرآة ، فمما يستحب عندهم فى الفرس وقد ذكره الأصمعى أن تعرض جبهته وتألّل أذنه ويخشع حَجاجه ويحد طرفه ويتعرق خدّاه ويلْهز ماضغه ويتسع منخره ويرحب شدقاه ويدقّ

(١) المأبض باطن الركبة والمحجر للعين

مستطعمه ويرقّ مذبحه ويطول عنقه ويشرف ويرق زوره وهو الصدر ، وتعظم مبرْكته وهو ما استقبلك من صدره ويرهل منكباه ويعرض كتفه ويشرف منسجه ويقصر ظهره ويلحب متنه فيقل لحمه .

وكرهوا فى ضد ذلك قلة الدماغ واضطراب الأذن وغلظ الجحفلة وضيق الشدق وضعف الضرس وكثرة لحم الوجه وعظم العنق ، ودنوّ الصدر من الأرض وكثرة لحم المتن واضطرابه وميل الذنب فى أحد الشقين وأن يقع حافرا رجليه على مواقع يديه ، وكأن أصحاب هذه اللغة ارادوا أن يصنعوا منها للفرس ركضاً جميلا من الألفاظ يحميه من هوة السقوط فى القبح والدمامة ، ومن أجل ذلك استكثروا من نعوت الخيل من قبل شدة خلقها وأخرى من قبل حسنها ، يسوقونها كما تساق التعاويذ ، ولم يجدوا أنسب ولا أعدل من الروعة يقيمون فيها جمال الفرس إذ قالوا فرس رائع كما قالوا امرأة رائعة ، ذلك لأن الروعة مناجزة للحسن الطاغى الذى لايخلو من فزع ، فهى تتعالى على مطلق الحسن بمقدار مايرد عليه من دواعِ 'تبرّئه من جوانب السلب فيه بحيث ينقلب إلى حسن مؤثر .

وأما نعوتها من قبل الشدة فقد وثقّوها كما فى قولهم المكرب والصلْدمة والعجلّزة ، ودلوا فيها على الطول

والجسامة والاتساع والضخامة فقالوا فرس فرضاخ واسع وفرس أطنب إذا طال ظهره وضليع تام الخلق ، ونهد جسيم ، ومرضوم العصب إذا كان قد تشنج وصار فيه كالعقد ، ومغار شديد المفاصل ، ودرير مكتنز الخلق مقتدر ، وهيكل ضخم عبل لين .

ولهم فى صفة مشيها وغزوها من الكلمات ما ثار فيه الغبار واشتعل اللهب وعدا الثعلب وعسل الذئب وحجلت الغربان وانهمر السيل .

وقد سطروا لمشيه تاريخاً مرتبّاً كالملحمة مع نفسه ومع الطبيعة ، فأوله العنَق ثم التوقّص وهو أن ينزو نزواً ويقرْمِط ومنه الدألان وهو مشى يقارب فيه الخطو ويبقى فيه كأنه مثقل من حمل، والذألان وهو مر خفيف سريع وقد ذأل فإذا رفع يديه معاً ووضعهما معاً فذلك التقريب ، فإذا عدا عدو الثعلب فتلك الثعلبية ، فإذا ارتفع عن ذلك فهو الحضر ، فإذا ارتفع فسال سيلاقيل مر يجرى جرياً ، فإذا اضطرم جريه قيل مرّ يهدب وهى الهيدبى ومر يُلْهِب .

فإذا بدأ بالعَدو قبل أن يضطرم قيل أضبح ، فإذا اجتهد قيل أهمج ، فإذا رجم الأرض رجماً وجاء بين العدو والمشى قيل ردى رديا وردَيانا ، وإذا رمى بيديه رميا ولم يرفع سنُبكه عن الأرض كثيراً قيل مر يدحو

دحوا ، وإذا مر سهلاً بين العدو الشديد واللين فذلك الطميم وقد طم يطِمّ ، فإذا وقعت حوافر رجليه مواضع حوافر يديه قيل قرن يقرُن قِراناً إلى آخر ماذكروه فى هذا الباب .

ومما يتصل بذلك أسماء السوابق فى الحلبة وهى عند أبى عبيدة عشرة . أولها السابق ثم المصلى ثم الثالث والرابع كذلك إلى التاسع ، والعاشر السكيت ويقال بالتشديد ، وقال ابن قتيبة فما جاء بعد ذلك لم يعتد به ، والفسكل الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل ، وقال الجاحظ : كانت العرب تعد السوابق ثمانية ولا تجعل لما جاوزها حظا ، فأولها السابق ثم المصلىٍّ ثم المقفىٍّ ثم التالى ثم العاطف ثم المذمر ثم البارع ثم اللطيم ، وكانت العرب تلطم وجه الآخر وإن كان له حظ .

والمسابقة مما كان فى الجاهلية فأقره الإسلام ، وأول مسابقة كانت فى الإسلام سنة ست من الهجرة ، سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل فسبق فرس لأبى بكر الصديق ، وعن الواقدى قال سبق أبو أسيد الساعدى على فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم لزاز[١] فأعطاه حلة يمانية ؛ وعن مكحول رضى الله عنه

---

(١) لزاز بكسر اللام اسم فرس للنبى صلى الله عليه وسلم سمى بذلك لشدة تلززه واجتماع خلقه وهو الذى أهداه المقوقس مع مارية القبطية .

قال : طلعت الخيل وقد تقدمها فرس للنبى صلى الله عليه وسلم فبرك على ركبتيه وأطلع رأسه من الصف وقال : كأنه بحر ، وفى لفظ عن مكحول فجاء فرس له أدهم سابقاً وأشرف على الناس فقالوا الأدهم وجثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه ومر به وقد انتشر ذنبه وكان معقوداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : البحر .

وأجرى صلى الله عليه وسلم فرسه الأدهم فى المحصَّب بمكة فجاء فرسه سابقاً فجثا على ركبتيه حتى إذا مر به قال إنه لبحر ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه كذب الحطيئة فى قوله :

وإن جـيـاد الخـيـل لاتـسـتـفـزنـى
ولا جـاعـلات العـاج فـوق المـعـاصـم

ولو كان صابراً أحد عن الخيل لكان رسول الله أولى بذلك(١) .

---

(١) انظر نهاية الأرب ٩/ ٣٧٠ وهامش انساب الخيل لابن الكلبى ص ٨ .

الفهرس

الصفحة

الموضوع

من إصدارات النادى الأدبى الثقافى بجدة

■ قمم الأولمب « شعر » : للأستاذ : محمد حسن عواد ـ طبع

■ الساحر العظيم « شعر » للأستاذ : محمد حسن عواد ـ طبع .

■ عكاظ الجديدة « شعر » للأستاذ : محمد حسن عواد ـ طبع .

■ الشاطىء والسراة « شعر » للأستاذ : محمود عارف ـ طبع .

■ من شعر الثورة الفلسطينية « شعر » للأستاذ : احمد يوسف الريماوى ـ طبع .

■ أنين وحنين « شعر شعبى » للأستاذ : منصور بن سلطان ـ طبع .

■ محرر الرقيق « سليمان بن عبدالملك » « دراسة » محمد حسن عواد ـ طبع .

■ من وحى الرسالة الخالدة « اسلاميات » محمد على قدس ـ طبع .

■ المنتج الفسيح « آداب وعلوم » للأستاذ محمد حسن عواد ـ طبع .

■ طبيب العائلة د . حسن يوسف نصيف ـ طبع .

■ مذكرات طالب (طـ ٢) د . حسن يوسف نصيف ـ طبع .

■ شمعة على الدرب « نثر » للدكتور عارف قياسة ـ طبع .

■ أطياف العذارى « شعر » للشاعر المرحوم مطلق الذيابى ـ طبع

■ كبوات اليراع « تصويبات لغوية » للشيخ ابى تراب الظاهرى ـ طبع .

■ عندما يورق الصخر « شعر » للأستاذ ياسر فتوى ـ طبع .

■ ورد وشوك « مطالعات » للأستاذ حسن عبدالله القرشى ـ طبع .

■ فى معترك الحياة « مجموعة آراء » للأستاذ عبدالفتاح أبو مدين ـ طبع .

■ الوجيز فى المبادىء السياسية فى الاسلام « نظرات اسلامية » سعد ابو جيب ـ طبع .

■ أوهام الكتاب « تعقبات مختلفة » للشيخ أبى تراب الظاهرى ـ طبع .
■ على احمد باكثير « حياته .. شعره الوطنى والاسلامى » ـ دراسة للدكتور احمد عبدالله السومحى ـ طبع .
■ نغم وألم ـ شعر ـ الشريف منصور بن سلطان ـ طبع .
■ الكلب والحضارة « قصص فى البيئة » للأستاذ عاشق الهذال ـ طبع .
■ شواهد القرآن ـ دراسات ـ للشيخ أبى تراب الظاهرى .. طبع .
■ التشكيل الصوتى فى اللغة العربية ـ دراسة ـ للدكتور سلمان العانى .. طبع .
■ أريد عمرا رائعا ـ شعر ـ للشاعر عبدالله جبر .. طبع .
■ ترانيم الليل ـ المجموعة الشعرية الكاملة ـ للشاعر محمود عارف .. طبع .
■ المجموعة الشعرية الكاملة ـ للشاعر محمد ابراهيم جدع .. طبع .
■ حروف على أفق الاصيل ـ شعر ـ للشاعر حمد الزيد .. طبع .
■ من أدب جنوب الجزيرة ـ دراسة ـ للأستاذ محمد بن احمد عيسى العقيلى .. طبع .
■ غناء الشادى ـ شعر ـ للشاعر المرحوم مطلق الذيابى .. طبع .
■ الشمشاطى وتحقيق كتابه الأنوار ومحاسن الأشعار ـ رسالة دكتوراه .. للدكتور عبدالمحسن القحطانى .. تحت الطبع .
■ الذيابى تاريخ وذكريات اعداد « الشريف منصور بن سلطان » .. طبع .
■ محاضرات النادى القسم الأول .. طبع
■ محاضرات النادى القسم الثانى .. طبع
■ محاضرات النادى القسم الثالث ـ تحت الطبع .
■ المتنبى معالى الاستاذ احمد الشامى .. طبع
■ هموم صغيرة أقاصيص للاستاذ محمد على قدس ـ طبع
■ أمواج وأثباج للأستاذ عبدالفتاح أبو مدين ـ طبع (الطبعة الثانية)
■ الخطيئة والتكفير ـ من البنيوية الى التشريحية ـ د . عبد الله الغذامى ـ طبع .

■ التجديد فى الشعر الحديث .. دراسة ادبية للدكتور يوسف عزالدين - تحت الطبع .

■ التراث الثقافى للاجناس البشرية فى افريقيا .. دراسة علمية .. د . عبدالعليم عبدالرحمن جعفر - طبع .

■ فلسفة المجاز . . دراسة لغوية للدكتور لطفي عبدالبديع - طبع .

■ بكيتك نوارة الفأل . . سجيتك جسد الوجد - شعر - عبدالله عبدالرحمن الزيد - طبع .

○ ○ ○